سبارتاكوس

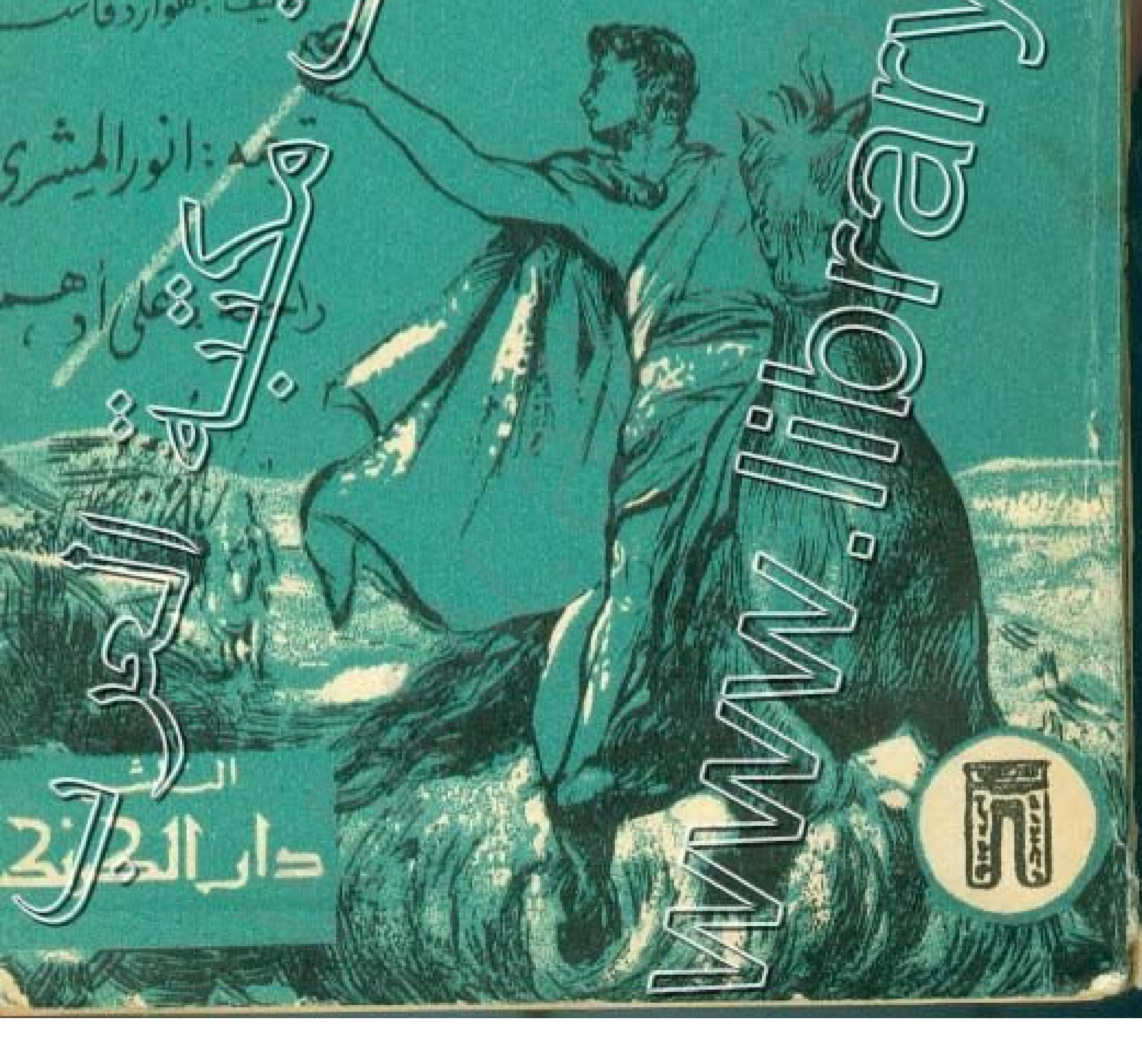
ثورة العبيد

الجزء الأول

تأليف: هوارد فاست

ترجمة: أنور المشري

راجعه: علي أدهم



الناشر
دار الكرنك

بإشراف الكتاب
المجلس الأعلى للعلوم العالي

الألف كتاب (٣١٤)

سبارتاكوس

(ثورة العبيد)

بإشراف
الإدارة العامة للثقافة
وزارة التعليم العالى

١٩٦٢

تصدر هذه السلسلة بمعاونة

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

الألف كتاب
(٤٦)

سبارتاكوس
(ثورة العبيد)

تأليف
هوارد فاست

(الجزء الأول)

ترجمه
أنور المشري

راجعه
محمد بدران

الناشر
دار الكرنك للنشر والطبع والتوزيع
عمارة رمسيس - ميدان رمسيس بباب الحديد القاهرة

هـــذه ترجمـــة كتاب :

Spartacus

تأليف

Howard Fast

الجزء الأول

كيف رحل [illegible] كراسوس على الطريق
من روما إلى كابوا فى شهر مايو

تبدأ حوادث القصة قبل عام ٧١ قبل الميلاد

— ١ —

يقول التاريخ إن منتصف شهر مارس شهد إعادة فتح الطريق للسفر بين روما، المدينة الخالدة، وكابوا، التى قد تصغرها بعض الشىء؛ إلا أنها لا تكاد تقل عنها جمالا. إلا أن ذلك لا يعنى عودة المرور على هذا الطريق إلى طبيعته فى التو. ذلك لأن الطرق فى طول الجمهورية وعرضها لم تعرف خلال الأعوام الأربعة الماضية تدفق البضائع والناس فى طمأنينة ورخاء كما يتوقع المرء على الطريق الرومانى.

فقد ساد الاضطراب بدرجات متفاوتة فى كل مكان. ولن تجافى الحقيقة إذا قلنا إن الطريق بين روما وكابوا كان مثلا لهذا الاضطراب.

وقد أصاب من قال إن حال روما من حال الطرق، فحيث تمتد الطرق، تزحف روما، وإنه إذا عرفت الطرق السلام والازدهار عرفتهما روما.

وقرأ السكان على جدران المدينة النبأ القائل: إن فى وسع كل مواطن حر أن يسافر الى كابوا إن كان لديه عمل يريد إنجازه

فيها ، إلا أن السفر إلى ذلك المنتجع الجميل للنزهة لم يكن يلقى تشجيعاً إلى حين . إلا أن هذه القيود قد رفعت على مر الزمن واستقر الربيع الحلو الرقيق فى ربوع إيطاليا ؛ وبدأت مبانى كابوا الجميلة ومناظرها الرائعة تستهوى أفئدة سكان روما من جديد .

وكان المولعون بالروائح العطرية التى كانت لاتزال تباع بأثمان عالية يجدون فى كابوا الربح الفائق والمتعة ، بالإضافة إلى مباهج الريف الطبيعية فى كامبانيا . فقد كانت المدينة تضم أعظم مصانع العطور التى لا مثيل لها فى العالم بأسره . وكانت السفن تحمل إلى كابوا من كل بقاع الأرض العطور وخلاصات الزيوت العطرية ، والزيوت النفيسة ، كزيت الورد المصرى ؛ وعطر الزنابق من سبأ ، وزهور الخشخاش من الجليل ، وزيت العنبر ؛ وزيت قشور الليمون والبرتقال ، وأوراق القصعين والنعناع ، وخشب الورد والصندل وغيرها وغيرها ، أنواع أخرى تكاد لا تنتهى ، وكانت أسعار العطور فى كابوا تقل عن نصفها فى روما . وإذا علمنا أن إقبال الرجال والنساء معا على استعمال العطور ، كان فى ازدياد فى ذلك الوقت ، وأن العطور أصبحت ضرورة لكل من الجنسين أدركنا أن الرحلة الى كابوا كانت جديرة بالتفكير والتنفيذ لهذا الغرض ، إن لم تكن لغرض آخر سواه .

— ٢ —

وفتح الطريق للمرور فى مارس ، وبعد شهرين من ذلك الوقت أى فى منتصف مايو ، بدأ كايوس كراسوس وأخته هيلينا وصديقتها كلوديا ماريوس الرحلة إلى كاپوا لقضاء أسبوع مع أقارب لهم هناك وغادروا روما صباح يوم مشرق صاف غير حار هو أصلح الأيام للسفر . وكلهم شباب لامع العينين ملىء بالسرور مغتبط بالمرح وبالمغامرات التى هو لاشك ملاقيها خلالها . وكان كايوس كراسوس شاباً فى الخامسة والعشرين أضفت عليه تقاطيع وجهه المتناسقة ، وشعره الأسود الملتف فى حلقات ناعمة غزيرة ، الشهرة بالجمال إلى جانب الأصل العريق . وكان يمتطى جواداً أبيض عربياً أهداه له أبوه فى عيد ميلاده السابق . بينما ركبت الفتاتان فى محفتين مفتوحتين يحمل كلا منهما أربعة من العبيد روضوا على السير حتى ليستطيع الواحد منهم العدو عشرة أميال عدواً هيناً دون راحة . وكان الثلاثة ينتوون قضاء خمسة أيام على الطريق يتوقفون خلالها لقضاء الليل فى بيت ريفى لصديق أو قريب فيصلون بذلك على هذه المراحل الهينة البهيجة إلى كاپوا . وكانوا يعلمون قبل البدء فى الرحلة أن رموز العقاب

تقوم على جانبى الطريق، إلا أنهم لم يروا فى ذلك ما يكفى لإزعاجهم. والحق أن الأوصاف التى سمعتها الفتاتان أثارتهما إلى حد كبير، أما كايوس، فقد كان لمثل هذه الأشياء عنده رد فعل يهيج يوقظ حواسه إلى حد ما، كما كان إلى هذا فخوراً بقوة معدته، وبأن أمثال هذه المناظر لا تزعجه إلى حد كبير.

وراح يناقش المسألة مع الفتاتين قائلا:

— ومع ذلك، فالأفضل للمرء أن يشاهد إنساناً مصلوباً من أن يكون هو المصلوب.

فقالت هيلينا:

— سننظر إلى الأمام دائماً.

وكانت هيلينا أجمل منظراً من كاوديا الشقراء المسترخية الشاحبة البشرة، الصفراء العينين التى كان ينطق مظهرها بالتعب الذى تغذيه هى وتزيده، وكان جسد كاوديا ممتلئاً وجذاباً. إلا أن كايوس كان يراها غبية ويتساءل عما يعجب أخته فيها — وهى مشكلة عقد العزم على حلها أثناء هذه الرحلة، وكان قد قرر مرات كثيرة من قبل أن يغوى صديقة شقيقته، غير أن هذا القرار كان يتحطم دائماً على صخرة ضعفها، وفتور رغباتها وهو فتور لم يكن محصوراً فى شخصه، بل كان فتوراً عاماً فى شخصيتها. فقد كانت ملولة. وكان كايوس على ثقة من أن

مللها وحده هو ما يحول دون أن تصبح عشرتها محلة لا تطاق . أما أخته فقد كانت شيئاً آخر . كانت تثيره بصورة تزعجه ؛ فقد كانت طويلة القامة مثله ؛ كثيرة الشبه به وإن كانت تفوقه جمالا ؛ يراها من لا تصدمهم قوتها ومضاء عزيمتها من الرجال « جميلة » . كانت أخته تثيره وكان يحس وهو يعد العدة للرحلة أنه يأمل أن يضع حداً بطريقة ما لهذه الإثارة . وكانت أخته وكاوديا خليطاً شاذا وإن كان يرتضيه ، ومن هنا تطلع كايوس الى أحداث مجزية خلال الرحلة .

وبدأت رموز العقاب تظهر على بعد أميال قليلة خارج روما وهى مكان يجتاز الطريق منه منطقة جرداء من الصخور والرمال تبلغ مساحتها عدة أفدنه ، اختار المسئول عن عرض الرموز أن يقيم فيها الصليب الأول وعليه الشخص المطلوب ، سعياً وراء إحداث الأثر النفسى المقصود . وكان الصليب من خشب صنوبر حديث القطع لا يزال يفرز عصارته الدامية القاتمة . وكانت الأرض تنحدر إلى الخلف من ورائه ، فانتصب الصليب عارياً ماثلا محدداً فى سماء الصبح ، شديد الضخامة والتأثير ، ضخماً مبالغاً فى ضخامته ، نظراً لأنه كان الأول على الطريق ، فكان من العسير على المشاهد أن يميز جسد الرجل العارى المعلق عليه . وكان الصليب مقوساً بعض الشىء شأن الأشياء الثقيلة

فى أعلاها ، فزاد ذلك من غرابة منظره الذى شابه منظر الإنسان .

وأوقف كايوس جواده ثم سار به نحو الصليب ، بينما أمرت هيلينا العبيد حملة المحفة ، بضربة خفيفة من سوطها الرقيق ، أن يتبعوه .

وعندما وقفوا أمام الصليب ، همس العبد الذى ينظم خطوات حاملى محفة هيلينا قائلا :

ــ هل نستريح يا مولاتى ؟ مولاتى ؟

وكان إسبانى الأصل ، لغته اللاتينية رديئة ينطقها بحذر .

فقالت هيلينا .

ــ طبعاً .

كانت هيلينا فى الثالثة والعشرين من عمرها ، إلا أنها كانت قوية الرأى ككل نساء أسرتها ، تحتقر القسوة التى لا معنى لها على الحيوانات سواء من العبيد أو الدواب ومن ثم هبط العبيد بالمحفتين فى رقة وقعدوا القرفصاء إلى جوارهما شاكرين .

وعلى بعد ياردات قليلة من الصليب ، جلس على مقعد من القش رجل بدين ، ودود ، ممتاز الشخصية ، واضح الفقر ، تظلله مظلة صغيرة مرقعة . وكان امتياز شخصيته يتضح فى كل ثنية من ثنايا ذقنه العديدة وفى وقار كرشه الضخم . أما فقره المشوب بالكسل فكان واضحاً فى ملابسه الرثة القذرة ، وأظافر يده

السوداء ، ولحيته المعشوشبة . وكان مظهره الودود هو القناع الذى يتخذه السياسى المحترف فى سهولة ويسر : ويستطيع المرء أن يدرك بنظرة سريعة أنه أمضى أعواماً ينظف السوق ومجلس الشيوخ والمنابر ، وها هوذا الآن وقد وصل إلى الخطوة الأخيرة قبل أن يغدو متسولا لا يملك إلا حصيراً فى أحد البيوت الرومانية العامة . ومع ذلك فقد كان صوته يدوى قوياً خشناً كصوت المنادى فى السوق . وراح يشرح لهم أن هذه هى تصاريف الحرب ، وأن من الناس من يختار الجانب الرابح فى يسر غريب ، أما هو فكان يختار دائماً الجانب الخاسر ، ولم تكن ثمة فائدة من القول بأنه لايوجد فرق جوهرى بين الإثنين . فهذا ما انتهت به الحياة إليه ، ومع ذلك فهناك من أفاضل الرجال من يفضلونه لكنهم أقل منه حظاً .

وقال :

– أرجو المعذرة لعجزى عن النهوض ياسيدى النبيل ويا آنستى النبيلتين ، لأن القلب ، القلب . . .

ووضع يده على كرشه الضخم عند منطقة القلب وقال :

– أرى أنكم قد بكرتم فى الخروج . ويجب أن تبكروا لأن هذا هو وقت السفر . أذاهبون إلى كابوا ؟

فقال كايوس :

— نعم ، كابوا .

— كابوا - طبعاً - مدينة جميلة ، مدينة رائعة ، مدينة ممتازة ، كالجوهرة الأصيلة ... لزيارة أقارب ، دون شك ؟

فأجابه كايوس قائلا :

— دون شك .

وكانت الفتاتان تبتسمان ، فقد كان ودوداً بشوشاً ، ومهرجاً كبيراً . وزايله وقاره ، فمن الخير له أن يغدو مهرجاً أمام هؤلاء الشبان . وأدرك كايوس أن طلب المال يكمن فى جهة ماوراء كل هذه الحركات ولكنه لم يجد فى ذلك بأساً . أولا : لأنه لم يلق من قبل رفضاً عندما كان يطلب المال الكافى لكل حاجاته أو نزواته وثانياً : أراد أن يبهر الفتاتين بخبرته فى الحياة . وكيف يتحقق ذلك عن طريق خير من هذا المهرج البدين الخبير بالحياة ؟

— ترانى حيناً أعمل دليلا أو راوية أو أتولى توزيع قليل من الثواب والعقاب . وهل يفعل القاضى أكثر من ذلك ؟ وهناك فارق حقاً ؛ إلا أن من الأفضل للمرء أن يقبل ديناراً مع ما يصاحب ذلك من خجل ، عن أن يتسول .

ولم تستطع الفتاتان أن تحولا أعينهما عن الرجل الميت المعلق فوق الصليب فقد أصبح فوقهما مباشرة . وظلتا تختلسان النظر إلى جسده العارى الذى لوحته الشمس ونهشته الطيور . وكانت

العقبان تحوم حوله فى محاولات مستمرة ، والذباب يزحف على جلده . وكان الجسد فى وضعه مقوساً إلى الأمام بعيداً عن الصليب ، فكان يبدو كأنه مستمر فى الوقوع وفى حركة دائمة ، حركة غريبة من الجسد الميت .

وكان رأسه مدلى إلى الأمام ، ويغطى شعره الطويل الأصفر ما لعله قد ارتسم على وجهه من الرعب .

وأعطى كايوس الرجل البدين قطعة من النقود فكان شكره مساوياً لها . وظل العبيد حملة المحفة جالسين القرفصاء فى صمت دون أن يحاول واحد منهم اختلاس النظر إلى الصليب ، فقد ثبتوا عيونهم على الأرض ، لأنهم روضوا على السير عليها وأجيد ترويضهم .

وقال الرجل البدين :

— هذا رمز ، إذا جاز القول ، فلا ترين فيه ياسيدتى شيئاً إنسانياً أو رهيباً ، فإن روما تعطى ، وروما تمنع ، والعقاب على قدر الجريمة . وهذا الجسد يقف وحده هنا ليلفت أنظاركم إلى ماسيتلوه أتعرفون عدد المصلوبين من هنا حتى كابوا ؟

وكانوا يعرفون العدد ، إلا أنهم تريثوا حتى يقوله هو . فقد كانت فى هذا الرجل البدين المرح ، الذى عرفهم بما لا يمكن الكلام عنه ، كانت فيه دقة . وكان هو نفسه برهاناً على أن ما لا يمكن

الكلام عنه شيء طبيعي عادي ، فهو سيحدد لهم الرقم ، وقد لا يكون صحيحاً إلا أنه سيكون رقماً محدداً . قال :

— ستة آلاف وأربعمائة واثنان وسبعون .

وتململ بعض العبيد حملة المحفات . ولم يكونوا مستريحين . بل كانوا متصلبي الأجساد . ولو أن أحداً تطلع إليهم للاحظ ذلك ، لكن أحداً لم يعن بالتطلع إليهم .

وعاد الرجل البدين يقول :

— ستة آلاف وأربعمائة واثنان وسبعون .

فعلق كايوس على ذلك تعليقاً صائباً فقال:

— كل هذا القدر من الخشب .

وأدركت ميلينا أن هذا القول فيه باطل ؛ إلا أن الرجل البدين أحنى رأسه مظهراً تقديره لها، وجادوا وقتئذ بكل ماعندهم فأخرج الرجل البدين من طيات ثيابه عصاً أشار بها إلى الصليب وقال :

— هذا الرجل — مجرد رمز . رمز لرمز ، إذا جاز هذا القول فضحكت كلوديا في عصبية .

— لكن له مع ذلك مغزاه وأهميته . لقد وضع هنا منفصلا بسبب هذا . فالعقل هو روما ، وروما عاقلة .

وكان هذا الرجل مغرماً بالحكم والأقوال المأثورة . وقالت

كاوديا فى حماقة :

ــ أهذا هو سبارتاكوس ؟

إلا أن الرجل البدين تذرع بالصبر وأثبتت الطريقة التى لعق بها شفتيه أن موقفه الأبوى منهم لم يكن يخلو من العاطفة . وقال كايوس لنفسه :

ــ الوحش العجوز الفاسق .

ــ ليس هو سبارتاكوس ياعزيزتى .

فقال كايوس ، وقد بدأ صبره ينفد .

ــ لم يعثر على أثر لجسده .

فقال الرجل البدين فى زهو .

ــ مزقوه إرباً . مزقوه إرباً ياطفلتى العزيزة . إن عقولكم أرق من أن تتحمل هذه الأفكار المخيفة . لكنها الحقيقة .

فارتعدت كاوديا .

ولكنه كان ارتعاداً يبعث على اللذة ، ورأى كايوس فى عينيها نوراً يضىء لم يره من قبل ، فقد قال له أبوه يوماً : «احذر الأحكام السطحية » . ولما كان أبوه معنياً بأمور أكثر أهمية من تقدير النساء فقد ثبتت صحة قوله ولم يحدث أن تطلعت إليه كاوديا من قبل كما تتطلع الآن إلى الرجل البدين الذى واصل حديثه قائلا :

ــ هذه هى الحقيقة البسيطة . وهم يقولون اليوم إن سبارتاكوس

لم يكن له وجود قط . ها . ها . هل أنا موجود ؟ وهل أنتم موجودون ؟ هل توجد أو لا توجد ستة آلاف وأربعمائة واثنان وسبعون جثة مصلوبة على طول الطريق من هنا الى كابوا ؟ هل هي موجودة ؟ واسمحوا لى أن أسألكم سؤالا آخر أيها الشباب : لم كل هذا العدد ؟ إن رمز العقاب دليل على العقاب . ولكن لماذا يكون منه ستة آلاف وأربعمائة واثنان وسبعون ؟

فأجابت هيلينا فى هدوء .

— لأن الكلاب يستحقون ذلك .

فرفع الرجل البدين حاجبيه فى دهشة زائفة . إنه رجل خبير بشئون الدنيا ، وقد أوضح لهم ذلك ، وهم ، وإن كانوا أعلى منه مقاماً ، فإنهم أصغر من أن يتأثروا بأقواله .

— ربما استحقوا ذلك ، لكن لماذا نذبح كل هذا القدر من اللحم إذا لم يكن فى وسعنا أن نأكله ؟ أنا أقول لكم : إن ذلك يبقى الأسعار على ارتفاعها ويحافظ على استقرار الأوضاع ! وأهم من هذا كله ، أنه يقرر بعض المسائل الدقيقة المتعلقة بالملكية . هذا هو الجواب بإيجاز .. أما هذا الجسد ...

وأشار بعصاه :

— تأملوه جيداً ، فهو فيرتراكس من بلاد الغال إنه عظيم الأهمية . عظيم الأهمية . رجل وثيق الصلة بسبارتاكوس .

جل . ولقد راقبته وهو يموت وأنا جالس فى مكانى هذا . راقبته وهو يموت وقد اقتضاه ذلك أياماً أربعة، فهو قوى كالثور . أوه لن تصدقوا أن فى الدنيا مثل هذه القوة . لن تصدقوا ذلك أبداً لقد أخذت مقعدى هذا من سيكتوس فى الحى الثالث هل تعرفونه ؟ إنه سيد . سيد عظيم ، يعطف على . وقد تدهشون إذا عرفتم عدد من جاءوا لمشاهدته وهو يموت ، فقد كان منظراً جديراً بالمشاهدة . ولم يكن ذلك لأنى أستطيع أن أتقاضاهم أجراً طيباً عن ذلك — بل لأن الناس يدفعون مقابل ما تعطيهم إياه : الجزاء الحق فى مقابل الجزاء الحق . فقد تكلفت أن أعلم نفسى وستدهشون للجهل العميق بحروب سبارتاكوس فى كل مكان . والدليل على ذلك أن هذه السيدة الصغيرة تسألنى : هل هذا هو سبارتاكوس ؟ وهو سؤال طبيعى ، لكن ألا يصبح بعيداً كل البعد عن الطبيعة لمجرد كونه طبيعياً . إنكم معشر النبلاء تحيون حياة مغلقة محكمة الإغلاق ، وإلا لعرفت السيدة الصغيرة أن سبارتاكوس قد مزق إرباً حتى لم يعثروا منه على شعرة أو قطعة من جلده . ولم يكن هذا ما حدث لهذا المصلوب ، فقد أسروه ، ومزقوا [illegible]

وراح يتتبع بعصاه أثر جرح غائر طويل على جانب الجثة المعلقة فوقهم — عدد من الجروح — عظيمة الدلالة . فى الجنب أو فى

الصدر ، إلا الظهر ، وقد لا تريدون أن ألفت أنظار الغوغاء إلى مثل هذه التفاصيل ، ولكنى أستطيع أن أقرر لكم حقيقة .

وكان حملة المحفات قد راحوا يرقبونه حينذاك ويصغون إلى أقواله ، وقد التمعت أعينهم خلال شعورهم الطويلة المجدولة .

— حقيقة هى أن هؤلاء المصلوبين كانوا خير جنود مشوا فوق أرض إيطاليا . إن هذا الشيء جدير بالتفكير . شيء كهذا ، ولنعد إلى الحديث عن صديقنا هذا . لقد تطلب موته أربعة أيام . وكان خليقاً أن يستغرق وقتاً أطول من هذا لو لم يقطعوا منه شرياناً لينزفوا بعض دمه . وقد لا تعرفون هذه الحقيقة لكنها ضرورة فعند ما تصلبونهم ، فمن واجبكم أن تصفوا دماءهم وإلا انتفخوا كالسمكة المملحة . أما اذا ما أحسنتم تصفية دمائهم فستجف أجسادهم ويمكن تعليقهم فوق الصلبان شهراً من الزمان دون أدنى ضرر أكثر من بعض الرائحة ، كما تجفف قطعة اللحم تماماً . وأنتم فى حاجة إلى قدر كبير من أشعة الشمس لتساعد على تجفيف أجسادهم . وقد كان هذا الرجل قوياً ، كاملا ، فيه تمرد وكبرياء ، لكنه فقد كل هذا . لقد ظل طيلة اليوم الأول الذى صلبوه فيه هنا يلعن كل مواطن جاء ليراه وهو يموت ويسبه بكلمات مخيفة قذرة . لم يكن من المستطاع إبقاء السيدات على مقربة منه كيلا يسمعنها ... هذا نتيجة عدم التربية . فالعبد هو العبد لكنى لا أحمل له حقداً ،

أو ضغينة . فأنا هنا وهو هناك . . فوق الصليب .

وكنت أقول له من وقت لآخر : «فى سوء ما لك حظ لى، ولئن لم تكن ميتتك أكثر الميتات راحة ، فكسب معاشى ليس أكثرها راحة بأى حال من الأحوال . ولن أربح إلا النزر اليسير مادمت تتفوه بهذا الكلام » . إلا أنه لم يبد عليه أنه تأثر بحديثى بصورة ما . وفى مساء اليوم الثانى توقف عن الكلام وأغلق فمه فى عنف كالمصيدة . هل تعرفون آخر ما تفوه به ؟

فهمست كلوديا تسأل .

— ماذا ؟

— قال : « سأبعث من جديد وسأصبح ملايين » . هذا ما قاله وهو قول غريب . أليس كذلك ؟

فتساءل كايوس قائلا :

— وماذا يعنى بذلك ؟

وكان الرجل البدين قد نسج حوله غلالة من السحر رغم أنفه ، ثم قال

— ماذا كان يعنى بذلك ياسيدى الشاب ؟ ! لست أعلم عن هذا إلا ما تعلمه أنت ، لأنه لم ينطق بحرف بعد ذلك . ولكزته بعصاى فى اليوم التالى ، لكنه لم ينطق بكلمة ، بل تطلع إلى بعينيه اللتين تكاد الدماء تطفر منهما ، وتطلع إلى كما لو كان يستطيع قتلى ، لكنه لم يكن ليستطيع قتل أى شىء .

ثم قال يخاطب كاوديا من جديد:

— وهكذا ترين ياعزيزتى أنه لم يكن سبارتا كوس ، بل كان واحداً من ضباطه ، وكان رجلا قوياً ، شديد الشبه بسبارتا كوس وإن لم يكن فى قوته، فقد كان سبارتا كوس رجلا صلباً ، صلباً حقيقة، لا ترغبين فى لقائه على هذا الطريق،ولن تقابلينه أبداً لأنه مات وتعفن. والآن ماذا تريدون معرفته بعد كل هذا؟

فقال كايوس ، وقد بدأ يأسف على الدينار الذى منحه الرجل:

— أعتقد أننا قد سمعنا مافيه الكفاية ، وعلينا أن نمضى فى طريقنا.

— ٣ —

كانت روما فى تلك الأيام كالقلب الذى يدفع بالدماء فى الطرق الرومانية إلى كل أركان العالم . وقد يعيش شعب ألف عام ولا يشق إلا طريقاً من الدرجة الثالثة ليصل ما بين مدنه الرئيسية. لكن الحال لم تكن كذلك بالنسبة لروما ، فقد كان مجلس الشيوخ يقول : شقوا لنا طريقاً . وكانوا يملكون الخبرة والمهارة ، فيضع المهندسون الخطة ويتم توقيع العقود ، ويبدأ عمال الأساس عملهم وتشق بعد ذلك فرق العمال الطريق كالسهم نحو غايته . وإذا قام جبل فى طريقهم زال الجبل ، وإذا اعترضهم واد عميق شيدوا فوقه جسراً. وإذا كان نهراً عبروه فوق جسر ، ولم يعق روما أى

شيء، ولم يحل دون امتداد الطريق الروماني شيء.

وكان الطريق الذى يسافر فوقه الشبان الثلاثة السعداء جنوباً من روما إلى كابوا، يدعى الطريق الأبيوسى.

وكان طريقاً متيناً عريضاً مشيداً من طبقات من الرماد البركانى والمدر بعضها فوق بعض بالتبادل ثم يغطيه الحجر. وكان مشيداً ليبقى على الزمن، فالرومانيون عندما يشقون طريقاً لا يشقونه لهذا العام أو العام التالى بل يشقونه ليبقى عدة قرون. وهكذا كان الطريق الأبيوسى. فقد كان رمزاً لرقى البشر ولقدرة روما على الإنتاج ولمقدرة الشعب الرومانى القائمة على التنظيم. وكان يعنى، بوضوح، أن الأسلوب الرومانى فى إنشاء الطرق خير أسلوب وضعه البشر. فهو أسلوب يقوم على النظام والعدالة والذكاء. وكانت دلائل الذكاء والنظام تتضح فى كل مكان، وكان المسافرون على طول الطرق يرون وجودها أمراً مفروغاً منه، إلى حد أنها ما كانت لتلفت أنظارهم إلا فى القليل.

ومثال ذلك أن المسافه كانت تحدد تحديداً ولا تقدر. فكل ميل يحدده حجر من أحجار المسافات، ويحمل كل حجر المعلومات المحددة التى يحتاج المسافر إلى معرفتها، فكنت تعرف فى أية نقطة، المسافة - على وجه التحديد - بينك وبين روما وبين فورمياى وبين كابوا. وأنشأوا فى نهاية كل خمسة أميال خاناً وحظائر

يجد فيها المسافر جياداً ومرطبات وسقفاً يمضى الليل تحته إذا دعت الحال . وكان الكثير من هذه الخانات فخماً إلى حد كبير ، له شرفات عريضة يتناول الناس فيها طعامهم وشرابهم . وكان فى بعضها حمامات ينعش فيها المسافرون المتعبون أجسادهم ، وفى بعضها الآخر أجنحة طيبة مريحة للنوم . وكان الجديد من هذه الخانات مشيداً على طراز المعابد اليونانية ، فزاد وجودها من الجمال الطبيعى للمنظر على جانبى الطريق .

وإذا كانت الأرض مسطحة ، سهلا كانت أو مستنقعاً ، أحاطوا الطريق بشرفات ، فيرتفع جانبه عشر أقدام أو خمس عشرة قدماً فوق مستوى الريف المحيط به . أما إذا كانت الأرض متكسرة أو تعترضها التلال . فكانوا يشقون الطريق فى وسطها أو يعبرون الوهاد فوق أقواس من الحجر .

وكان الطريق الرومانى دليل الاستقرار ، وكانت كل عناصر الاستقرار الرومانى تتدفق فوقه ، وكان الجنود الذين يسيرون عليه يقطعون ثلاثين ميلا فى اليوم الواحد ، ثم يقطعون ثلاثين ميلا أخرى يوماً بعد يوم . وتتدفق عربات النقل على طول الطرق الرومانية محملة ببضائع الجمهورية ... القمح والشعير والحديد الخام والأخشاب والنسيج والصوف والزيت والفاكهة والجبن واللحوم المدخنة . هذا ، والمواطنون يزاولون

أعمالهم المشروعة على الطريق ؛ والنبلاء يغدون ويروحون إلى ضياعهم فى الريف ، والمسافرون للتجارة ، والمسافرون للنزهة ، وقوافل العبيد فى طريقها من السوق وإليها ، وأقوام من كل صقع وكل جنس ينعمون بنظام الحكم الرومانى وثباته .

وفى هذا الوقت ، وعلى طول الطريق ، غرست الصلبان على مسافات متقاربة لا تزيد على بضع أقدام ، وفوق كل صليب علق رجل ميت .

— ٤ —

إزداد دفء الصباح عما كان كايوس يتوقع ، فلم تمض إلا فترة قصيرة حتى بدأت رائحة الموتى تفوح وتصبح جد كريهة ، فأغرقت الفتاتان مناديلهما فى العطور ، وراحتا تستنشقان رائحتها باستمرار . إلا أن ذلك لم يمنع عنهما الأمواج المفاجئة للرائحة الحلوة ـ الكريهة التى كانت تهب على الطريق ، كما أنه لم يحل دون حدوث رد الفعل لهذه الرائحة ، فتقيأت الفتاتان ، واضطر كايوس ، فى النهاية ، إلى أن يتأخر عن الركب وينتحى جانباً من الطريق ليفرغ ما فى معدته ، وكاد ذلك يفسد جمال الصباح .

وكان من حسن حظ الركب أن لم يكن على الطريق صلبان مسافة نصف ميل قبل الخان الذى وقفوا عنده لتناول طعام

الغداء . وهم وإن كانوا قد فقدوا شهيتهم ، فإنهم استطاعوا التغلب على غثيانهم . وكان هذا الخان المجاور للطريق مشيداً على الطراز اليونانى ؛ فكان مبنى متنقلا من طابق واحد ، له شرفة بهيجة . وكانت الشرفة الغاصة بالمناضد مقامة على أخدود يجرى فيه جدول رقيق . أما الكهف الصناعى المواجه لها فكانت تحيط به شطئان من الخضرة وأشجار الصنوبر العطرة ، ولم يكن فى الجو هناك أية رائحة إلا رائحة الصنوبر ورائحة الغابات الحلوة الندية ، ولا صوت إلا الهمهمة المؤدبة للحديث الدائر بين الجالسين إلى المناضد وموسيقى خرير الماء فى الجدول .

وقالت كلوديا :

— ألا ما أجمل هذا المكان .

ووجد لهم كايوس ، كالذى قد نزل فى هذا الخان من قبل ، منضدة ، وبدأ يطلب الغداء فى كثير من السلطان ، فجاءت لهم فى التوخم الفندق ، وكانت شراباً خاصاً منعشاً متألقاً فى لون الكهرمان ، وعادت إليهم شهيتهم بعد أن بدأوا فى ارتشافها . وكانوا يجلسون فى مؤخرة الخان ، فى عزلة عن القاعة العامة التى تقع فى واجهته حيث يجلس الجنود وسائقو عربات النقل والأعراب يتناولون طعامهم .

وكان مكان جلوسهم معتدلا ظليلا ، وكان المعروف المتفق عليه أن هذا الجزء ، لا يتناول فيه الطعام إلا الفرسان وذوو

الأسر العريقة ، وإن كانت هذه النقطة قلما تثار .

وهذا ماجعله أبعد ما يكون عن أن يصبح مكاناً خاصاً ، لأن الكثير من الفرسان كانوا تجاراً متنقلين ورجال أعمال وأصحاب صناعات ووسطاء ونخاسين . إلا أنه كان خاناً عاماً لا بيتاً خاصاً . كما أن الفرسان فى العهد الأخير كانوا يقلدون عادات النبلاء فأصبحوا بذلك أقل ضجيجاً وتطفلا وثقلا .

وطلب كايوس لحم بط مدخناً بارداً وبرتقالا مثلجاً . وبدأ قبل أن يصل الطعام ، يتحدث عن المسرحية الأخيرة التى ستبدأ فى روما . وكانت المسرحية ملهاة ، وهى تقليد رخيص للملهاة اليونانية ، كما كانت غالبية المسرحيات فى ذلك العهد ، تدور حبكتها حول امرأة سوقية قبيحة اتفقت مع الآلهة على أن تدفع لهم قلب زوجها فى مقابل يوم واحد من الرشاقة والجمال . وكان الزوج يضاجع عشيقة أحد الآلهة . وتنهض القصة المتشابكة المقلدة على دوافع الانتقام الهزيل . كان هذا على الأقل هو رأى هيلينا . إلا أن كايوس عارض هذا الرأى بقوله إنه يرى أن المسرحية على الرغم من سطحيتها تضم مواقف غاية فى البراعة .

وقالت كلوديا فى بساطة :

— لقد أعجبتنى .

فابتسم كايوس وقال :

— أعتقد أننا نهتم كثيراً بما يقال بدلا من الطريقة التي يقال بها . أما أنا فأذهب الى المسرح لأستمتع بما هو بارع . وإذا أراد المرء مأساة الصراع فى سبيل الموت فعليه أن يذهب الى المجتلد ويشاهد المقاتلين وهم يقطعون أجساد بعضهم البعض ، ومع ذلك فقد لاحظت أن مرتادى المجتلدات ليسوا من النابهين أو العميق التفكير .

فقالت هيلينا محتجة :

— إنك تتلمسين الأعذار للتأليف الردىء .

— هذا غير صحيح ، وكل ما فى الأمر أنى أعتقد أن لمستوى التأليف فى المسرح أهمية كبيرة ، فاستئجار مؤلف يونانى أرخص من استئجار عبد من حملة المحفات ، ولست ممن يمجدون اليونان .

وفيما كان كايوس يقول ذلك ، أحس برجل يقف إلى جانب المنضدة ، ذلك أن المناضد الأخرى كانت قد امتلأت ، وكان هذا الرجل ، وهو تاجر متنعم ذو مقام يسأل : هل يسمحون له بالجلوس معهم ، وقال :

— وجبة سريعة وأذهب ، إذا لم يضركم تطفلى .

وكان رجلا طويل القامة ممتلئاً مهيب الطلعة ، ظاهراً أنه على قدر كبير من الثراء ، ملابسه ثمينة ، لا يجل إلا هؤلاء الشباب الذين يلوح عليهم أنهم ينتمون الى أسرة وطبقة عالية . ولم يكن

الفرسان فى العصور القديمة يسلكون هذا المسلك مع النبلاء الإقطاعيين حتى أصابوا من الثراء ماميزهم بوصف كونهم طبقة جديدة وتبينوا أن عراقة الأصل من السلع التى يصعب شراؤها أشد الصعوبة. وعلى هذا زادت قيمة عراقة الأصل فى نظرهم. وكان كايوس، مثله فى ذلك مثل الكثير من أصدقائه، دائم التعليق على ما هنالك من تناقض بين مشاعر هؤلاء الناس الديمقراطيين فى الظاهر، وأطماعهم الطبقية القوية.

وقال الفارس.

— إسمى جايوس ماركوس سنفيوس. لا تترددوا فى الرفض إذا رأيتم ذلك.

فأجابت هيلينا قائلة:

— أرجو أن تجلس.

وقدم له كايوس نفسه هو، كما قدم الفتاتين، وسره ترحيب الرجل بهم. وقال الفارس:

— لقد كانت لى بعض المعاملات مع أسرتك.

— معاملات؟

— نعم.. معاملات فى الماشية. فأنا صانع لحم «السجق» ولى مصنع فى روما وآخر فى تاراكينا التى جئت منها الآن. فإذا أكلتم هذا «السجق» فهو من صنعى.

فابتسم كايوس وهو يفكر وقال لنفسه : لاشك فى أنه يحمل أمعائى على أن تطلع إليه .. إنه يجبر الآن أمعائى ، ومع ذلك يسره أن يجالسنا . . . يالهم من خنازير .

فقال سنفيوس وكأنه قرأ ما يدور بخلده :

— نعم .. يتجرون فى الخنازير .

وقالت هيلينا فى رقة :

— إنا ليسرنا لقاؤك ، وسنحمل الى أبينا تحياتك الحارة ، وابتسمت لسنفيوس ابتسامة حلوة ، فأعاد الرجل النظرة إليها كما لو كان يقول : « إذاً فأنت أنثى يا عزيزتى سواء كنت من النبيلات أو لم تكونى منهن . » ورأى كايوس فى نظرته ما معناه « ما رأيك فى مضاجعتى أيتها العاهر الصغيرة ؟ »

وتبادل الاثنان الابتسام . وكان خليقاً بكايوس أن يقتله حينذاك ، إلا أنه ازداد كراهية لأخته .

وقال سنفيوس .

— لم أقصد أن أقطع عليكم حديثكم ، فأرجو أن تتابعوه .

— كنا نتحدث حديثاً مملا عن مسرحية مملة .

وجاء الطعام عند ذاك ، فبدأوا يأكلون ، وأوقفت كاوديا فجأة قطعة من لحم البط فى منتصف الطريق إلى فمها وقالت ما رآه كايوس فيما بعد شيئاً مثيراً للدهشة .

ـ لا بد أن رموز العقاب قد «ضايقتك».

ـ رموز العقاب ؟

ـ الصلب .

ـ ضايقتنى ؟

ـ نعم ، لضياع كل هذا القدر من اللحم الطازج . !

قالتها كاوديا فى هدوء ، ولم تكن بارعة فى قولها، ولكنها كانت هادئة فحسب، ثم تابعت أكل لحم البط. واضطر كايوس إلى أن ينكس رأسه ليمنع نفسه من الانفجار بالضحك بينما تخضب وجه سنفيوس احمراراً ثم ابيض . أما كاوديا فقد واصلت تناول طعامها دون أن تدرى مافعلته . وكانت هيلينا وحدها هى التى أحست بتصلب صانع السجق أكثر من المعتاد وبدأ جلدها يخزها انتظاراً لما هو آت ، وكانت تريد منه أن يرد الضربة ، وسرها أنه فعل ، فقد قال سنفيوس آخر الأمر :

ـ «ضايقتنى» ليست الكلمة المطلوبة . فأنا أكره التبذير .

فسألته كاوديا وهى تقطع البرتقاله المثلجة قطعاً صغيرة وتضعها بين شفتيها فى رشاقة قائلة :

ـ تبذير ؟

وكانت كاوديا تثير العطف فى بعض الرجال والغضب فى قليلين منهم . ولم يكن ليستطيع النفاذ إلى حقيقتها إلا رجل غير عادى .

فقال ماركوس سنفيوس مفسراً .

– كان رجال سبارتاكوس هؤلاء ضخام الأجسام ، وقد أحسنت تغذيتهم أيضاً ، ولنفترض أن متوسط وزن الواحد منهم مائة وخمسين رطلا ، وعندنا أكثر من ستة آلاف منهم معلقين هناك كالطيور المحنطة . فمعنى هذا تسعمائة ألف رطل من اللحم الطازج

– أو الذى كان طازجا على أى حال

وقالت هيلينا انفسها : لا . . . إنه لايمكن أن يقصد ذلك. وبدأ جسدها بأسره يخزها توقعاً لما هوآت ، بينما أدركت كاوديا التى مضت تأكل برتقالتها المثلجة ، أنه يقصده .

وسأله كايوس قائلا :

– لماذ لم تتقدم بعرض ؟

– لقد فعلت .

– ولكنهم رفضوا البيع؟

– لقد استطعت شراء ربع مليون رطل .

وتساءل كايوس قائلا فى دهشة وتفكير : ماذا يقصد ؟ إنه يحاول أن يهز مشاعرنا ويريد بأسلوبه السوقى القذر أن يرد على ما قالته كاوديا . أما هيلينا فقد رأت جوهر الحقيقة. واغتبط كايوس إذ عرف أن شيئاً قد نفذ أخيراً إلى ذهنها

وهمست كاوديا تسأل .

— من الرجال؟

فقال صانع «السجق» فى تدقيق :

— من الآلات ... كما وصفهم الفيلسوف الشاب الجدير بالإعجاب : آلات عديمة القيمة . لقد دخنت لحمهم وقطعته إلى قطع صغيرة خلطتها بلحم الخنزير مع التوابل والملح . وذهب نصف هذا اللحم إلى بلاد الغال . والنصف الآخر إلى مصر ، والسعر طيب معتدل .

فتمتم كايوس قائلا :

— أعتقد أن مزاحك ثقيل غير مقبول .

وكان كايوس صغير السن لا يطيق المرارة الناضجة التى يراها فى صانع «السجق» ، أما الفارس فلن ينسى مالقيه من كلوديا من مهانة طيلة حياته ، وسيظل يحملها لكايوس فى نفسه على الدوام لأنه ارتكب خطأ بوجوده أثناء هذه الإهانة .

وقال سنفيوس فى لهجة عادية كمن يروى حقيقة لا أكثر :

— لست أحاول أن أمزح . لقد سألت السيدة الصغيرة سؤالا فأجبتها عنه ، فقد اشتريت ربع مليون رطل من لحم العبيد لنحوله إلى «سجق» .

فقالت هيلينا :

— هذا أفظع ماسمعت . إنه يبعث على الاشمئزاز . لقد اتجهت

غلظتك الطبيعية ياسيدى اتجاهاً شاذاً عجيباً . ثم وقف الفارس وراح يتطلع إليهم الواحد بعد الآخر ، وقال :

— معذرة .

ثم تطلع إلى كايوس وقال له :

— اسأل خالك سيسيليوس ، فقد قام بعملية التسليم ، وربح بذلك لنفسه مبلغاً لا بأس به .

وابتعد . وواصلت كلوديا أكل البرتقالة المثلجة فى هدوء حتى توقفت ، ولم تمتنع عن الأكل إلا لتقول :

— لقد تكشف عن إنسان لايحتمل .

فقالت هيلينا :

— ومع ذلك فقد كان صادقاً .

— ماذا تقولين ؟

— لقد كان صادقاً بلا ريب . أيدهشك ذلك ؟

فقال كايوس :

— لقد كانت كذبة حقيرة اختلقها ليلقيها علينا وحدنا .

فقالت هيلينا :

— إن الفرق بيننا يا عزيزتى هو أننى أعرف متى يكون الإنسان صادقاً .» وازداد شحوب كلوديا عن المعتاد ، فنهضت واستأذنت وسارت فى وقار جليل نحو حجرة الاستراحة ، وارتسمت على

شفتى هيلينا ابتسامة واهنة كما لو كانت تبتسم لنفسها .

ثم قال كايوس :

ـ إن شيئاً ما يروعك بحق ، أليس الأمر كذلك يا هيلينا ؟

ـ ولم أروع ؟ أقل مافى الأمر أننى لن آكل «السجق» بعد اليوم .

فقالت هيلينا :

أما أنا . فلم أذقه قط .

ـ ٥ ـ

وفيما كانوا يسيرون على الطريق بعد ظهر ذلك اليوم ، التقوا بتاجر كهرمان سورى يدعى فوزل شابال كانت لحيته منسقة بعناية ، يلتمع شعرها بالزيت المعطر . وكان ثوبه الطويل الموشى يتهدل على جانبي الحصان الأبيض الجميل الذى يمتطيه، وتشرق أصابعه باللآلىء والجواهر الغالية ، وكان يعدو وراءه إثنا عشر عبداً من المصريين والبدو يحمل كل منهم ربطة كبيرة فوق رأسه . وإذ كان الطريق فى طول الجمهورية الرومانية وعرضها مقرباً للفوارق والطبقات بين السكان فقد وجد كايوس نفسه وقد تطرق إلى حديث يكاد يكون من جانب واحد مع التاجر الثرى ، وإن لم يكن اشتراك الشاب الصغير فى الحديث يزيد كثيراً على

إتمامة بين الفينة والفينة ، وكان شابال يجد شرفاً كبيراً فى لقاء أى رومانى لأنه شديد الأعجاب بالرومانيين ، بكل الرومانيين ، وعلى الأخص الرومانى العريق الأصل والمكانة مثل كاريوس الذى ينطق مظهره بذلك دون خفاء . وكان بعض الشرقيين لا يفهمون أشياء معينة عن الرومانيين مثل الحرية التى تتمتع بها نساؤهم . إلا أن شابال لم يكن من هذا البعض . وكان يقول لنفسه : «اخدش رومانياً تجد عرقاً من الحديد . والشاهد على ذلك رموز العقاب هذه القائمة على طول الطريق . ، وكان شديد الاغتباط بالدرس الذى تعلمه عبيده ولم يكلفهم إلا مشاهدتهم هذه الصلبان .

وقال فوزل شابال بلغته اللاتينية الفصيحة التى ينطقها بنبرة غريبة :

ـ قد لا تصدق يا سيدى الشاب أن فى بلادى قوماً كانوا يتوقعون ـ واثقين ـ سقوط روما فى يد سبارتاكوس ، بل لقد حدثت فتنة صغيرة بين عبيدنا اضطررنا إلى قمعها بأساليب قاسية . وقد قلت لهم : إنكم لا تفهمون من أمر روما إلا قليلا ، فأنتم تسوون بين روما وبين ما عرفتم فى الماضى أو بين ما ترونه حولكم . وتنسون أن روما شىء جديد وجد فى هذا العالم ، وكيف أصف روما لهم ؟ لو أننى قلت لهم باللاتينية كلمة الجد مثلا . . فماذا تعنى لهم ؟ حقاً . . ماذا تعنى هذه الكلمة لأى شخص لم ير روما رأى العين ، ولم يخالط

سكان روما ويحادثهم . الحق أنهم قوم صادقون فيهم تقدير للمسئولية ونواياهم جدية . أما كلمة الخفة باللاتينية فنحن نفهمها، وهى لغتنا، فنحن نلهو بالصغائر مشوقين إلى المتعة . أما الرومانى فلا يلهو بالصغائر لأنه يدرس الفضيلة . الجد ـ النظام ـ الاقتصاد ـ التسامح ... هذه الكلمات الرائعة هى روما بالنسبة لى ، بل هى سر السلام الذى يستمتع به الطريق الرومانى والحكم الرومانى . ولكن كيف يشرح المرء ذلك ياسيدى الشاب ؟ أما أنا فأنظر فى رضاء جاد إلى رموز العقاب هذه ، لأن روما لا تلهو بالصغائر ، فالعقاب على قدر الجريمة ، وهذه عدالة روما . وكانت وقاحة سبارتاكوس الجريمة أنه تحدى كل ماهو طيب ، وجاء بالنهب والقتل والفوضى . وإذ كانت روما هى النظام ، فقد نبذته روما . . .

وأصغى كايوس ، وأصغى ، حتى صدر عنه أخيراً ما يوحى بضيقه وسأمه ، فما كان من التاجر السورى بعد كثير من الانحناءات والاعتذارات إلا أن تقدم إلى هيلينا وكاوديا بقلادة من الكهرمان ، وأوصاهم بنفسه خيراً هم وأسرهم ومعارفهم ممن عساهم أن تكون لهم بهم صلة فى العمل ، ثم رحل .

وقال كايوس :

ــ الحمد لله

فابتسمت هيلينا وقالت :

ــ ياصاحب الجد .

- ٦ -

وفى مساء ذلك اليوم وقبل أن ينحدروا من الطريق الأبيوسى إلى الطريق الجانبى الضيق المؤدى إلى المنزل الريفى الذى يمضون فيه الليل ، وقع حادث قلل من ملل الرحلة وسآمتها، ذلك أن فصيلة من الجند، من الفيلق الثالث المختصة بحراسة الطريق ، كانت تعسكر على الطريق للراحة ، وكان معسكرها مكوناً من صفوف من الخيام المثلثة الصغيرة ، وقد ارتكنت الدروع الطويلة على الحراب القصيرة ، وتدلى من كل كوم ثلاث خوذات ... كان المعسكر يشبه حقلا صغيراً حصدت غلاله والجنود يتجمهرون فى الساحة ، يجلسون فى ظل سقيفة يطالبون بالجعة وبالمزيد منها ويعبونها من أوعية خشبية كالأقدام سعة الواحد منها كوبان عاديان يسمى حمامات « القدم » ، وكانوا رجالا فيهم خشونة ، صارمى الوجوه ، أجسادهم فى لون البرنز ، تفوح منهم بقوة رائحة جلود سراويلهم وصدرياتهم الضيقة المشربة بالعرق ، يتكلمون فى صوت عال وتتناثر الشتائم من أفواههم ، وكانوا لا يزالون يحسون بأن رموز العقاب القائمة على جانبى الطريق هى نتيجة عملهم القريب .

ووقف كايوس والفتاتان لمراقبتهم فخرج قائدهم من الخيمة

الكبيرة وفى يده قدح خمر ويلوح بيده الأخرى محيياً كايوس في شوق زاد منه أن فى رفقة كايوس فتاتين جميلتين .

وكان هذا الرجل صديقاً قديماً لكايوس ، وهو شاب يدعى سيلوس كوينتيوس بروتس يعمل جندياً محترفاً ، كثير الجرأة ، جميل الصورة ، وكان يعرف هيلينا من قبل ، وازداد سروره بمعرفة كاوديا . وغلبت عليه طبيعة الجندى المحترف ، عندما سألهم عن رأيهم فى جنوده .

فقال كايوس :

— مجموعة من الخلائق القذرة العالية الصوت .

— هم كما تقول ، لكنهم مجموعة طيبة .

فقالت كاوديا :

— لا أخش شيئاً فى وجودهم .

ثم أضافت قائلة : « إلا هم » .

فأجاب بروتس فى شهامة :

— وهم عبيدك منذ الساعة ، وسيرافقونك . . . إلى أين ؟

فقال كايوس :

— سنمضى الليل فى بيت سالاريا الريفى ، ولعلك تذكر أن الطريق يتفرع على بعد ميلين من هنا .

فصاح بروتس :

— إذن لن تخافوا شيئاً طيلة هذين الميلين .

وسأل هيلينا :

— هل سافرت من قبل فى حماية حرس شرف عسكرى ؟

— لست، ولم أكن أبداً ، على هذا القدر من الأهمية .

فقال الضابط الشاب :

— وهذا بالضبط هو مدى أهميتك لى . وأرجو أن تمنحينى الفرصة لأضعهم تحت قدميك ، الفرقة كلها خدم لك .

فاحتجت هيلينا قائلة :

— إنهم آخر شيء فى العالم أريده تحت قدمى .

وانتهى من شرب قدحه وأتى به إلى العبد الواقف بالباب ونفخ فى الصفارة الفضية المعلقة حول عنقه ، فصدر عنها صفير غريب آمر فيه نغمات أربع متدرجة فى الانخفاض وأربع أخرى متدرجة فى الارتفاع . وامتثل الجنود له فجرعوا الجعة وتبادلوا الشتائم فى صوت منخفض ، وتحركوا مشى إلى حيث تكوم حرابهم ودروعهم وخوذهم ونفخ بروتس فى صفارته مرة ثانية وثالثة فتداخلت الأنغام حتى أصبحت نغمة واحدة حادة ملحة استجاب لها جنود الفرقة كأن للأنغام تأثيراً مباشراً على جهازهم العصبي . وتجمع الجنود فى جماعات صغيرة ثم انفصلوا واصطفوا صفين على كل جانب من الطريق فى عرض جميل مدهش حقا ، ونظام كامل ، فرملت الفتاتان ، واضطر كايوس نفسه ، رغم ضيقه

بألاعيب صديقه ، إلى الإعجاب بدقة نظام الجنود وسأل :
— هل يقاتلون بمثل هذه البراعة ؟
فقال بروتس :
— سل سبارتاكوس .
فصاحت كاوديا تقول :
— مرحى !
فانحنى بروتس وحياها ، فانفجرت ضاحكة . وكان هذا تجاوبا غير عادى من كاوديا ، لكن الكثير من تصرفاتها اليوم كان يبدو غير عادى لكايوس ، فقد كانت وجنتاها مخضبتين بلون مشرق ، وعيناها تلتمعان من فرط تأثرها بالتمرينات التى قامت بها فرقة الجنود أمامها . وطغى شعور كايوس بالدهشة من الطريقة التى بدأت تثرثر بها مع بروتس على شعوره بأنه مستبعد من هذا الحديث . وكان بروتس يسير بين المحفتين وقد أمسك بزمام الركب كله .
وسألته كاوديا :
— وماذا يعملون بالإضافة إلى هذا ؟
— يمشون ، ويحاربون ، ويتبادلون الشتائم .
— ويقتلون ؟
— يقتلون ؟ طبعاً ، فهم قتلة . ألا ينطق مظهرهم بذلك ؟
فقالت كاوديا :

— أنا أحب مظهرهم .

فراح بروتس يدرسها فى هدوء ، ثم قال فى رقة

— حقاً ؟ أعتقد ذلك يا عزيزتى . .

— وماذا أيضاً ؟

فسألها بروتس .

— ماذا تريدين غير هذا ؟ هل تريدين سماعهم يغنون ؟

وصاح بالجنود قائلا :

— أنشدوا وسيروا على النغمات !

فبدأت أصوات الجنود العميقة تنتظم مع خطواتهم وهم ينشدون قائلين : السماء والأرض والطريق والحجر الصلب قاطع ينفذ الى العظام .

وبدأ النغم الرخيص يتداخل ويخشوشن فى حلوقهم حتى أصبح من العسير فهم الكلمات ، وأرادت هيلينا أن تعرف فسألت :

— ماذا يعنى إنشادهم ؟

— لاشىء فى الواقع ، فهو مجرد كلمات موقعة يسيرون على توقيعها ، ولدينا المئات منها ولكنها لا تعنى شيئاً ... السماء ، والأرض ، والطريق ، والحجر — لا شىء فى الواقع ، لكن سيرهم يحسن بها وينتظم . وقد ولد هذا النشيد فى حرب العبيد ، وبعضها لا يحسن بالسيدات سماعه .

فقالت كاوديا:

— وبعضها يحسن بي سماعه .

— إذن سأهمس به .

وابتسم وانحنى نحوها وهو يسير إلى جوارها ، ثم اعتدل . وأدارت كاوديا رأسها لتحدق إليه . وبدأت الصلبان مرة أخرى تقوم على جانبي الطريق والأجساد الميتة معلقة فيها كالخرز . وأشار إليها بروتس وقال :

— أتريدين منهم أن يكونوا مهذبين ؟ إن هذا من فعلهم . لقد صلبت فصيلتي ثمانمائة منهم . . . وليسوا هم مهذبين ، بل هم أشداء قساة ، قتلة .

فسألته هيلينا قائلة :

— وهل يحمل هذا منهم جنوداً أفضل ؟

— المفروض ذلك .

فقالت كاوديا :

— مر واحداً منهم بالمجيء الى هنا .

— لم ؟

— لأني أريدك أن تفعل ذلك .

فهز كتفيه ثم قال :

— سأفعـــل .

ثم صاح ينادى :

— سكتوس .. انفصل عن جماعتك وتعال هنا .

فخرج جندى من الصفوف ، واستدار ، وجاء إلى المحفتين ، وحيا قائده . ثم استدار يسير فى خطوة عسكرية أمام الضابط . وجلست كلوديا وقد عقدت ذراعيها وراحت تتأمله فى عناية . وكان متوسط الحجم ، أسمر اللون ، كبير العضلات . وكانت الشمس قد لوحت ذراعيه العاريتين وعنقه ووجهه حتى استحالت فى سمرة خشب «المجنة» . وكانت تقاطيع وجهه حادة بارزة يبدو جلده مشدوداً فوقها ومبللا بالعرق . وكان يضع فوق رأسه خوذة معدنية ويعلق فوق ظهره وفوق جراب مؤونته درعه البالغ من الطول أربع أقدام . ويحمل فى إحدى يديه حربة ، وهى قضيب سميك من الخشب الصلب يبلغ طوله ست أقدام وقطره بوصتان ثبت فى أحد طرفيه مثلث من الحديد مستدق الطرف طوله ثمان عشرة بوصة ، فظيع الشكل ، ثقيل الوزن . وكان يحمل سيفاً إسبانياً قصيراً ثقيلا . أما قميصه الجلدى فقد ثبتت فيه على الصدر ثلاثة ألواح من الصلب وثلاثة أخرى على كل من كتفيه ، وعلقت فى وسطه ألواح ثلاثة إضافية تتأرجح فوق ساقيه فى أثناء مشيه . وكان يرتدى سراويل جلدية وحذاء جلديا طويلا . ويسير فى يسر ودون جهد ظاهر ، بالرغم من كل هذه الأثقال الضخمة من المعدن

والخشب . وكان المعدن الذى يحمله فوق جسده مدهوناً بالزيت، وكذلك درعه . فاختلطت رائحة الزيت برائحة العرق برائحة الجلد وأصبحت رائحة خاصة لدرع خاص من التجارة، أو القوة، أو الآلة.

واستطاع كايوس أن يرى من مكانه خلف المحفتين جانب وجه كاوديا ، وكانت شفتاها منفرجتين ، ولسانها يلعقهما وعيناها مثبتتين على الجندى .

وهمست كاوديا تقول لبروتس :

— أريده إلى جوار المحفة .

فهز بروتس كتفيه، وأصدر الأمر إلى الجندى الذى اختلجت شفتاه بابتسامة واهنة ، وهو يتراجع ليسير إلى جوار كاوديا .

وألق الجندى ببصره إليها لحظة ثم تطلع إلى الأمام ، ومدت هى يدها ومسته مساً خفيفاً حيث تنتفخ عضلاته تحت ردائه الجلدى ، ثم قالت لبروتس .

— مره أن يذهب . إن رائحته نتنة ، إنه قذر .

وكان وجه هيلينا قاسياً . أما بروتس فقد هز كتفيه مرة ثانية وأمر الجندى أن يعود إلى الصفوف .

— ٧ —

كان لبيت سالاريا الريفى اسم فيه الكثير من السخرية لأنه كان يعيد إلى الذاكرة أيام أن كانت غالبية المناطق جنوبى روما مستنقعات ملحة موبوءة بالملاريا . إلا أن هذا الجزء من المستنقع كان قد استصلح منذ زمن بعيد ، وكان الطريق الخاص المتفرع عن الطريق الأبيوسى والمؤدى إلى الضيعة قد أنشىء بنفس العناية التى أنشىء بها الطريق الرئيسى نفسه أو يكاد يماثلها .

وكان أنطونيوس كايوس صاحب الضيعة قريباً لكايوس وهيلينا من ناحية أمهما . وبالرغم من أن ضيعته لم تكن فى خصوبة الضيعات الأخرى ، فإن قربها من المدينة جعل منهامزرعة كبيرة فى نوعها تحتل بجمالها مكاناً مرموقاً بين غيرها من الضيعات .

وكان على كايوس والفتاتين ، بعد أن تحولوا عن الطريق ،أن يجتازوا أربعة أميال أخرى على الطريق الخاص كى يصلوا إلى الدار نفسها . وأحس الثلاثة الفارق على التو . فقد كان كل شبر من الأرض مزيناً معتنى به . وكانت أشجار الغابات مشذبة كالحدائق ، وسفوح التلال مدرجة تمتد على مدرجاتها الكروم الشبيهة بالأصابع

وقد بدأت بواكير عساليج الربيع فى الظهور، أما بقية الحقول فكانت مزروعة شعيراً . وهى زراعة كانت تتناقص تدريجاً ويقل ريعها مع اختفاء الملكيات الصغيرة للفلاحين وذوبانها فى الضيعات الكبيرة . أما المدرجات الأخرى فكانت مغطاة بصفوف لا نهاية لها من أشجار الزيتون . وحيثما أدرت البصر كنت تجد دليلا على العناية بالزراعة التى لا تتوافر إلا على أيدى عدد لا يحصى من العبيد ـ واستمتع الشبان الثلاثة المرة بعد المرة بمشاهدة الكثير من الكهوف الصناعية الجميلة تغطيها الطحالب والخضرة وتشيع منها الرطوبة ، فى داخلها نماذج مصغرة للمعابد اليونانية وآرائك الرخام ونافورات من المرمر نصف الشفاف وممرات الحجر الأبيض تلتوى داخلة وخارجة من الوديان الصغيرة التى تغطيها الغابات . شاهد الثلاثة كل هذا الجمال والمساء الرطب قد حان، والشمس تهبط وراء التلال المنخفضة ، فكان للمنظر سحر خرافى جعل كاوديا ، التى لم تكن قد أتت إلى هذا المكان من قبل ، تطلق الصيحة إثر الصيحة إعجاباً وسروراً . وكان هذا السرور منها متمشياً مع شخصيتها الجديدة إلى حد دفع كايوس إلى أن يقول فى نفسه : كيف يمكن أن تبتهج هذه الشابة الرقيقة المرفهة إلى هذا الحد بدافع مشاهدتها لرموز العقاب ، كما كان المهذبون يسمونها ؟

وكانت الماشية فى هذا الوقت من اليوم تقاد إلى حظائرها ـ

وكان رنين الأجراس المعلقة فى رقاب الأبقار والنداء الحزين الصادر من أبواق رعاة البقر يملأن الجو بلا انقطاع . أما رعاة الماعز ، من عبيد تراقيا وأرمنديا الصغار، فكانوا يعدون وكلهم عراة إلا من خرق حول حقويهم خلال الغابات ينادون حيواناتهم الشاردة . وقال كايوس فى نفسه : ترى أيهما يبدو أكثر إنسانية : الماعز أم العبيد ؟ وبدأ يفكر ، كما كان يفكر عادة من قبل ، فى ثروة خاله . لقد كان القانون يحرم على أسر النبلاء مزاولة أى نوع من الأعمال التجارية ، إلا أن أنطونيوس كايوس والكثير من معاصريه — كانوا يجدون فى القانون منافذ واسعة بدلا من أن يكون قيداً ضيقاً .. وكان يقال إنه أقرض عن طريق عملائه أكثر من مليون قطعة فضية بفوائد كانت تصل عادة إلى مائة فى المائة . وكان يقال كذلك إن له حصة كبيرة فى أربع عشرة سفينة تعمل فى التجارة المصرية ، وإنه يملك نصف منجم من أكبر مناجم الفضة فى أسبانيا .

ولم يكن مسموحاً لأحد غير الفرسان أن يكونوا أعضاء فى مجالس إدارة الشركات المساهمة التى نشأت بعد الحرب البونية ، ولكن هذه المجالس كانت تنفذ رغبات أنطونيوس كايوس بدقة وعناية .

وقصارى القول أنه كان من المستحيل تقدير ثروته . ومع

أن بيت سلاريا الريفى كان مكاناً جميلا فيه ذوق ويحيط به أكثر من عشرة آلاف فدان من الحقول والغابات ، فإنه لم يكن أكبر أو أفخم الإقطاعيات . كما أن أنطونيوس كايوس لم يحاول أن يتباهى بثروته كما كانت عادة الأسر النبيلة فى الفترة الأخيرة ، عن طريق رعاية الحفلات فى المجتلد ، أو مد الموائد الفخمة الغالية فى الفخامة ، أو التسلية على الطريقة الشرقية . لقد كانت مائدة أنطونيوس طيبة حافلة ، إلا أنها لم تكن تزدان بلحم صدر الطاووس وألسنة الطيور المغردة أو أحشاء جرذان ليبيا المحشوة لأن النظرة إلى هذا اللون من الحياة كانت لا تزال فيها الكثير من عدم الرضاء ، وكان كل فرد يتجنب أن يعرض فضائح الأسرة وقت الطعام ، وكان أنطونيوس نفسه رومانياً من الطراز ذى المكانة العالية القديمة ، كما أن كايوس — الذى كان يكن له الاحترام وإن لم يكن يحبه — لم يكن يشعر مطلقاً بالراحة فى حضرته

وكان جزء من عدم الشعور بالراحة هذا يرجع إلى الرجل نفسه ، لأن أنطونيوس كايوس لم يكن أكثر شخصيات العالم إنفاقاً وبذخاً إلا أن الجزء الأكبر من عدم شعور كايوس بالراحة فى حضرته كان مصدره شعوره الدائم بأن لخاله تقديراً خاصاً للفرق بين ما عليه ابن أخته ، وبين ما يجب أن يكون عليه الشاب الرومانى كما يريده هو . وكان كايوس يشك فى أن خرافة الفتى

الرومانى المتقشف الفاضل الذى يهب حياته لواجبه نحو بلاده ، والجندى الشجاع المتدرج فى مراتب العسكرية حتى يصبح ضابطاً كبيراً ، والذى يتزوج من عذراء رومانية صالحة وينشىء أسرة ، ويتفانى ويخلص فى خدمة الدولة ، ويرتقى من منصب إلى منصب حتى يصبح فى النهاية قنصلا يحترمه ويجله عامة الشعب وحملة الألقاب وأصحاب الثراء ، المستمسك بالأخلاق الكريمة ودواعى الشرف طيلة حياته — لم تكن هذه الخرافة فى وقت من الأوقات أبعد عن الحقيقة منها وقتئذ ، ولم يكن كايوس نفسه يعرف بوجود مثل هذا الشاب الرومانى . فقد كان الشباب المحيط بكايوس فى حياة روما الاجتماعية يهتم بعدد معين من الأشياء . . كان بعضهم قد تخصص فى اصطياد قلوب عدد لا يحصى من الفتيات ، وأصيب البعض الآخر بعدوى المال فى سن مبكرة ، حتى كانوا — وهم لم يتخطوا بعد عامهم العشرين — يشتغلون بالفعل فى عدد من الأعمال التجارية غير المشروعة ، بينما تعلم البعض الآخر تجارة الانتخابات فكرسوا أيامهم وشراستهم للعمل القذر اليومى فى الأحياء ، يشترون ويبيعون الأصوات ، يرشون ويرتشون ، ويغضون الطرف عن المساوىء ، ويتعلمون التجارة التى زاولها آباؤهم فى مقدرة من أولها صاعدين ، ويكتسب البعض الآخر عيشه من الاتجار فى الأغذية وأصبح خبيراً ناصحاً فى الأغذية والمشروبات ، وقليل جداً من انخرط

فى سلك الجندية التى كانت قد بدأت تفقد روادها تدريجياً بوصفها عملا للشاب النبيل ، وعلى هذا كان كايوس ، العضو فى هذه الجماعة الكبيرة التى وهبت نفسها للمهمة الثقيلة، مهمة تمضية أيامها فى كسل والحصول على أكبر قدر من المتعة ، كان يرى نفسه مواطناً لاضرر منه إن لم يكن لاغنى عنه فى الجمهورية الكبيرة ، ويرفض الاتهام الصامت له الذى كان يعرب عنه خاله أكثر من مرة . وكانت عبارة « عش ودع غيرك يعش » تلخص لكايوس فلسفة متمدينة عملية .

دارت كل هذه الخواطر برأسه وهم يدخلون إلى الحديقة المترامية الأطراف والساحة الخضراء المحيطة بالبيت الريفى نفسه ، وكانت الحظائر الضخمة ومساكن العبيد الذين يكونون الأساس الصناعى للمزرعة منفصلة عن البيت لايبدو لها أثر، لأنهم لم يسمحوا لأى أثر للقبح أو الكفاح بأن يشوه جمال المنزل التقليدى . أما البيت نفسه فكان منزلا ضخماً مربعاً مشيداً حول فناء فى وسطه بركة ، ويقوم على قمة ارتفاع بسيط ، مطلياً باللون الأبيض مسقوفاً بالآجر الأحمر الذى تأثر بعوامل الجو .

ولم يكن المنزل قبيحاً. وقلل من سأم استقامة خطوطه الذوق الجميل فى تنسيق أشجار الأرز الطويلة وأشجار الحور المحيطة به . وكانت الأرض فيما حوله منسقة على الطراز المعروف بالطراز

الأيونى ، الذى تشذب فيه أشجار الورود لتنمو فى أشكال غير عادية ، وتمهد فيه المساحات الخضراء الهندسية ، وتقام المنازل الصيفية من الرخام الملون وأحواض المرمر لأسماك الزينة المدارية الملونة وتماثيل الحدائق التقليدية العديدة من حوريات وآلهة وظباء وملائكة ، ذلك أنه كان لأنطونيوس كايوس عرض شراء دائم وبأعلى الأسعار فى الأسواق الرومانية حيث يباع النحاتون ورسامو المناظر الطبيعية من اليونان . ولم يكن يخل بشىء فى هذا السبيل رغم ما يقال من عدم تذوقه للفنون ومن أنه يتبع توجيهات زوجه جوليا فى هذا الصدد ، وكان كايوس يصدق ذلك ، لأنه لم يكن ينقصه الذوق الفنى هو نفسه ، وما كان ليجد أثراً من الذوق فى خاله . وكانت توجد بيوت ريفية كثيرة أخرى تفوق بيت سالاريا فخامة ، ويكاد بعضها يشبه قصور حكام الشرق . فإن كايوس لم يكن يتصور وجود شىء يفوقه جمالا أو بهاء . ووافقته كاوديا على ذلك . وعندما تخطوا الأبواب الخارجية وخطوا إلى الطريق المرصوف المؤدى إلى المنزل ، تملكت كوديا الدهشة ، وقالت هيلينا :

— لم أحلم بشىء مثل هذا من قبل ، إنه ليشبه الأساطير اليونانية فوافقتها هيلينا قائلة :

— إنه مكان رائع الجمال .

وكان أول من رآهم ابدتا أنطونيوس كايوس الصغيرتان متسابقتا بمجتازتين الساحة الخضراء لتحيتهم تتبعهما أمهما جوليا تمشى على مهل . وكانت جوليا امرأة جميلة سمراء ممتلئة ، وخرج أنطونيوس نفسه من الدار بعد لحظات يتبعه ثلاثة رجال .

وكان أنطونيوس كثير التدقيق فى مسائل السلوك نحو نفسه ونحو غيره ، فحيا قريبيه وصديقتهما فى رقة هادئة ، ثم قدم لهم ضيوفه وكان كايوس يعرف اثنين منهم معرفة وطيدة ، يعرف انتيلوس جراكوس ، وهو سياسى بصير ناجح ، ولكينيوس كراسوس القائد العسكرى الذى طار صيته فى حرب العبيد وأصبح حديث المدينة منذ عام . أما ثالث الجماعة فقد كان غريباً على كايوس ، وكان يصغر الآخرين سناً ولا يكبر كايوس نفسه كثيراً ، وكان خجولا ، فيه عدم الثقة بالنفس المتأصل فى نفس كل من لم يولد نبيلا ، متغطرسا غطرسة المفكرين الرومان المختلطة بالدهاء .

وراح يدرس أحد القادمين الجدد وهو شاب جميل الطلعة متوسط الوسامة ، كان يدعى ماركوس تليوس شيشرون . وأعرب شيشرون عن اغتباطه بالتعرف إلى كايوس والفتاتين الجميلتين فى تواضع ، إلا انه لم يستطع أن يخفى حب استطلاعه القلق لدرجة أن كايوس ، ولم يكن من أكثر الناس إدراكا ، تبين

أن شيشرون يدرسهم ويفحصهم ويحاول أن يتصور محيطهم بقدر ثروة الأسرة ونفوذها .

وكانت كلوديا خلال ذلك قد ركزت اهتمامها على أنطونيوس كايوس بوصفه أكثر من يرغب فيه من الرجال ترغيبا، فهو سيد الدار الفخمة وما حولها من الأرض الفسيحة التى لا حصر لها . وإذ لم يكن لها من الوعى السياسى إلا اسمه ، وعن الحرب إلا فكرة غامضة مشوشة فإنها لم تأبه كثيراً بكل من جراكوس وكراسوس. أما شيشرون فلم يكن مجهولا فحسب ، وهذا يعنى عدم أهميته بالنسبة لكلوديا ، بل إنها إلى ذلك كانت تراه من الفرسان الساعين وراء المال ، الذين تعلمت احتقارهم .

وكانت جوليا قد بدأت بالفعل فى مهاجمة كايوس الحبيب إلى نفسها ، فراحت تتمسح به كقطة كبيرة خرقاء . أما كلوديا فقد كان فى تقديرها لأنطونيوس كثير من الحكمة التى لم يعرفها كايوس من تقديره له . رأت كلوديا فى الأنف الضخم الأفقى وجسد أنطونيوس القوى العضلات كتلة من المشاعر المكبوتة ، وكانت كلوديا تفضل الرجال الأقوياء الذين لا يستخدمون قوتهم ، فأنطونيوس كايوس لا يمكن أن يتهور أو يضايق إنساناً . وحماته هى بابتسامتها المتوانية فى الظاهر على أن يدرك كل ذلك .

وكان الجمع بأسره قد وصل إلى البيت عند ذاك . وكان كايوس قد ترجل من قبل ، فاقتاد عبد من خدم البيت جواده ، بينما قبع حملة المحفات وقد انهكت قوائمهم الأميال الطويلة التى مشوها إلى جانب أحمالهم، يتصببون عرقاً ويرتعدون من برودة المساء . وكانت أجسادهم النحيلة فى تعبها تشبه أجسام الحيوانات ،وراحت عضلاتهم ترتعد من ألم الارهاق كما تفعل الحيوان .

ولم يتطلع إليهم إنسان ، ولم يلحظ وجودهم أحد ، ولم يعن بهم أحد ، ودخل الرجال الخمسة والنسوة الثلاث والطفلتان إلى البيت وظل العبيد حملة المحفات إلى جوار المحفات ينتظرون ، ثم انفجر واحد منهم ، وهو لا يزيد على العشرين ، يبكى وينتحب ، ثم تزايد بكاؤه حتى لم يستطع السيطرة على نفسه . إلا أن الآخرين لم يعيروه التفاتا وظلوا فى جلستهم هذه حوالى عشرين دقيقة قبل أن يأتى إليهم عبد قادهم إلى حيث يطعمون ويمضون الليل .

— ٨ —

شارك كايوس القائد ليكينيوس الحمام ، وأراحه أن الرجل العظيم لم يكن من أصحاب الرأى الذى يرى فى كايوس ممثلا لكل الصفات المنحلة التى كان النبلاء الشباب يتصفون بها حينذاك ، بل وجده رجلا لطيفاً دمثاً متصفاً بتلك الصفة الجذابة، صفة الرجل

الذى يسعى إلى سماع آراء غيره ولو لم يكونوا من ذوى الشأن .

واسترخى الاثنان فى حوض الماء يحركانه فى كسل ويطفوان جيئة وذهابا يستمتعان بالماء الدافىء المعطر الذى أذيبت فيه كميات كبيرة من الأملاح الشذية الرائحة ، وكان جسد كراسوس معتنى به فلم يصبه ترهل منتصف العمر ، بل كان صلباً ، مسطحاً ، فيه شباب ونشاط ، وسأل كايوس : هل جاء هو ومن معه على الطريق من روما ؟

ــ أجل ، وسنسافر غداً إلى كابوا

ــ ألم تهتم برموز العقاب ؟

فأجاب كايوس قائلا :

ــ لقد كنا شديدى الرغبة فى مشاهدتها . لا . الحقيقة أننا لم نأبه بها كثيراً بنوع خاص ، فقد كنا نرى هنا وهناك جسداً نهشته الطيور ، وكان ذلك يبعث على الاشمئزاز وخاصة إذا كانت الريح تهب تجاهك ، إلا أنه لم يكن من ذلك بد ، واضطرت الفتاتان إلى إسدال الستائر ، لكن العبيد حملة المحفات أصابهم الغثيان وكانوا يتقايئون أحياناً .

فابتسم القائد وقال :

ــ أعتقد أنهم تمثلوا أنفسهم من المصلوبين .

ــ ربما . اعتقد أنه يوجد مثل هذا الشعور بين العبيد ؟ إن معظم

عبيدنا من حملة المحفات قد نشأوا فى الحظائر ، وربى معظمهم على السوط فى الصغر ، فى مدرسة أيبوس موندليوس ، وهم لا يفضلون الحيوان كثيراً ما داموا يحتفظون بقوتهم . أتظن بعد ذلك أنهم تمثلوا أنفسهم فى المصلوبين ؟ لا أعتقد أنه يوجد بين العبيد مثل هذه الصفات الجماعية ، لكنك تعرف هذا خيراً منى . أتظن أن العبيد جميعاً كانوا يشعرون بشىء نحو سبارتاكوس ؟

– أتظن أن غالبيتهم كانت تشعر نحوه بشىء ما ؟

– أحق هذا ؟ ألا يضايقك ذلك ؟

– وإلا لكرهت عملية الصلب هذه .

وأضاف كراسوس مفسراً :

– إنها تبذير وضياع ، وأنا لا أحب التبذير لمجرد التبذير ، كما أنى أعتقد أن القتل يبعث على الكثير من القتل . وأرى أنه يصيبنا بشىء قد يضر بنا فيما بعد .

فاحتج كايوس قائلا :

– لكن العبيد ؟

– إن شيشرون كثير الشغف بترديد عبارته : إن العبد آلة ناطقة للتفرقة بينه وبين الحيوان الذى هو آلة نصف ناطقة ، وللتمييز بينه وبين الآلة المادية التى نستطيع أن نسميها آلة خرساء . وهذا

أسلوب بارع فى التعبير . وأنا على ثقة من أن شيشرون إنسان ماهر ، إلا أنه لم يضطر إلى محاربة سبارتاكوس ، لم يضطر شيشرون إلى تقدير إمكانيات سبارتاكوس المنطقية ، لأنه لم يمض الليالى ساهراً ، كما فعلت أنا ، يحاول أن يعرف مقدماً ما يفكر فيه سبارتاكوس، فأنت عندما تقاتل العبيد تكتشف فجأة أنهم أكثر من آلات ناطقة .

— وهل تعرفه ؟ أعنى هل تعرفه شخصياً ؟

— هو ؟

— أعنى سبارتاكوس .

فابتسم القائد وهو يفكر وقال :

ليس تماماً . لا أعرفه حقاً وإنما رسمت لنفسى صورة له . وضعت فيها هذه الصفة إلى جانب تلك لكنى لا أعرف أن أحداً عرفه على حقيقته . وكيف تستطيع معرفته ؟ لو أن كلبك الأليف المدلل تهيج فجأة وأصابته لوثة وتصرف بمثل هذا الذكاء فسيظل كلبا . أليس كذلك ؟ ويكون من العسير معرفته . لقد رسمت لنفسى صورة لسبارتاكوس لكنى لن أزعم أنى أستطيع وصفه كما كان ، ولا أعتقد أن أحداً يستطيع ذلك لأن من كانوا يستطيعونه معلقون الآن على طول الطريق الأبيوسى ، كما أن الرجل نفسه قد أصبح كالحلم ، وسنعيد نحن تصوره فى صورة العبد.

فقال كايوس :

ـ كما كان .

ـ أجل ، أجل . . فيما أظن .

وكان من العسير على كايوس أن يتابع الحديث فى هذا الموضوع . ولم يكن ذلك لقلة خبرته بالحرب ثم إنه فى واقع الأمر لم يكن يهتم بالحرب رغم أنها كانت واجباً مفروضاً على الطبقة التى ينتمى إليها ولوضعه فى الحياة . و اذا كان رأى كراسوس فيه ؟ أيمكن أن يكون هذا الأدب وهذه العناية حقيقيين ؟ مهما كان الأمر فلا يمكن تجاهل أسرة كايوس أو التقليل من شأنها وكراسوس فى حاجة إلى أصدقاء ، لأن من السخرية ألا يفوز هذا القائد من أعنف حرب خاضها ـ ولعلها أعنفها فى التاريخ الرومانى بأسره ـ إلا بمجد ضئيل ، فقد حارب العبيد وهزمهم عندما أوشك هؤلاء العبيد على هزيمة روما . لقد كان الأمر كله تناقضاً غريباً ، فقد يصبح الإقلال من شأن كراسوس حقيقة واقعة ، لأن الخرافات لن تحاك حول كراسوس أو تنشد من أجله الأناشيد ، لأن ضرورة نسيان الحرب كلها ستقلل من قيمة نصره على مر الايام .

وخرجا من الحوض فلفتهما الإماء اللاتى كن فى انتظارهما فى المناشف الدفيئة، ولم يكن فى كثير من الأماكن التى قد تفوق بيت

أنطونيوس كايوس روعة أو فخامة نصف ما فيه من كل مايتوقعه الزائر لإرضاء رغباته وسد حاجاته

وهذا مادار بخلد كايوس والإماء يجففن جسده ، فقد علموه أن فى الأيام الخالية كان هناك عالم ملىء بصغار الأمراء والممالك والإمارات الصغيرة ، إلا أن القليل منهم من استطاع أن يحيا أو يستمتع على طريقة أنطونيوس كايوس ، وهو مالك ليس كبير السطوة أو الأهمية ومواطن فى الجمهورية ، ولك أن تقول فى هذا ماشئت ، لكن الحياة الرومانية كانت انعكاساً لأصلح الناس وأقدرهم على الحكم

وقال كراسوس :

— لم أعتد مطلقاً أن تلبسنى النساء ثيابى وتعنى بى فهل تحب أنت ذلك ؟

فأجاب كايوس قائلا :

— لم أعن بالتفكير فى ذلك من قبل .

— ولم يكن صادقاً كل الصدق فيما قال ، فمما لاشك فيه أن بعض الدوائر لم تكن تنظر بعين الارتياح إلى دخول الإماء إلى الحمام للعناية بالمستحمين إلا أن النظرة إلى العبيد كانت قد تغيرت إلى حد ما خلال السنوات الخمس أو الست الأخيرة ، وكان كايوس ، مثل الكثير من

أصدقائه ، قد انتزع منهم أكثر عناصر الإنسانية .

وكان فى ذلك إعادة تقييم حقيق للعبيد ، لذلك لم يكن فى تلك اللحظة يعرف حقيقة شكل النسوة الثلاث اللاتى كن يعنين به ، ولو أنه سئل فى ذلك فجأة لما استطاع أن يصفهن غير أن سؤال القائد حمله على التطلع إليهن . كن من إحدى القبائل الإسبانية أو من جهة ما فى إسبانيا ، وصغيرات السن ، وحجمهن دقيق . لسن بالقبيحات فى سلوكهن الصامت الحزين ، ولكن حفاة يرتدين قمصاناً قصيرة بسيطة ، وكانت ثيابهن مبللة من بخار الحمام وبالعرق الناتج مما بذلن من جهد .

ومشى إلى منضدة التدليك ورقد فوقها ، ولحق به كراسوس بعد لحظات وقال :

— كان سبارتاكوس لغزاً لى كما هو لغز لك ، فأنا لم أره مطلقاً رغم كل ما أذاقنى من عناء .

— ألم تره على الإطلاق ؟

— على الإطلاق . لكن ذلك لا يعنى أننى لم أعرفه . لقد رسمته لنفسى جزءاً جزءاً فأنا أحب ذلك . ومن الناس من يرسمون صوراً ويؤلفون قطعاً موسيقية أما أنا فقد رسمت صورة لسبارتاكوس .

وسأله كايوس :

- . كيف كان شكله ، أعنى فى صورتك له ؟

فقطب كراسوس وقال :

- إنى كثيراً ما أسائل نفسى عن الصورة التى كان يتخيلها فى ذهنه . لقد نادانى فى نهاية المعركة أو هكذا يقولون . فلست أقسم أنى سمعته ، لكنهم يقولون إنه صاح يقول «كراسوس انتظرنى أيها المغفل .. أو شيئا من هذا القبيل » . لم يكن ليبعد عنى أكثر من أربعين أو خمسين ياردة ، وبدأ يشق طريقه قادماً إلى . وكان أمره عجيبا فهو لم يكن بالرجل الكبير الحجم ولم يكن كثير القوة كذلك ، لكنه كانت له غضبة . هذه هى الكلمة على وجه الدقة ، فعندما كان يقاتل بيديه العاريتين ، كان كأنه غضبة أو سورة . وشق لنفسه بالفعل طريقا حتى منتصف المسافة بينى وبينه ولا بد أنه صرع عشرة رجال أو أحد عشر رجلا على الأقل فى هجمته الوحشية الأخيرة ولم نستطع وقفه إلا بعد أن مزقناه إربا .

فسأله كايوس قائلا :

- إذن فصحيح ما يقال من أن جسمه لم يوجد ؟

- صحيح لأنهم مزقوه تمزيقاً . ولم نجد شيئاً متبقياً من

جسده . أفتعرف ما هي ساحة القتال؟ إنها دم ولحم . ومن العسير أن تقرر لحم من هـذا أو دم من ذاك . وهكذا عاد من حيث أتى ، فقد جاء من لاشيء وأصبح لاشيء . خرج من المجتلد وعاد إلى حانوت القصاب . فنحن نعيش على السيف ونموت بالسيف . وهكذا كان سبارتاكوس . . وأنا أحييه !

وأعاد ما قاله القائد إلى ذاكرة كايوس حديثهم مع تاجر السجق، وأوشك أن يسأله في ذلك إلا أنه أعاد التفكير ثم سأل سؤالا آخر :

ـ ألا تكرهه ؟

ـ ولم أكرهه ؟ لقد كان جندياً ممتازاً وعبداً قذراً لعيناً ، وأي شيء أكرهه فيه ؟ فهو ميت وأنا حي .

ثم قال .

ـ أنا أحب الترف .

ومضى يقول كأنه قد قرر فيما بينه وبين نفسه أن حديثه لا يمت إلى الأمة بصلة ، وأنه فوق مستوى إدراكها .

ـ لكن خبرتي بالنساء محدودة . وقد لا تتصور أنت ذلك، لأن جيلكم ينظر الى الأشياء نظرة مختلفة عن هذه النظرة، ولست أعني الساقطات، إنما أقصد اللطيفات الرقيعات مثل هذه المرأة. فإلى أي حد يذهب معها الإنسان يا كايوس ؟

ولم يفهم الشاب لأول وهلة ما يتحدث عنه الرجل فتطلع إليه فى دهشة ليجد عنق كراسوس قد انتفخت عضلاته ، فاضطرب كايوس وفزع بعض الشىء وأراد أن يغـــادر الغرفة مسرعاً . إلا أنه لم يجد وسيلة مؤدبة للخروج ووجد أن تصوره لما سيحدث أقوى من اهتمامه بالبقاء ليراه وهو يحدث .

وقال كايوس :

— فى وسعك أن تطلب إليها .

— أطلب اليها ؟ وهل تظن أنها تتـكلم اللاتينية ؟

— كلهن يتكلمنها قليلا .

— أتقصد أن أطرق الموضوع رأساً ؟

فتمتم كايوس يقول :

— ولم لا ؟

واستدار ينام على وجهه وأغمض عينيه .

— ٩ —

بينما كان كايوس وكراسوس فى الحمام ، وبينما كانت الشمس فى ساعتها الأخيرة ترسل الوهج الذهبي على الحقول وحديقة بيت

سالاريا الريفى ، خرج أنطونيوس كايوس يتمشى مع صديقة قريبته فى الحديقة متجهين إلى مضمار الجياد . ولم يكن أنطونيوس كايوس ينغمس فى مظاهر الأبهة كإقامة مضمار سباق خاص بحقوله أو إنشاء ساحة خاصة للمجالدين ، فقد كانت له نظريته الخاصة به ، وهى أنه إذا أراد المرء أن يحافظ على ثروته فعليه أن يتعقل فى إظهارها ، خاصة وأنه لم يكن لينقصه الضمان الاجتماعى وهو النبالة التى كان افتقادها يقتضى المبالغة فى الأبهة كما كانت الحال مع الطبقة الاجتماعية الجديدة من رجال الأعمال التى كانت تنشأ فى الجمهورية حين ذاك . ومع ذلك فقد كان أنطونيوس كايوس شبيها بأصدقائه فى ولعه بالجياد ، يدفع المبالغ الخيالية من المال ثمناً لجواد أصيل ، ويجد متعة كبيرة فى إسطبلاته ، وكان ثمن الجواد الأصيل يوم ذاك خمسة أضعاف ثمن العبد القوى على الأقل ، إلا أن الرأى السائد أن الإنسان يحتاج أحياناً الى خمسة من العبيد ليحسن تربية جواد واحد .

وكان المضمار مسوراً يدور حول مرج عريض . وكانت الإسطبلات وحظائر الجياد مقامة فى طرف بعيد ، وعلى مقربة منها أقيم مدرج حجرى مريح يسع حوالى خمسين شخصاً ويشرف على المضمار وعلى حظيرة كبيرة .

وتناهى إليهما وهما يقتربان من الحظائر صوت مهر يصهل

صهيلا حاداً فيه إصرار وغضب جديدان على أذنى كاوديا ومثيران إلا أنهما مخيفان .

وسألت كاوديا أنطونيوس كايوس قائلة :

— ما هذا ؟

— مهر لقاح ثائر اشتريته منذ أسبوعين لا أكثر . إنه من أصل تراقى عظامه عريضة ومتوحش إلا أنه جميل . أترغبين فى مشاهدته؟

فقالت كاوديا .

— أنا أحب الجياد ، فدعنى أشاهده من فضلك .

وسارا إلى الحظائر ، وأمر أنطونيوس كبير السياس ، وكان عبدا ضئيل الحجم ذابلا ضامراً ، أن ينقله إلى حظيرة العرض الواسعة . ثم انتقلا إلى المدرج حيث جلساً وسط مجموعة من الوسائد أعدها عبد لهما . ولم يفت كاوديا أن تلحظ براعة الخدم الذين يقومون على خدمة أنطونيوس كايوس ومدى اجتهادهم وكيف كانوا يتوقعون كل رغبة وكل نظرة منه ، وهى التى نشأت بين العبيد وتعرف ماهية المصاعب التى يلاقيها المرء فى التعامل معهم . فلما أبدت له ملاحظتها هذه قال :

— أنا لا أستعمل السوط مع عبيدى فإذا حدثت منهم متاعب قتلت واحدا منهم ، وهذا يعلمهم الدقة فى الطاعة ، ولكنه لا يحطم روحهم المعنوية .

فهزت كاوديا رأسها موافقة وقالت :

ــ أعتقد أن روحهم المعنوية قوية .

ــ ليس من اليسير ترويض العبيد أو الخيول ، غير أن ترويض الرجال أسهل .

وكان العبيد قد أخرجوا مهر اللقاح إلى الحظيرة وكان جواداً أصفر اللون، ضخم الجثة ، عيناه حمراوان كالدماء ،ويغطى فمه الزبد وكان مربوط الرأس إلا أن العبدين المتعلقين بلجامه عجزا عن منعه من الوقوف على قائمتيه الخلفيتين وضرب الهواء بقدميه .

وبلغ من قوته أن جر العبدين إلى منتصف الحظيرة ، فلما أطلقاه وجريا لينجوا بنفسيهما منه وقف على قائمتيه الخلفيتين وراح يضرب الهواء بحافريه فى اتجاههما . وضحكت كاوديا وصفقت بيديها فى سرور وصاحت .

ــ إنه رائع .. رائع ، ولكن لماذا هو هكذا ملىء بالكراهية إلى هذا الحد ؟

ــ ألا تعرفين ؟

ــ كنت أظن أنه يجب أن يمتلىء بالحب لا الكراهية .

ــ الاثنان يمتزجان ، فهو يكرهنا لأننا نحول بينه وبين ما يريد . أترغبين فى المشاهدة ؟

فومأت كلوديا برأسها دليلا على الموافقة ، وألقى أنطونيوس بضع كلمات إلى العبد الواقف على مقربة منهما ، فجرى الرجل إلى الحظائر ، وخرجت فرس بنية اللون ، عصبية ، وجرت هاربة فى الحظيرة ، إلا أن المهر دار حول نفسه ليقطع عليها الطريق .

- ١٠ -

خرج كايوس إلى الشرفة المغطاة بالنباتات ايحتسى قدحاً من النبيذ حتى يحين موعد العشاء .

وكان قد فرغ من حمامه وحلق لحيته وتعطر وصفف شعره المضمخ قليلا بالزيت تصفيفاً جميلا ، وارتدى ثياباً نظيفة تأهبا للعشاء ، وكانت الشرفة فى بيت سالاريا الريفى مشيدة من الآجر الفينيقى الأحمر ، يغطيها سقف من الزجاج الأصفر الملون بألوان رقيقة ، فأحال الوهج الرقيق للشمس الغاربة فى هذا الوقت من النهار نبات السرخس الداكن اللون والنباتات الاستوائية ذات الأوراق العريضة — إلى جنة خيالية .

وكانت جوليا هناك عندما دخل كايوس ، تجلس فوق أريكة من المرمر وعلى جانبيها جلست ابنتاها وضوء الشمس الغاربة

ينسكب عليهن فى رقة وحنو . وكانت فى جلستها هذه ، فى ردائها الأبيض الطويل ، وقد صففت شعرها الأسود فوق رأسها فى ذوق جميل ، وذراعاها تحيطان بابنتيها ، كانت صورة صادقة للأم الرومانية ، جميلة هادئة وقورة . ولو لم تكن فى جلستها شبيهة بالأطفال ، لكان من الطبيعى أن تذكر كايوس بكل ما شاهده من صور لأم ابنى جراكس [1] وخنق كايوس الدافع الذى هتف به أن يصيح قائلا : مرحى ياجوليا ، فقد كان كفيلا بأن يحطمها ، لأن تظاهرها بما ليس فيها كان مثيراً للشفقة دائماً ولا عداء فيه .

وابتسمت ابتسامة رقيقة جمعت بن الدهشة القوية والسرور الحقيق وقالت :

— أسعدت مساء يا كايوس

فاعتذر لها وقال :

— لم أكن أعلم أنى سأجدك هنا ياجوليا .

— لكن . . أرجوك أن تبق . اجلس لأصب لك قدحاً من النبيذ .

فقال موافقاً :

— فليكن .

إلا أنه احتج عندما حاولت أن تخرج الفتاتين ، وقال :

(١) يقصد تيبريوس وكايوس جراكس المصلحين اللذين قتلهما الرومان بعد أن أخفقا فى هدفهما (المترجم)

– فلتبقيا إذا كانتا تريدان البقاء :

– الواقع أنه قد حان موعد عشائهما .

وبعد أن انصرفت الفتاتان قالت جوليا :

– تعال . اجلس بجانبي يا كايوس .. أستحلفك . اجلس بجانبي يا كايوس .

فجلست وصبت هي النبيـــذ لكل منهما . ومست قدحه بقدحها .

– ١١ –

أظهر العشاء في فيلا سالاريا ، كما أظهرت أمور أخرى مما جرى في البيت ، شيئاً من الإحجام عن الأخذ بالتغييرات التي عمت الحياة في روما . فأما أنطونيوس كايوس فقد كان منشأ هذا الإحجام عنده رغبة في الانفصال عن الطبقة الجديدة الصاعدة من التجار الأغنياء الذين أثروا عن طريق الحرب والقرصنة والتعدين والتجارة ، والذين أخذوا في لهفة عن اليونان والمصريين كل مستحدث جديد ، أكثر مما كان محافظة متأصلة فيه وتعلقا بالقديم . ولم يكن أنطونيوس كايوس بمستطيع ، فيما يختص بتناول الطعام أن يستمتع بوجبة يتناولها وهو ممدد فوق أريكة فقد كان ذلك

يفسد هضمه ويصرفه عن تذوق الطعام إلى العناية بتوافه الفخفخة التى أخذت تصبح طراز تلك الأيام .

ولهذا جلس ضيوفه إلى المائدة يتناولون الطعام المبسوط فوقها ، وراح هو يقدم لهم لحوم الدواجن والمشويات الرائعة والفطائر الرقيقة وخير ألوان الحساء وأشهى الفواكه ، بينما خلت المائدة من ألوان الطعام الغريبة التى كانت تحفل بها موائد الكثير من النبلاء الرومانيين ، كما أنه لم يكن ليحبذ وجود الموسيقى والرقص أثناء تناول الطعام ، بل كل ما كان يرغب فيه هو الطعام الجيد والنبيذ المعتق والحديث الممتع . وكان أبوه وجده يجيدان القراءة والكتابة ، وكان هو يرى أنه رجل متعلم . وبينما كان جده يعمل بيديه فى حقول المزرعة جنباً إلى جنب مع عبيده ، كان أنطونيوس كايوس يدير مزرعته الضخمة كما يدير أحد أمراء الشرق إمبراطوريته الصغيرة . لكنه مع ذلك كان مولعاً بأن يظن نفسه حاكما مستنيراً واسع العلم بتاريخ اليونان وفلسفتهم ومسرحهم ، قادراً على مزاولة قدر من الطب ، وله دوره فى الحياة السياسية كذلك ، وكان ضيوفه ينعكس عليهم هذا الذوق إلى حد أن كايوس كان يرى فيهم وفى مضيفه وهم قابعون فى مقاعدهم بعد الطعام يرشفون النبيذ وبعد أن انسحبت النساء الى الشرفة المغطاة بالنباتات ، صفوة الذين صنعوا روما وحكموها بقوتهم وكفايتهم .

وكان تسليم كايوس بهذه الحقيقة أكثر من إعجابه بها ، لأنه لم تكن له هو نفسه مطامح فى هذا الميدان . وكان هو فى رأيهم عديم القيمة ، غير ذى أهمية خاصة . . فهو شاب متلاف ، من أسرة طيبة ، تنحصر موهبته الحقيقية فى الطعام والفسق . وهو اتجاه جديد من بعض النواحي وثمرة للجيل أو الجيلين الأخيرين لا أكثر . لكنه مع ذلك كانت له بعض الأهمية . فقد كان ذا صلات عائلية يحسد عليها ، كما أنه سيصبح واسع الثراء بعد موت أبيه . ومن الممكن أن تحيله إحدى دورات الحظ إنساناً له أهميته السياسية ، ولهذا كان يحظى بمعاملة وتسامح أفضل مما يعامل به المرء فى مختالا معطراً جميل الوجه ، مصفف الشعر عديم العقل .

وكان كايوس يخافهم ، ففيهم مرض وإن لم يكن يبدو أنه قد أضعفهم ، فهاهم أولاء يجلسون بعد أن فرغوا من طعامهم الشهى يرشفون نبيذهم المعتق ، بينما يموت الذين تحدوا سلطانهم فوق صلبان تمتد أميالا وأميالا على طول الطريق الأبيوسى ، فسبارتاكوس أصبح لحماً . مجرد لحم ، كاللحم فوق منضدة التقطيع فى حانوت القصاب ، بل إنهم لم يجدوا من لحمه ما يكفى للصلب ، هذا بينما لا يجرؤ إنسان على صلب أنطونيوس كايوس الجالس فى هدوء واعتداد على رأس المائدة يتحدث عن الخيول ويؤيد بالمنطق القوى رأيه القائل بأن من الأفضل ربط عبدين إلى المحراث بدلا من ربط

حصان واحد ، لأنه لا يوجد الحصان الذى يتحمل المعاملة نصف الإنسانية التى يلتماها العبيد .

وكان شيشرون ينصت وعلى شفتيه ابتسامة واهنة . ويزعج كايوس أكثر من غيره من الحاضرين : كيف يمكن للإنسان أن يحب شيشرون ؟ وهل يريد هو أن يحب شيشرون؟ وألقى إليه شيشرون مرة بنظرة سريعة كأنه يقول له : « أنا أفهمك يافتى من قمة رأسك إلى أخمص قدميك ، من الظاهر والباطن ، من الداخل والخارج » وتساءل كايوس :هل يخشى الآخرون شيشرون كما يخشاه هو ؟ وقال يحدث نفسه « ابتعد عن شيشرون ، ليبعث به الله إلى الجحيم » وكان كراسوس ينصت فى اهتمام مؤدب ، وكان على كراسوس أن يكون مؤدبا ، فقد كان صورة ومثالا للرجل العسكرى الرومانى ، منتصب القامة ، مربع الوجه ، صارمه ، صلب المعارف ، برنزى البشرة ، ناعم الشعر أسوده

ثم تذكر كايوس ما دار فى الحمام وجفل ٠٠ وكيف يستطيع ذلك ؟

لقد كان يجلس على الجانب الآخر من المائدة ـ أمام كايوس ـ جراكوس السياسى الضخم الجثة، ذو الصوت العميق الأجوف، يغرق رأسه فى تلافيف عنقه السمين، ويحلى أصابع يديه السميتين المنتفختين بالخواتم . وتجاوب كايوس مع إجابات السياسى المحترف القائمة

على قواعد وأسس . كانت ضحكته ضخمة ، وموافقته فيها عظمة ، بينما كان عدم موافقته مقرونا بشروط على الدوام . وكانت تصريحاته طنانة رنانة لا تدل قط على البلاهة .

وقال شيشرون بعد أن أعرب جراكوس عن عدم تصديقه معلقا :

— إن استخدام العبيد فى المحراث أفضل لك بطبيعة الحال. فالحيوان الذى يستطيع التفكير مرغوب فيه أكثر من الحيوان الذى لا يستطيع التفكير . هذا منطق ومعقول ، هذا إلى أن للحصان قيمته ، لأنه لا توجد قبائل من الخيول نستطيع أن نشن عليها الحرب ونعود بمائة وخمسين ألفاً منها لتباع فى المزاد. وأنت إذا استخدمت الخيول أهلكها العبيد .

فقال جراكوس

— أنا لا أرى هذا الرأى .

— سل مضيفك

فأحنى أنطونيوس رأسه موافقاً وقال :

— هذا صحيح ، وسيقتل العبيد الحصان لأنهم لا يحترمون شيئاً يملكه سيدهم ، عدا أنفسهم .

وصب لنفسه قدحاً من النبيذ ثم قال :

— هل سنمضى فى الحديث عن العبيد ؟

فقال شيشرون مفكراً .

— ولم لا ؟ فهم معنا على الدوام . ونحن الثمرة الفريدة للعبيد

والعبودية، وهذا ما يجعلنا رومانيين إذا تحريت الحقيقة، فضيفنا يعيش من نتاج هذه المزرعة العظيمة ـ التى أغبطه عليها ـ بفضل ألف من العبيد. وقد أصبح كراسوس حديث روما نتيجة قمعه لثورة العبيد. ولجراكوس دخل من سوق العبيد الذى يقيمه فى حى يملكه بأسره ولا أستطيع الإقدام على عدهم وحصرهم. وهذا الفتى...

وأومأ إلى كايوس برأسه وهو يبتسم

ـ وهذا الفتى هو ـ كما أخشى ـ ثمرة فريدة للعبيد أكثر منا قليلا لأنى على ثقة من أنهم رضوه وأطعموه وعرضوه للهواء وطببوه.

فاحمر وجه كايوس إلا أن جراكوس انفجر ضاحكا وهو يقول:

ـ وأنت يا شيشرون؟

ـ أما أنا فهم مشكلة من مشاكلى، فالحياة المحترمة فى روما هذه الأيام تحتاج إلى عشرة من العبيد على أقل تقدير. وأما شراؤهم وإطعامهم وإسكانهم ـ فهنا تكمن مشكلتى.

واستمر جراكوس يضحك، إلا أن كراسوس قال:

ـ أنا لا أستطيع أن أوافقك ياشيشرون على أن العبيد هم ما يجعلنا رومانيين.

واستمر ضحك جراكوس المدوى، واحتسى جرعة طويلة من النبيذ. ثم راح يروى قصة أمة اشتراها من السوق منذ شهر

مضى وكان متوتر العضلات بعض الشيء ، محمر الوجه وهو يضحك والضحكات تهز كرشه الضخم وتقطع كلماته.. وأخذ يصف ويسهب فى وصف الأمة التى اشتراها . ورأى كايوس القصة خالية من المعنى وسوقية . إلا أن أنطونيوس كان يهز رأسه هزة الرجل الحكيم واستولت سوقية وصف الرجل السمين على كراسوس بينما راح شيشرون يبتسم ابتسامة واهنة وهو يفكر فى أثناء رواية القصة .

ثم قال كراسوس فى إصرار :

ـ ومع ذلك أعود الى قول شيشرون .

فسأله شيشرون :

ـ هل أسأت اليك؟

فقال أنطونيوس :

ـ لايمكن أن يساء إلى انسان هنا فنحن جماعة مهذبة .

فقال كراسوس :

ـ لا . . لا إساءة مطلقاً إنما أنت تحيرنى .

فهز شيشرون رأسه وقال :

ـ الغريب أنه مع وجود دليل الشيء فى كل مكان حولنا ، فنحن نصر على مقاومة المنطق فى العناصر المؤلفة للشيء ، أما اليونانيون فيختلفون عنا ، فللمنطق عندهم سحر لا يقاوم بغض النظر عن نتائجه . أما نحن ففضيلتنا هى المكابرة ، ولكن تطلع فيما حولنا .

وكان أحد العبيد من القائمين بالخدمة أثناء الطعام يستبدل بالقنينات الفارغة أخرى مليئة، بينما كان عبد آخر يقدم الفاكهة واللوز للرجال .

ـ ما جوهر حياتنا ؟ لسنا مجرد شعب من الشعوب إنما نحن الشعب الرومانى . وكل الذى جعلنا كذلك أننا أول من أدرك فائدة العبد إدراكا كاملا .

فاعترض أنطونيوس قائلا :

ـ لكن العبيد قد وجدوا قبل أن توجد روما .

ـ نعم ، كانوا موجودين حقاً . . . قليل منهم هنا وقليل هناك وصحيح أنه كانت لليونان مزارع وكذلك كان لقرطاجنة ، لكننا حطمنا اليونان وحطمنا قرطاجنة لنفسح مكاناً لمزارعنا . والمزرعة والعبد شىء واحد . وإذا كان لغيرنا من الناس عبد واحد فإن للواحد منا عشرين عبدا . ونحن نعيش الآن فى أرض العبيد، وأعظم ما وصلنا اليه هو سبارتاكوس . ما رأيك فى هذا يا كراسوس ؟ لقد كنت تعرف سبارتاكوس معرفة وثيقة، فهل كان فى وسع أى شعب آخر غير روما أن ينجب مثله ؟

فقال كراسوس فى تفكير :

— وهل أنجبنا نحن سبارتاكوس ؟

وبدا الاضطراب على القائد واستنتج كايوس أن إمعان التفكير فى أى ظرف من الظروف عملية متعبة بالنسبة له خاصة إذا واجهته

عقلية مثل عقلية شيشرون . والحق أنه لم يكن هناك مجال لالتقاء الاثنين فعلا ، ثم أضاف يقول :

ـ أعتقد أن الجحيم هو الذى أنجب سبارتاكوس .

ـ لا أكاد أرى هذا .

قالها جراكوس لشيشرون واستراح فى مقعده فى هدوء كأنه يعتذر عن أنه ليس فيلسوفاً عميقاً لأنه رومانى صالح ، وعلى أية حال فهاهى ذى روما وهؤلاء هم العبيد ، فماذا يقترح شيشرون عمله بصدد هذا الموقف ؟

فأجاب شيشرون قائلا :

ـ نفهمه .

فسأل أنطونيوس كايوس قائلا :

ـ ولم ؟

لأنهم إن لم نفعل حطمونا .

فضحك كراسوس والتقت عيناه بعينى كايوس وهو يضحك .

وكانت هذه النظرة أول تفاهم حقيق بينهما ، فأحس الفتى برعدة من التهيج تجرى فى عموده الفقرى . وكان كراسوس يغرق فى الشراب فلما أحس كايوس بما أحس به فارقته رغبته فى الخمر .

وسأله كراسوس

ـ هل جئت من هذا الطريق ؟

فهز شيشرون رأسه دلالة على النفى ، وليس من اليسير إطلاقاً إقناع رجل عسكرى بأن الأمور لا تحل كلها بالسيف ثم قال :

— ولست أقصد بقولى هذا منطق حانوت القصاب البسيط . إليك مثلا هذه المسألة الحسابية : كان يعيش على أرض مضيفنا الطيب فى يوم من الأيام ثلاثة آلاف أسرة من الفلاحين على الأقل .

فإذا قلنا إن الأسرة تتكون من خمسة أفراد فذلك معناه خمسة عشر ألف شخص ، وكان هؤلاء الفلاحون جنوداً مهرة ملاعين وما رأيك فى ذلك يا كراسوس ؟

— لقد كانوا جنوداً طيبين ، وإنى لأتمنى وجود المزيد منهم حولنا

وتابع شيشرون حديثه قائلا :

— وكانوا فلاحين صالحين ، لا للعمل فى المروج والحدائق الرسمية بل لزراعة الشعير ـ الشعير نفسه ـ الذى يطؤه الجندى الرومانى الآن بقدميه . أيوجد فى أرضك يا أنطونيوس فدان ينتج من الشعير نصف ما اعتاد الفلاح المجتهد أن ينتزعه منه ؟

فوافق أنطونيوس كايوس وقال :

— ولا ربع ما كان ينتجه .

وكان الموقف كله قد أصبح بالنسبة لكايوس ثقيلا مملا إلى حد كبير ، ذلك أنه كان قد أطلق العنان لخيالاته الداخلية ، فأحس بوجهه يتوهج حرارة واحمرارا ، وكانت سورة تعتمل

فى جسده وتصور أن الجندى يحس بهذا الإحساس نفسه وهو مقبل على المعركة . وقلما استمع إلى شيشرون بعد هذا ، وظل يختلس النظر إلى كراسوس وهو يسائل نفسه عن السر فى إصرار شيشرون على الحديث فى هذا الموضوع الممل .

كان شيشرون يسأل قائلا :

ـ لماذا ؟ . لماذا لا يستطيع عبيدك الإنتاج ؟ إن الجواب على هذا السؤال غاية فى السهولة .

فقال أنطونيوس فى صراحة :

ـ لأنهم لا يريدون ذلك .

ـ بالضبط إنهم لا يريدون ذلك . ولماذا يريدونه ؟ فأنت إذا كنت تعمل فى خدمة سيد ما يصبح همك الوحيد أن تفسد عملك . فلا فائدة من سن المحاريث لأنهم سيثلمون أطرافها على الفور . إنهم يحطمون المناجل ويكسرون المضارب ويصبح الإتلاف مبدأهم .

هذا هو الغول الذى خلقناه لأنفسنا . فهنا ، فى يوم من الأيام ، عاش خمسة آلاف نسمة على عشرة آلاف فدان . أما اليوم ، فلا يعيش عليها إلا ألف عبد وأسرة أنطونيوس فى كايوس ، بينما تعج أزقة روما وأحياؤها الفقيرة بالفلاحين . يجب أن نفهم هذا .

لقد كان من اليسير علينا أن نعطى الفلاح بعد أن عاد من الحرب فوجد أرضه مغطاة بالأعشاب وزوجته أسلمت نفسها لرجل غيره، وأطفاله لا يعرفونه، كان من اليسير علينا أن نعطيه حفنة من الفضة ثمناً لأرضه ونتركه يذهب إلى روما ليعيش فى الطرقات. لكن نتيجة هذا أن أصبحنا اليوم نعيش فى أرض العبيد، وهذا هو معنى حياتنا وأساسها. أما مسألة حريتنا ومسألة الحرية الإنسانية، والجمهورية، ومستقبل الحضارة فسيحددها موقفنا من هؤلاء العبيد، فهم ليسوا مخلوقات بشرية

وعلينا أن نفهم هذا وأن نتخلص من هذا الهراء العاطفى الكاذب الذى يتحدث به اليونانيون عن المساواة بين كل من يمشى ويتكلم. إن العبد هو الآلة الناطقة. وهناك ستة آلاف من هذه الآلات مصطفين على جانبي الطريق يمهدون طريقاً، وليس هذا إسرافاً بل هو ضرورة.

لقد زهدت حتى الموت فى الحديث عن سبارتاكوس وعن شجاعته، أجل — وعن نبله. ذلك أنه لا شجاعة ولا نبل فى كلب خسيس ينهش فى كعوب سيده

ولم ينقشع عدم اكتراث شيشرون بل استحال على العكس غضباً قاتماً فيه نفس البرودة، إلا أنه كان غضباً جمد سامعيه وجعله سيداً مسيطراً عليهم فظلوا يحدقون فيه وهم نصف مسحورين ونصف خائفين.

وكان العبيد وحدهم هم الذين يتحركون حول المائدة يقدمون لهم الفاكهة واللوز واللحوم المسكرة ويعيدون ملء أقداح النبيذ الفارغة، وهم الذين لم يكن لغضبه أى صدى فيهم. ولاحظ كايوس ذلك لأنه كان قد استحال وقتئذ إلى كتلة من الحواس المتيقظة وتبدل العالم بالنسبة له وأصبح مخلوقاً كله هياج وأصداء. ولاحظ كيف ظلت وجوه العبيد على حالها لم تتغير، وكيف ظلت التعبيرات فوقها جامدة لا تنطق، وكيف استمرت حركاتهم، متراخية كما هى. وكان حقا إذن ما قاله شيشرون عنهم وهو أن قدرتهم على المشى والكلام لا تكفى لأن تجعل منهم مخلوقات بشرية، ولم يدر السر فى الراحة التى أدخلها ذلك على نفسه، لكنه استراح فعلا.

- ١٢ -

وأستأذن كايوس وتركهم فى شرابهم وحديثهم، ذلك أن معدته قد بدأت وقتئذ تتقلص، وأحس أنه سيجن إذا اضطر إلى الجلوس والاستماع إلى المزيد من هذا الحديث، فأستأذن معتذراً بتعبه نتيجة الرحلة إلا أنه شعر بعد مبارحته غرفة الطعام بأنه فى مسيس الحاجة إلى استنشاق الهواء الطلق، فخرج من الباب الخلفى إلى الشرفة التى تمتد خلف المنزل وكلها من الرخام الأبيض عدا وسطها حيث توجد «فسقية» ماء.

وفى وسط الفسقية تنهض حوراء خارجة من طائفة من ثعابين البحر

تحمل صدفة حلزونية يتساقط منها الماء متراقصاً براقاً فى نور القمر .

وتناثرت هنا وهناك فى الشرفة أرائك من الرخام والحجر البركانى الأخضر تحيط بها أشجار السرو المزروعة فى أصص ضخمة من البازلت الأسود فتكسبها لوناً من العزلة .

وكان يحيط بالشرفة الممتدة بعرض المنزل الضخم والداخلة فى الحديقة حوالى خمسين قدماً سور من الرخام يحيط بها من كل جانب عدا الوسط حيث تنزل درجات رخامية بيضاء عريضة إلى الحدائق التى لم تكن تنسق دائماً كغيرها من بقية المنزل .

ولم يكن مستغربا من أنطونيوس كايوس أن يخفى هذا المظهر الفخم من مظاهر ثروته خلف المنزل . وكان كايوس معتادا على الإسراف فى استعمال الأحجار والتماثيل الحجرية ، فلم يعن بإطالة النظر إلى تفاصيل المكان . ولعل شيشرون كان يكتشف عبقرية شعب ممثلة فى استعمال الحجر والغرور الذى يحاول أن يجعل من الزخارف العارضة شيئا خالداً . . لكن هذه الفكرة لم تكن لتخطر ببال كايوس .

ولم يكن ليشغل ذهن كايوس حتى فى الظروف العادية إلا قلة من الأفكار لا ينقلها عن غيره ، وكانت هذه الأفكار تدور عادة حول الطعام أو الجنس ، ولم يكن ذلك نتيجة لافتقار كايوس إلى الخيال أو لغبائه بل يرجع إلى أن دوره فى الحياة لم

يحتج يوماً إلى الخيال أو الفكرة الأصيلة ، وكانت المشكلة الوحيدة التي تواجهه الساعة هي فهم معنى النظرة السريعة التي نظرها إليه كراسوس قبل مغادرته غرفة الطعام فهماً كاملا . . . في هذا كان يفكر وهو يمد بصره إلى المنحدرات السندسية التي يضيئها نور القمر عند ما أزعجه صوت يسأل

— كايوس ؟

وكانت جوليا آخر من يرغب في الانفراد به من الآدميين فوق الشرفة :

— أنا سعيدة بخروجي إلى هنا يا كايوس .

فهز كتفيه دون أن يجيب ، فمشت إليه ووضعت يديها فوق ذراعيه وتطلعت إلى وجهه وقالت :

— كن لطيفاً معي يا كايوس .

فتساءل في نفسه قائلا : لم لا تكف عن العواء والتمسح .

ومضت هي تقول :

— إن ما تعطى قليل . ولا يكلفك إلا القليل يا كايوس . بينما يكلفني طلبه الكثير .. ألا تقدر ذلك ؟

فقال :

— أنا شديد التعب يا جوليا وأريد أن أنام ...

فهمست ...

— أعتقد أني أستحق ذلك منك .

— أرجو ألا تنظرى إلى الموضوع من هذه الناحية ياجوليا

— وكيف أنظر إليه ؟

— كل مافى الأمر أنى متعب .

— ليس هذا كل ما فى الأمر يا كايوس ، فأنا حين أنظر إليك وأفكر فيما تكونه أكره نفسى ، لأنك شديد الانحلال .

فلم يقاطعها وتركها تقول كل ماتريد فسيعجل ذلك بخلاصه منها وراحت هى تقول :

— لا . أعتقد أنك لست أكثر انحلالا ممن عداك . كل مافى الأمر أننى أظهر ذلك العفن الذى فيك ، فكلنا - معشر الرومان - منحلون ، وكلنا مرضى موبوءون مليئون بالموت .. حقائب موت - نحن نعشق الموت . ألست كذلك ياكايوس ؟ أو ليس هذا هو سبب مجيئك على طول الطريق حيث يمكنك مشاهدة رموز العقاب ؟ العقاب ! لقد فعلنا ذلك لأننا نعشقه وأنت تعمل من الأشياء الطريفة بنفس الطريقة التى نعمل بها ، لأنك تحبها . أتدرى كم أنت جميل هنا تحت ضوء القمر ؟ الرومانى الشاب ، صفوة العالم بأسره فى روعة الجمال والشباب - ولا وقت لديك تمنحه لامرأة عجوز ، فأنا رومانية منحلة مثلك يا كايوس لكنى أكرهك كرهاً لا يقل فى شدته عن حبى لك . وأتمنى لو أنك كنت ميتاً . أأتمنى أن يقتلك إنسان وينتزع منك قلبك الصغير التعس

وران عليهما لحظة صمت طويلة ثم سألها كايوس فى هدوء :

— أهذا كل ما عندك ياجوليا ؟

— لا — ليس هو كل مالدى ، فأنا أيضا أتمنى الموت لنفسى .

فقال كايوس :

— هاتان رغبتان من الممكن تحقيقهما .

— أيها الحقير .

فقال كايوس فى حدة :

— سعدت مساء ياجوليا .

وغادر الشرفة، وكان عزمه ـ على ألا يثيره حديثها ـ قد تحطم، فقد أثاره الانفجار المجرد من العقل من جانب زوجة خاله التى هى فى حكم عمته . ولو أنها كان لديها أى إحساس بالفارق بينها وبينه لشعرت بأنها تجعل من نفسها سخرية بهذا العواء العاطفى الرخيص . لكن جوليا لم تحس يوماً بهذا اللون من الإحساس ، فلا عجب أن وجدها زوجها أنطونيوس امرأة متعبة .

وذهب كايوس من فوره إلى غرفته حيث كان المصباح مضاء وفى خدمته اثنان من العبيد كان أنطونيوس يفضلهما للخدمة فى البيت . فصرفهما كايوس وخلع ملابسه وجسده المتورد يرتعد وراح يدلك جسمه كله بعطر رقيق ووضع بعض المساحيق على أجزاء من جسده ثم ارتدى رداء من الكتان وأطفأ المصباح

وتمدد فى مرقده ، واستطاع أن يرى فى وضوح ، بعد ما اعتادت عيناه الظلمة ، لأن شعاعا عريضاً من ضوء القمر كان يدخل من النافذة المفتوحة ، وكانت الغرفة عليلة الهواء جميلة يعطرها أريج العطر وأعشاب الربيع النامية فى الحديقة .

ولم تنقض أكثر من دقائق قليلة على كايوس وهو يرقد منتظراً ، إلا أنه خالها ساعات طويلة .. ثم جاءت طرقة خفيفة خافتة على الباب فقال كايوس :

— ادخل .

فدخل كراسوس وأغلق الباب من ورائه ولم يظهر القائد العظيم بمثل هذه الفحولة والرجولة كما بدا حينذاك وهو يقف مبتسما للفتى الراقد فى فراشه .

— ١٣ —

كان شعاع القمر قد غير مكانه وكان كايوس متعباً يحس الاكتفاء ، مجهداً كقطة تتمطى ، وكانت هذه هى الصورة التى صورها لنفسه بنفسه وهو يقول بلا مناسبة :

— أنا أكره شيشرون .

وكان كراسوس سعيداً يحس الأبوة والطرب والسرور بنفسه ، وسأله قائلا :

لماذا تكره شيشرون؟ شيشرون العادل؟ شيشرون العادل؟
أجل .. لماذا تكرهه؟

— لست أدرى لماذا أكرهه. أمن الضرورى أن أعرف لماذا أكره الناس؟ إنى أحب بعضهم، وأكره البعض الآخر.

— هل تدرى أن فكرة إقامة رموز العقاب، الستة الآلاف من المصلوبين على طول الطريق الأبيوسى كانت فكرة شيشرون — وإن لم تكن فكرته وحده ولكنها فكرته إلى حد كبير — فهل لهذا تكرهه؟

— لا.

فسأله القائد:

— وماذا كان شعورك عندما رأيت الصلبان؟

— أثارتنى فى بعض الأوقات ولكنها لم تثرنى معظم الوقت. لقد أثارت الفتيات أكثر منى.

— صحيح؟

فابتسم كايوس وقال:

— لكن شعورى سيتغير غداً.

— ولماذا؟

— لأنك أنت الذى أقامها.

ـ ليس هذا صحيحاً ... إنه شيشرون وغيره . فأنا لم أهتم بهذه الوسيلة أو بغيرها .

ـ لكنك حطمت سبارتاكوس .

ـ وما أهمية ذلك ؟

ـ إنى أحبك لذلك ، لأنى أكرهه .

فسأله كراسوس .

ـ سبارتا كوس ؟

ـ أجل سبارتاكوس .

ـ لكنك لم تعرفه على الإطلاق.

ـ لا أهميـة لذلك فأنا أكرهـه ـ أكثر من شيشرون ، فأنا لا أهتم بشيشرون لكى أكره ذلك العبد. ليتنى استطعت أن أقتله بنفسى . ولو أنك جئت به إلى وقلت : خذ يا كايوس ، انتزع قلبه ، لو أنك فعلت ذلك...

فقال القائد ملاطفاً :

ـ أنت الآن تتكلم كالطفل .

فقال كايوس وفى صوته رنة دلال :

ـ أنا ؟ ولم لا؟ لم لا أكون طفلا . وهل الكبر بجز ؟

ـ لكن لماذا تكره سبارتاكوس كل هذه الكراهية وأنت لم لم تره إطلاقا ؟

ـ ربما كنت قد رأيته . فلعلك تعلم أنى ذهبت إلى كاپوا منذ أربع سنوات وكنت حينذاك فى الحادية والعشرين فكنت صغير السن جداً.

فقال القائد :

ـ ومازلت صغير السن جداً .

ـ لا ... لم أعد أشعر بأنى صغير السن ، لكنى كنت كذلك حينذاك وقد ذهبنا جماعة ، من خمسة أشخاص أو ستة ، وأخذنى ماريوس براكوس معه وكان كثير الشغف بى .

قال كايوس ذلك عامداً لما ستحدثه عبارته من أثر . ذلك أن ماريوس براكوس قد مات فى حرب العبيد ، وعلى هذا فليس ثمة صلات حالية بينهما . لكن ليعلم كراسوس أنه ليس الوحيد وأنه لم يكن الأول ولن يكون الأخير ، وتصلب جسد القائد لكنه لم يتكلم .

وتابع كايوس حديثه :

ـ أجل كنت أنا وماريوس براكوس ورجل وامرأة من أصدقائه واثنان آخران نسيت أسميهما ، وكان ماريوس براكوس ينفق بسخاء . . . أجل كان ينفق بسخاء كبير .

ـ هل كنت تحبه كثيراً ؟

فهز كايوس كتفيه وقال :

ــ أسفت لموته .

فقال القائد فى نفسه : يالك من حيوان صغير ، يالك من حيوان صغير قذر .

ــ ومهما يكن من شىء فقد ذهبنا إلى كاپوا ، ووعدنا براكوس بعرض خاص المقاتلين ، وكان ذلك أغلى مما هو الآن . ولم يكن بد من أن تكون واسع الثراء إذا أردت أن تقيمه فى كاپوا

فسأله كراسوس :

ــ وكانت مدرسة لنتولوس باتياتوس موجودة فى ذلك الوقت . أليس كذلك ؟

ــ أجل . وكان المفروض أنها أحسن مدرسة فى إيطاليا كلها . أحسن المدارس وأغلاها . وكانت مشاهدة اثنين من تلاميذه يتقاتلان تكلفك ثمن شراء فيل مهما يكن ثمنه . ويقولون إنه ربح مليوناً من مدرسته هذه لكنه كان خنزيراً على أية حال . هل عرفته ؟

فهز كراسوس رأسه وقال :

ــ حدثنى عنه ، فأنا مشوق لسماع ذلك الحديث . أكان ذلك قبل أن يثور سبارتاكوس ؟ أليس كذلك ؟

ــ بثمانية أيام فيما أظن . أجل . لقد طارت شهرة باتياتوس

لأنه كان يملك جماعة دائمة من الإماء . والناس لا يحبون ذلك، لا يحبون مزاولته فى العراء ، فهم لا جناح عليهم إذا فعلوا ذلك فى غرفة مغلقة الأبواب، لكن مزاولته على الطريق العام تفقده طعمه . وهذا ما كان يعمله هو أو ما يقرب منه ، ولا تثريب عليه فى هذا كما أظن ، ولكنه لم يكن يعرف كيف يعمل أى شىء فى رقة ، فقد كان خنزيراً ، أو رجلا فى صورة ثور سمين، أسود الشعر ، أسود اللحية . وما زلت أذكر قذارة ثيابه وبقع الطعام التى تلطخها وآثار البيض التى تلطخ فمه وهو يحدثنا ، ولطخة بيض أخرى طازجة على صدر ردائه .

فابتسم القائد وقال :

— هذا كل ما تتذكر !

— أتذكر ذلك وأتذكر أنى ذهبت لمقابلته أنا وبراكوس، وكان براكوس يرغب فى مشاهدة جولتين من الصراع حتى الموت بين تلاميذه . لكن باتياتوس لم يكن راغباً فى ذلك ، وقال إنه لا معنى لأن يحاول كل نبيل ثرى برم بحياته فى روما فتصد مدرسته الخاصة ، أن يحاول خلق أسلوب أو فن جديد للقتال . إلا أن براكوس كان ذا مال ، والمال يتكلم .

فقال كراسوس

ـ إنه يتكلم مع هذا النوع من الناس، وكل متعهدى المقاتلين حقراء، لكن باتيانوس هذا كان خنزيراً، وأنت تعرف أنه يملك ثلاثا من أكبر العمارات فى روما ورابعة انهارت فى السنة الماضية ومات نصف سكانها تحت الأنقاض، وهو لا يتورع عن أن يفعل أى شىء فى سبيل المال.

ـ لم أكن أعلم أنك تعرفه.

ـ لقد تحدثت إليه وكان منبعا للمعلومات عن سبارتا كوس لا ينضب له معين، والمصدر الوحيد فيما أظن، الذى كان يعرف سبارتا كوس معرفة حقيقية.

فتنهد كايوس وقال:

ـ قل لى. لقد كنت تقول لى إنك ربما رأيت سبارتا كوس.

فابتسم القائد وقال:

ـ أنت تصبح أحياناً كثير الشبه بطفل جميل.

ـ لا تقل ذلك. ولا أريدك أن تقول ذلك ثانية.

وتصلب كايوس وانتفش كالقطة، فقال القائد يلاينه.

ـ ماذا قلت حتى أغضبتك إلى هذا الحد؟ هل تريدنى أن

أحكى لك عن باتياتوس ؟ ليس فى الأمر كثير من الطمأنه ، ولكنى سأقصه عليك إذا شئت . كان ذلك منذ أكثر من عام كما أتذكر . وكان العبيد قد أنزلوا بنا أفدح الخسائر ، ولهذا أردت أن أعرف شيئاً عن سبارتاكوس هذا ، وأنت عندما تعرف خصمك تسهل عليك هزيمته ....

فابتسم كايوس وهو يصغى لهذا الحديث . ولم يكن يعرف السبب كاملا فى كراهيته سبارتاكوس إلى هذا الحد . إلا أنه كان فى بعض الأحيان يجد فى الكراهية متعة أكثر مما يجد فى الحب .

الجزء الثانى

وهو القصة التى رواها كراسوس ، القائد العظيم ، لكايوس كراسوس عن زيارة لنتولوس باتياتوس ، صاحب مدرسة المجالدين فى كاپوا ، لمعسكره.

قال كراسوس :

حدث ذلك إذن بعد أن توليت قيادة الجيش بوقت قصير - وهو شرف تحمله معك إلى موت سريع . وكان العبيد قد مزقوا فرقنا العسكرية شر ممزق ، وحكموا إيطاليا بالفعل ، وهذا هو ما طلبوا إلى إنقاذه ، فقد قالوا لى « اخرج واهزم العبيد » . وبجدنى أعدى أعدائى ، فعسكرت بقواتى حينذاك فى بلاد « غالة » الواقعة فى هذه الناحية من جبال الألب وبعثت برسالة إلى صديقك السمين لنتولوس باتياتوس .

* * *

كان المطر يتساقط رذاذاً عند ما اقترب لنتولوس باتياتوس من معسكر كراسوس . وكانت المنطقة بأسرها تبدو مقفرة موحشة وكان هو الآخر يبدو موحشاً لبعد الشقة بينه و بين داره و بين شمس كابوا المشرقة الدافئة ، محروما حتى من راحة الركوب فى محفة .

فقد كان يمتطى جواداً أصفر هزيلا ، ويفكر قائلا لنفسه : «عندما يتولى العسكريون الحكم يتحرك أشراف الناس تبعاً لأهوائهم ولا تصبح حياتك ملكا لك . إن الناس يحسدوننى لأنى أملك قدراً من المال ، ولست أنكر أن من الخير أن يملك الإنسان مالا إذا كان فارساً . وخير منه أن تملك مالا إذا كنت من أصل نبيل . أما إذا لم تكن أحد الاثنين وكنت رجلا شريفاً كسبت مالك

بطرق شريفة فلن تستطيع يوماً أن ترقد آمناً . فأنت إذا لم ترش المفتش فستدفع للحراس ، وإذا تخلصت من الاثنين فعليك أن تدفع مرتبا لمحامى الشعب (التريبون) وكلما قمت من نومك دهشت لأنك لم تطعن بسكين أثناءه . والآن يشرفنى قائد لعين بأن يجرنى نصف طول إيطاليا — ليوجه إلى أسئلة . ولو أن اسمى كان كراسوس أو جراكوس أو سيليفيوس أو متيوس لاختلف الوضع من أساسه . هذه هى العدالة الرومانية والمساواة الرومانية فى الجمهورية الرومانية » .

وطافت برأس لنتولوس باتياتوس بعد ذلك سلسلة من الخواطر خالية من المجاملة حول العدالة الرومانية وأحد القواد الرومانيين . وقطع عليه هذه الخواطر سؤال حاد من حراس الطريق الواقفين أمام المعسكر ، فأوقف جواده طائعاً وجلس فى مكانه تحت رذاذ المطر البارد ، بينما تقدم منه جنديان وراحا يفتشانه ، ولم يحاولا الإسراع فى أداء مهمتهما لتخليصه من عنائه لأنهما مضطران على أية حال إلى الوقوف تحت المطر أثناء نوبة الحراسة ، لهذا فتشاه فى برود وبطريقة غير محببة ، ثم سألاه من يكون ؟

— اسمى لنتولوس باتياتوس

ولم يعرفا الاسم لأنهما كانا فلاحين جاهلين، وأرادا أن يعرفا وجهته .

— هذا الطريق يؤدى إلى المعسكر . . أليس كذلك ؟

— نعم .

— وأنا ذاهب إلى المعسكر .

— لماذا ؟

— لأتحدث إلى القائد .

— بهذه البساطة ؟ ماذا تبيع ؟

فقال باتياتوس فى نفسه : وبعد مع هؤلاء الحمق الأقذار ؟ إلا أنه مد فى أسباب صبره وقال .

— أنا لا أبيع شيئاً ، بل أنا هنا تلبية لدعوة .

— دعوة من ؟

— دعوة القائد .

وأخرج من حافظته الأمر الذى أرسله له كراسوس . وكانا أميين لا يعرفان القراءة، إلا أن وجود قطعة من الورق كان فى حد ذاته كافياً لتركه يمر . وسمحا له بأن يسحب جواده الأصفر على طول الطريق الحربى المؤدى إلى المعسكر . وكان باتياتوس - كما كان كل المواطنين الصاعدين فى سلم الثراء فى ذلك الوقت - يقيس كل شىء بمقياس المال ، فلم يسعه إلا أن يفكر ، وهو يقترب من المعسكر ،

فى تكاليف شق طريق مثل هذا ، وهو طريق مؤقت أنشىء لسهولة الوصول إلى المعسكر ليس إلا، ومع ذلك فهو خير من الطريق المؤدى إلى مدرسته فى كاپوا والذى شقه على نفقته ، فقد كان الطريق الحربى مكونا من قطع متوسطة الحجم من الحجر الرملى فوق أساس من الحصى والتراب ، ومع ذلك فهو يمتد ميلا كاملا مستقيما كالسهم حتى المعسكر .

وفكر قائلا لنفسه : لو أن هؤلاء القواد الملاعين فكروا فى القتال أكثر من تفكيرهم فى الطرق لحسنت حالنا جميعاً ، ومع ذلك فقد انتفخ بعض الشىء كبرياء ، لأن على المرء أن يقر ويعترف بأن المدنية الرومانية قد فرضت نفسها فى كل مكان حتى فى مثل هذا المكان الممطر القذر الموحش ؛ ولا شك فى ذلك .

وكان وقتئذ قد اقترب من المعسكر ، وكان مكان التوقف المؤقت للفرق العسكرية أشبه بمدينة كبيرة ، فحيثما تذهب الفرق تذهب المدنية ، وحيثما تعسكر الفرق ، ولو كان ذلك ليلة واحدة ، تنشأ المدينة .

وكان هذا المعسكر مساحة شاسعة مسورة تكاد تبلغ نصف ميل مربع خططت بنفس الدقة التى يخطط بها الرسام شكلا هندسيا فوق منضدة الرسم : ففيها أولا ، خندق يبلغ اتساعه اثنتى عشرة قدما ، وعمقه مثلها ، ووراء الخندق سياج من الكتل الخشبية الضخمة

ارتفاعه اثنى عشرة قدماً ، ويعبر الطريق الخندق إلى المدخل حيث فتحت أبواب خشبية ضخمة عند اقترابه . ونادى المنادى فى النفير عند دخوله فالتفت حوله كوكبة من الجنود .

ولم يكن ذلك تحية له ، بل كان هو النظام من أجل النظام وحده ، وليس من قبيل المفاخرة الرخيصة أن يقال إن تاريخ العالم لم يعرف من قبل قوات عسكرية أكثر نظاماً من الفرق الرومانية .

وحتى باتياتوس ، رغم ولعه الشديد بإراقة الدماء وبالقتال وما يستتبع ذلك من احتقار فطرى للجندى النظامى ، بهرته الدقة الآلية فى كل شىء يتصل بالجيش .

ولم يكن أهم مايسترعى النظر فى هذا المعسكر هو الطريق أو السياج أو الخندق الذى يبلغ طوله ميلين ، أو الطرقات العريضة داخل المعسكر الشبيه بالمدينة ، أو خنادق تصريف المياه أو الطوار من الحجر الرملى المقام فى وسط الشوارع ، أو الحياة المزدحمة الكاملة الحركة والنظام فى هذا المعسكر الرومانى الذى يضم ثلاثين ألف رجل ، بل كان الذى يسترعيه أن هذا النتاج الهائل للعقل والجهد البشرى هو جهد طارىء عارض من العلم بذلته فى أثناء الليل الفرق فى أثناء تقدمها . ولم يكن مجرد قولهم إن هزيمة البرابرة تصبح أكثر سهولة عندما يرون فرقة رومانية تضرب خيامها ليلة واحدة

عند خوض المعركة ضد واحدة من هذه الفرق ــ لم يكن قولهم هذا قولا يلقى على عواهنه .

وعندما ترجل باتياتوس وهو يدلك مؤخرته السمينة التى طال التصاقها بالسرج ، تقدم منه ضابط شاب وسأله عمن يكون وعما يريد :

ــ لنتولوس باتياتوس من كاپوا .

فقال الضابط الشاب فى بطء :

ــ أجل .. أجل .

وكان المتحدث شابا لا يتعدى العشرين ، جميل الصورة ، معطراً متأنقا ، ينحدر من أسرة من أشرف الأسر أى من النوع الذى يكرهه باتياتوس أكثر من أية أسرة أخرى . وقال الضابط الشاب :

ــ أجل ، . لنتولوس باتياتوس من كابوا .

وكان يعرف ، كل شىء عن لنتولوس باتياتوس من كاپوا » ، ومن يكون ، وما يمثله ، والسر فى استدعائه إلى هنا حيث يعسكر جيش كراسوس .

وفكر باتياتوس فى نفسه قائلا : « أجل . أنت تكرهنى . أليس كذلك ؟ إنك تقف فى مكانك هذا وتحتقرنى ومع ذلك تأتى إلى وتتذلل بين يدى وتشترى منى ، وأنا أصبح

من أكون على يد أمثالك ، لكنك أعظم من أن تقترب منى لئلا تلوثك أنفاسى أيها الدعى الصغير.» هذا ما فكر فيه ، لكنه اكتفى بأن أومأ برأسه ولم يقل شيئا على الإطلاق .

وأومأ الشاب برأسه وقال :

— نعم . إن القائد ينتظر قدومك ، وأنا أعرف ذلك . وأعرف أنه يريد أن تذهب إليه على الفور ، وسآخذك إلى هناك .

— أريد أن أستريح ، وأن آكل شيئاً ..

— سيعنى القائد بذلك فهو واسع التدبير .

وابتسم الضابط الشاب ، ثم أصدر أمراً سريعاً إلى أحد الجنود قائلا :

— خذ جواده واسقه وأطعمه وفتش له عن مكان يبيت فيه .

فقال باتياتوس :

— إنى لم أذق الطعام منذ أن أفطرت ، فإذا كان قائدك قد انتظر كل هذا الوقت فلن يضيره أن ينتظر برهة أخرى .

فضاقت عينا الفتى ، إلا أن صوته ظل على رقته وقال :

— له أن يقرر ذلك بنفسه .

— أتطعم الجواد قبلى ؟

فابتسم الضابط الشاب وهز رأسه موافقاً ثم قال :

- تعال .

- لست جنديا فى فرقتك اللعينة .

- لكنك فى معسكر إحدى الفرق .

وواجه كل منهما الآخر لحظة ثم هز باتيانوس كتفيه وقرر ألا داعى لمواصلة النقاش هناك تحت وابل المطر المنهمر كالإبر ، فجمع عباءته المبللة حول جسده وتبع الضابط الشاب وهو يرى فيه نبيلا حقيراً قذراً سافلا ، لكنه كان يفكر فى نفس الوقت فى أنه شاهد من الدم المراق بعد ظهر يوم واحد أكثر مما شاهده هذا الجرو الذى لم يجف لبن أمه من شفتيه طيلة حياته العسكرية كما يتصورها ، لكنه مع كل تفكيره هذا ظل الرجل السمين جزارا صغيرا فى المذبح ، وكانت سلواه الوحيدة هى علمه بأنه ليس بعيد الصلة بالقوى التى جاءت بهذه الفرق إلى هذا المكان

وتبع الضابط الشاب على الطريق الأوسط العريض الذى يشق المعسكر وهو يتطلع فى تشوق من جانبى الطريق إلى الخيام القذرة الملوثة بالطين ، المسقوفة جيداً ، والمفتوحة من الأمام ، وإلى الجنود الممددين على فراشهم المكون من العشب يتحدثون ويتبادلون الشتائم ويغنون ويلعبون النرد . وكانت غالبيتهم من الفلاحين الإيطاليين ، فكانوا أشداء ، حليقين ، بشرتهم فى لون الزيتون .

وكانت فى بعض الخيام مواقد صغيرة للتدفئة، وإلا أن الجنود كانوا بوجه عام يتقبلون البرد كما يتقبلون الحر ، نظراً لقيامهم بتمرينات لا تنتهى ، ولنظامهم الذى لا يعرف الرحمة . وكان الضعفاء فيهم سرعان ما يموتون ، أما الأقوياء - فيزدادون قوة على قوتهم وقوة سلاحهم الجديد - فكانوا أشبه بعظام فك الحوت مثبتة فى سكين صغيرة حادة جعلتها أفظع آلة قتل جماعية عرفها التاريخ .

وفى وسط المعسكر تماما ، فى نقطة تقاطع الخطين الموصلين بين الأركان الأربعة قام فسطاط القائد ، وكان خيمة ضخمة تنقسم قسمين أو غرفتين ، فتحاتها مقفلة ويقف على جانبى المدخل حارسان يحمل كل منهما حربة طويلة رفيعة بدلا من الهراوة الثقيلة القاتلة ، ودرعاً مستديراً خفيفاً وسكيناً منحنية على الطريقة التراقية بدلا من الدرع العادى الضخم والسيف الأسبانى القديم . وكان كل منهما يضع على كتفيه عباءة صوفية بيضاء بللتها الأمطار ، ويقفان كأنهما تمثالان منحوتان من الحجر ، والمطر يتساقط من خوذتيهما وملابسهما وأسلحتهما. وأثر هذا المنظر بسبب ما فى نفس باتياتوس أكثر مما أثر فيه أى شىء آخر رآه ، فقد كان يسره أن يقوى الجسم الإنسانى على أداء أكثر مما فى طاقته ، ولذلك سره هذا . وعندما اقتربا أدى الحارسان التحية ثم رفعا الأستار ودخل

باتياتوس والضابط الشاب إلى الخيمة ذات النور الضئيل ، ووجد باتياتوس نفسه فى غرفة يبلغ عرضها أربعين قدماً ، وطولها نحو عشرين، هى النصف الأمامى من الخيمة . ولم يكن فيها من الأثاث إلا منضدة خشبية طويلة صف حولها اثنا عشر مقعداً من المقاعد التى يمكن طيها ، وعند أحد طرفى المنضدة جلس القائد العام ماركوس ليكينيوس كراسوس وقد وضع مرفقيه فوقها وراح يحدق فى خريطة موضوعة أمامه .

ووقف كراسوس عندما دخل باتياتوس والضابط ، وسر الرجل السمين أن يرى الاهتمام الذى تقدم به القائد منه وهو يمد له يده يحييه ، ثم قال :

— لنتولوس باتياتوس من كابوا ؟ فيما أظن .

فأومأ باتياتوس برأسه وصافحه ، وكان هذا القائد قوى الشخصية حقيقة ، قسمات وجهه جميلة قوية فيها رجولة ، لاشىء فيه يعيبه ، وقال باتياتوس :

ـ أنا سعيد بمقابلتك يا سيدى .

لقد جئت من مكان بعيد ، وهذا كرم منك وتقدير بلاشك ، وثيابك مبللة ولعلك جائع ومتعب .

وقال كراسوس ذلك فى اهتمام وبإثارة من الشك بعثا الاطمئنان فى نفس باتياتوس ، ومع ذلك فقد ظل الضابط الشاب يتطلع إلى

الرجل السمين فى أنفة كما كان يتطلع إليه من قبل . ولو أن باتيانوس كان أكثر حساسية مما هو لأدرك أن لكل من موقف الرجلين منه معنى مساويا للآخر، فقد كانت بين يدى القائد مهمة يجب إنجازها ، بينما احتفظ الضابط الشاب بموقف السيد النبيل من أمثال باتيانوس .

وأجاب باتيانوس قائلا :

ـ أنا كل ماقلت . . مبلل ومتعب ، لكننى جوعان إلى حد الموت أكثر من أى شىء آخر . ولقد سألت هذا الشاب : هل أستطيع أن آكل ؟ لكنه رأى فى ذلك طلبا غير معقول .

فقال كراسوس :

ـ نحن مكلفون باتباع الأوامر بكل دقة . وكانت أوامرى أن يحضروك إلى بمجرد وصولك . والآن يسرنى طبعاً أن أحقق لك كل رغباتك وأنا مقدر مدى ماعانيت فى مجيئك إلى هنا من مشقة، وأنك فى حاجة إلى ثياب جافة طبعاً على الفور . هل ترغب فى الاستحمام ؟

ــ فى وسع الحمام أن ينتظر ، فأنا أريد أن أضع شيئاً فى ضلوعى وغادر الضابط الشاب الخيمة وهو يبتسم .

كانا قد فرغا من التهام السمك المشوى والبيض المسلوق، وكان باتيانوس يلتهم دجاجة: يمزقها وينظف عظامها قطعة قطعة فى عناية، ويلتهم فى نفس الوقت الثريد فى انتظام من وعاء خشبى، ويجرع جرعات هائلة من إبريق النبيذ ليساعد الطعام على النزول إلى معدته. وكان لحم الدجاج والثريد والنبيذ تلوث فمه. وبدأت الثياب النظيفة التى أعطاها له كراسوس تتسخ فعلا بفتات الطعام، وتلوثت يداه بدهن الدجاجة.

وكان كراسوس يرقبه فى اهتمام، فقد كان، شأنه كشأن الكثير من الرومانيين أبناء جبلته وطبقته يكن احتقاراً اجتماعياً خاصاً لمتعهدى المجالدين الذين ينشئون لهم المعاهد ويمرنونهم ويشترونهم ويبيعونهم ويؤجرونهم لساحات الجلاد. ولم يصبح متعهدو المجالدين قوة سياسية ومالية فى مثل هذا الرجل السمين الضخم الجثة الجالس إلى المنضدة معه إلا خلال السنين العشرين الأخيرة، فمنذ جيل واحد كان القتال فى الساحة أمراً متقطعاً غير متصل، وسمة ليست بذات بال من سمات المجتمع. لكنه كان موجودا على الدوام يتسع انتشاره عند بعض عناصر السكان، ويقل انتشاره عند البعض الآخر.

ثم أصبح فجأة محور اهتمام روما وأقيمت له الساحات فى كل مكان حتى أصغر المدن أصبحت لها ساحاتها الخشبية لنزال المجالدين

وبعد أن كان القتال مقصورا على خمسين من الرجال بدأ مئات يتقاتلون ، معاً وقد يستمر برنامج القتال شهرا كاملا . ولم يكن نهم الجماهير ليشبع أو يرتوى بل كان يزداد باطراد وبلا نهاية .

وكانت السيدات الرومانيات المثقفات ، والنساء المتسكعات فى الشوارع يجدن نفس اللذة والمتعة فى هذه الألعاب ، ونشأت لغة جديدة كاملة خاصة بهذه البدعة . ولم يكن محاربو الجيش القدامى يهتمون بشىء إلا بما يوزع عليهم من المعونة وبالقتال فى الساحة . وعاش عشرة آلاف متعطل بلا مأوى لا لسبب ظاهر إلا مشاهدة القتال . وأصبحت سوق المجالدين فجأة سوقا مربحة ، ونشأت معاهد ومدارس إعداد المجالدين . كانت مدرسة كابوا التى يديرها لنتولوس باتياتوس من أكبر المعاهد وأكثرها ازدهارا ، كما كانت الطلبات فى كل سوق تنهال على ماشية ضيعة من الضياع .

وكان مقاتلو كابوا ينالون التقدير ويطلبون للقتال فى كل ساحة ، وأصبح باتياتوس رجل الشارع الفقير ثريا ، وواحدا من أشهر مرنى المجالدين فى طول إيطاليا وعرضها .

وقال كراسوس فى نفسه وهو يرقبه : ومع ذلك فما يزال رجل الشارع ، حيوانا ماكرا خبيثا سوقيا . انظر كيف يأكل ! وكان من العسير دائما على كراسوس أن يفهم كيف يستطيع كثير من الفقراء المولد ، العديمى التربية ، اقتناء أموال أكثر مما يأمل كثير

من اصدقائه فى اقتنائها . فما لاشك فيه أنهم ليسوا أقل من هذا
الممرن الضخم الجثة . ولنضرب مثلا به هو ، أنه يعرف قيمته
الشخصية بوصفه رجلا عسكرياً ، فيه فضائل الرومان من دقة
وإصرار ولا ينظر إلى القواعد العسكرية على أن الإنسان ينالها
بفطرته . وقد درس كل حملة عسكرية سجلها التاريخ ، وقرأ خير
ما كتبه مؤرخو اليونان . ولم يقع فى خطـــأ التقليل من شأن
سبارتاكوس ، كما وقع فى هـذا الخطأ كل من سبقه من القواد فى
هذه الحرب ، ومع ذلك فها هو ذا يجلس إلى المنضدة أمام هذا الرجل
الضخم ويحس بشعور غريب هو أنه أقل من هذا الرجل مكانة .

وهز كتفيه وقال يحدث باتياتوس :

— يجب أن تدرك أنى لا أكن لسبارتاكوس شيئاً من الشعور له علاقة بك أو بالحرب ؛ فلست أنا من دعاة الأخلاق وإنما أردت أن أتحدث إليك لأنك وحدك الذى تستطيع أن تحدثنى بما لا يحدثنى به سواك .

— وما هو ؟

— طبيعة خصمى .

فصب الرجل السمين مزيداً من النبيذ فى قدحه ونظر إلى القائد شذراً ودخل حارس إلى الخيمة ووضع مصباحين موقدين على المنضدة ، ذلك أن المساء كان قد حل .

وبدا لنتولوس باتياتوس فى ضوء المصابيح شخصا غير الذى كان من قبل فقد كانت عتمة الغسق رحيمة به ؛ أما الآن فقد سقط الضوء على وجهه وهو يمسحه بمنشفة فأحدث مناطق مستديرة من الظلال فوق طيات اللحم المهدلة ، وكان أنفه الضخم الأفطس يرتعد دون توقف وبلا مناسبة ، وكان قد بدأ يتبرم شيئا فشيئا ، وبدت فى عينيه نظرة سريعة باردة حذرت كراسوس من أن يسىء الحكم عليه ، ومن أن يظنه أحمق ودودا ، فلم يكن هو بالأحمق .

— وماذا أعرف عن خصمك ؟

ودوى النفير من الخارج ، فقد انتهت تدريبات المساء ، وهز المعسكر وقع أقدام الجنود المنتعلة الجلود وهم يسيرون فى صفوفهم الثنائية .

وقال كراسوس فى حذر :

— ليس لى إلا خصم واحد . إن سبارتاكوس هو خصمى .

فتمخط الرجل السمين فى المنشفة .

وقال كراسوس :

— وأنت تعرف سبارتاكوس ؟

— هذا صحيح ، وأقسم على ذلك .

إن أحداً غيرك لا يعرفه . وأنت وحدك الذى تعرفه ، لم يعرفه واحد ممن حاربوه ، فقد خرجوا لمحاربة عبيد كانوا يتوقعون أن ينفخوا فى النفير ويقرعوا الطبول ثم يقذفوا بحرابهم فيفزع العبيد

ويهربوا . وظلوا يترفعون ذلك بغض النظر عن عدد المرات التى تمزقت فيها الفرق شر ممزق . إن ماضى لا يمكن أن يعود ، وهاهى ذى روما اليوم تبذل آخر جهد لها.فإذا فشلت فلن تبقى روما ، وأنت تعرف ذلك كما أعرفه أنا .

فانفجر الرجل السمين يضحك ، وأمسك بكرشه وهو يتمدد فى مقعده وسأله كراسوس :

ــ أتجد الأمر مضحكا ؟

ــ إن الحقيقة مضحكة دائما .

فسيطر كراسوس على نفسه وكظم غيظه وانتظر حتى ينتهى الرجل من ضحكه .

وخفتت ضحكات الرجل حتى فترت وقال :

ــ لن تبقى روما ، وسيبقى سبارتاكوس وحده .

وتساءل كراسوس وهو يرقبه : هل كان الرجل حافظاً لقواه العاقلة ، أو أنه ثمل لا غير . ياللمخلوقات التى تخرجها هذه الأرض! هذا هو متعهد المقاتلين الذى يشترى العبيد ويمرنهم على القتال .إنه يضحك من ذلك طبعا ، وهو ــ أى كراسوس ــ يدرب الرجال على القتال هو الآخر .

وهمس باتياتوس فى تودد وهو يصب لنفسه قدحا آخر من النبيذ :

ــ يجب أن تشنقنى لا أن تطعمنى .

فقال القائد وهو يعود بالحديث إلى ما يريد :

— إننى أرى حلماً ، أرى نوعاً من الكابوس.. حلماً من تلك الأحلام التى تعاود المرء على الدوام .

فأومأ باتياتوس برأسه دليل الفهم وقال كراسوس مستطرداً

— وأرى نفسى فى هذا الحلم أقاتل وعيناى معصوبتان . وهذا فظيع ، لكنه منطق . وأنا ، كما ترى لا أعتقد أن كل الأحلام نبوءات ، لأن بعض الأحلام لاتعدو أن تكون انعكاسات وأصداء للمشكلات التى يواجهها المرء فى أثناء يقظته . وسبارتاكوس هو المجهول بالنسبة لى ،فإذا خضت المعركة ضده فأنا معصوب العينين وليست الحال كذلك فى أية ظروف أخرى ، فأنا أعرف لماذا يحارب الغاليون ، وأعرف لماذا يحارب اليونان والأسبان ، والألمان . إنهم يحاربون لنفس الأسباب التى أحارب من أجلها مع بعض الفوارق الطبيعية . لكنى لا أعرف لماذا يحارب هذا العبد ، ولا أعرف كيف يقود الغوغاء ، قذارة العالم بأسره ونفايته ويحطم بهم خير فرق عسكرية عرفها العالم . إن تدريب الجندى فى الفرقة يتطلب خمس سنوات ، سنوات خمس لتفهمه أن حياته لا قيمة لها . وأن الفرقة ، والفرقة وحدها هى التى لها القيمة ، وأن الأمر يجب أن يطاع ، أى أمر .. سنوات خمس من التمرين المتواصل عشر ساعات فى اليوم ، كل يوم - وعندئذ

تستطيع أن تقودهم إلى شفا جرف هاوية ، وتأمرهم بأن يسيروا فوق حافتها فيطيعو . ومع ذلك فقد حطم هؤلاء العبيد خير الفرق العسكرية الرومانية .

– لهذا طلبت مجيئك من كابوا إلى هنا لتحدثني عن سبارتاكوس كي أستطيع أن أرفع العصابة عن عيني .

فأومأ باتياتوس برأسه في رزانة ، وكانت أعصابه قد بدأت تلين ، فقد أصبح مستودع أسرار ومستشار القادة الكبار ، وهذا ما يجب أن يكون . وقال كراسوس :

– حدثني أولا عنه ، بوصفه رجلا : ماشكله؟ ومن أين جئت به؟

– إن الرجال لا يظهرون على حقيقتهم أبداً .

– هذا حق ... حق فعلا ، وإذا أدركت ذلك فقد عرفت الرجال

وكانت عبارة كراسوس خير تملق يمكن أن يقدم لباتياتوس

– كان وديعا ، بالغ الرقة ، إلى حد الذلة . أصله من تراقيا .

– هذا القدر من المعلومات عنه صحيح كل الصحة .

وغمس باتياتوس أصبعاً في النبيذ ثم راح يعد قطراته على المنضدة .

– وهم يقولون إنه عملاق ـ لا . لا . ليس الأمر كذلك ـ ليس هو بالعملاق . إنه ليس بالطويل القامة وبنوع خاص أستطيع

أن أقول إنه فى مثل قامتك .. شعره أسود مجعد ، وعيناه ذواتا لون بنى قاتم ، وأنفه مكسور ، وإلا لا ستطعت فيما أعتقد أن تصفه بأنه جميل . لكن أنفه المكسور كان يضفى على وجهه شبها للأغنام، وله وجه عريض وديع . وكل هذا يخدعك . وكنت أقتل أى إنسان آخر فعل ما فعله هو .

فسأله كراسوس :

ـ وماذا فعل ؟

ـ آه ..

فقال كراسوس فى بطء :

ـ أرجو أن تحدثنى حديثاً صريحاً لأنى يجب أن أحصل على صورة حقيقية له . وأريدك أن تعلم أن كل ما تحدثنى به سيكون فى حرز أمين .

وفضل كراسوس ألا يتعرض مؤقتاً للحادث المعين الذى كان باتياتوس يقتل سبارتاكوس من أجله وقال :

ـ أريد كذلك أن أعرف تاريخه السابق : من أين اشتريته وماذا كان ؟

فابتسم باتياتوس وقال وهو يبسط يديه .

— ما هو المجالد ؟ إن المجالد ليس مجرد عبد، كما تعلم أو على الأقل مجالدى كانوا ليسوا مجرد عبيد ، بل هم نوع خاص من الرجال .. إذا أردت أن تجعل الكلاب تتقاتل فلن تشترى كلا[ب] منزلية أليفة دللها صغار الفتيات ، وإذا كنت تدفع بالرجال إلى القتال فأنت فى حاجة إلى رجال يقاتلون ،رجال يأكلون المرار [،] رجال يكرهون ،رجال فيهم حقد . ولهذا أخبر عملائى أنى أبحث فى السوق عن رجال فيهم حقد وضغينة لأن هذا النوع لا يصلح عبيداً للمنازل ولا يصلح للعمل فى الضياع كذلك .

فسأله كراسوس :

— ولماذا لا يصلحون للعمل فى الضياع ؟

— لأنى لا أريد الرجل إذا روض، وأنت إذا عجزت عن ترويض الرجل وجب عليك أن تقتله ، لكنك لن تستطيع أن ترغمه على العمل ، فهو يفسد العمل ويفسد غيره ممن يعملون معه لأنه كالوباء .

— ولم يقاتل إذن ؟ آه .. هذا هو السؤال المهم ،وإذا عجزت عن الإجابة عن هذا السؤال فلن تستطيع العمل مع المجالدين . لقد كانوا فى الأيام الخالية يسمون المقاتلين فى المجتلد « بستوارى » ، وكان هؤلاء يقاتلون حباً فى القتال ، وكان يعوزهم خبال . ولم يكن هؤلاء كثرة ، لكنهم لم يكونوا عبيدا .

ومس رأسه مسة ذات مغزى وقال :

ـ وليس هذا إنسان يروعه في القتال الدموى إلا إذا كان مريضاً ، فليس هذا إنسان يحب القتال . والمجالد لا يحب القتال ، بل يقاتل لأنك تعطيه سلاحا وتفك عنه قيوده . فإذا ما أمسك بالسلاح في يده حلم بأنه قد غدا حرا — وهذه أمنيته ـ أن يمسك بالسلاح في يده ويحلم بالحرية . عندئذ يصبح ذكاؤك فى مواجهة ذكائه . وهو شيطان ، فعليك إذن أن تصبح شيطاناً أنت الآخر .

فسأله كراسوس وقد أسره وبهره الحديث المستقيم الصريح لرجل يعرف مهنته خير معرفة .

ـ وأين تجد أمثال هؤلاء الرجال ؟

ـ لا يوجد إلا مكان واحد تجدهم فيه ـ تجد فيه النوع الذى أريد . مكان واحد ليس إلا ... المناجم . والمناجم وحدها . يجب أن يأتوا من مكان تكون الفرقة العسكرية فيه جنة إذا ماقورنت به . وتصبح الضيعة جنة ، بل إن غياهب السجون تكون رحمة مباركة إذا ماقورنت به . هناك يجدهم وكلائى ، وهناك وجدنا سبارتاكوس . وكان « كورو » . أتعرف معنى هذه الكلمة ؟ إنها كلمة مصرية فيما أظن .

فهز كراسوس رأسه .

ـ إنها تعنى ثلاثة أجيال من العبيد ، أى حفيد العبد . ولها فى اللغة المصرية معنى آخر هو نوع تنذر من الحيوانات . حيوان

زاحف . حيوان تنفر منه جماعات الحيوان نفسها . أجل حتى الحيوانات تنفر من رفقته « كورو » . إن من الأشياء ماهو أسوأ من أن تصبح متعهداً للمقاتلين . عندما جئت إلى معسكرك هذا أخذ ضباطك ينظرون إلى . لماذا ؟ لماذا ؟ إننا كانا جزارون . ألسنا كذلك ؟ ونحن نتجر فى اللحوم المذبوحة . لماذا إذن ؟

وكان قد ثمل ، وامتلأ بالرثاء لنفسه.. هذا الممرن للمجالدين ، السمين الذى يملك معهدا لهم فى كابوا ، وطفت روحه وظهرت ، حتى هذا الخنزير السمين القذر صاحب المجزرة التى تستحيل فيها الرما دماً له روح .

وقال كراسوس فى صوت منخفض :

— وكان سبارتاكوس حفيد عبد .

— إنه من تراقيا أصلا ، لكنه جاء من مصر ، فالمشتغلون باستخراج الذهب من المصريين يشترون العبيد من أثينا ويشترون الكورو عند مايجدونه . ولعبيد تراقيا قيمتهم .

— لماذا ؟

— هناك خرافة تقول إنهم يجيدون العمل تحت الأرض .

— فهمت . ولكن لماذا يقولون إن سبارتاكوس اشترى فى الأصل من بلاد اليونان ؟

ـ وهل أعرف لماذا يقال كل مايقال من هراء؟ لكنى أعرف مكان شرائه لأنى شاريه . لقد اشتريته من طيبة . فهل تشك فى صحة ما أقول؟ هل أنا كاذب؟ أنا متعهد مقاتلين سمين ، رجل وحيد يجلس هنا فى بلاد الغال تحت هذا المطر اللعين. ولماذا أعانى الوحدة؟ وبأى حق تتعالى على وتحتقرنى؟ إن حياتك ملك لك وحياتى ملك لى .

فقال كراسوس :

ـ أنت ضيف المكرم ولست أحتقرك . تعال حدثنى عن سبارتاكوس وعن مصر .

ـ ٣ ـ

وهكذا حدث ، قبل أن تقرر المسيحية وجود الجحيم فى الكتب المقدسة وفى الصلوات ـ وربما بعد ذلك أيضاً ـ أن كان على الأرض جحيم رآه البشر وتطلعوا إليه وعرفوه حق المعرفة . ذلك لأن من طبيعة الإنسان ألا يستطيع الكتابة إلا عن أنواع الجحيم التى خلقها أولا لنفسه .

اصعد مع النيل مبتدئاً من طيبة فى شهر يوليو عند ما تجف الأرض ويصبح الجو خانقاً . اصعد مع النيل حتى الشلال

الأول فتصبح فى أرض الشيطان نفسها، وانظر كيف ينكمش شريط الخضرة الممتد على جانبي النهر ويذبل. انظر كيف تتبدل التلال والهضاب الصحراوية إلى رمال ناعمة.. دخان وبارود تمسها الريح فتنفجر هنا، وتلتق بمقدماتها هناك. وحيثما يجرى النهر فى بطء - وهو فى موسم الجفاف - تعلوه قشرة من مسحوق أبيض، ويملأ هذا المسحوق الهواء، كذلك بعد أن يصبح شديد السخونة.

إلا أن ريحاً رقيقة تهب على هذا المكان على الأقل.

والآن وقد اجتزت الشلال الأول، عليك أن تضرب فى صحراء النوبة التى تمتد جنوبا وشرقا. ادخل إلى الصحراء حتى تختفى الريح الرقيقة الصادرة من النهر. لكن، لا تتوغل فيها حتى تدركك أنفاس النسيم الصادر من البحر الأحمر، ثم عرج جنوباً.

وستجد فجأة أن الريح قد سكنت، وأن الأرض موات. الهواء وحده هو الحى، والهواء من فرط الحرارة لامع كالزجاج يكاد يتوهج، فتفقد حواس المرء وظيفتها، لأنه لا يرى الأشياء على حقيقتها، بل يرى كل شيء مقوسا منثنيا من فرط الحرارة، وتتغير الصحراء هى الأخرى، وأقول تتغير لأن من الخطأ

ما يظنه الكثير من الناس ... إن الصحراء واحدة فى كل مكان . لا ، إن الصحراء تعنى نقص الماء . ونقص الماء يختلف فى درجاته إلى حد كبير . وتختلف الصحراء كذلك ، تبعاً لطبيعة التربة أو المنطقة التى تقع فيها : فمنها ، الصحراء الصخرية والصحراء الجبلية ، والصحراء الرملية ، وصحراء الملح الأبيض ، وصحراء الحمم البركانية ، ومنها كذلك صحراء أخرى رهيبة هى صحراء المسحوق الأبيض المتحركة التى تنذر بالموت الزؤام .

وفى هذا النوع الأخير ، لا ينمو شىء على الإطلاق ، حتى ولا الشجيرات الجافة المعوجة الخشنة التى تنمو فى الصحراء الحجرية ، ولا الأعشاب الصحراوية الوحيدة التى تنمو فى الصحراء الرملية . . لا شىء على الإطلاق .

توغل فى هذه الصحراء إذن ، واخط فوق هذا المسحوق الأبيض واشعر بموجات الحرارة الفظيعة تنهال على ظهرك موجة إثر موجة . لكنها على الرغم من حرارتها اللافحة تسمح للإنسان بالحياة . هذه هى الحال هنا . شق طريقك فى هذه الصحراء الساخنة الرهيبة يصبح الزمان والمكان لانهائيين ومخيفين ، ومع ذلك تقدم ، وتقدم ، وتقدم . ماهو الجحيم ؟ إن الجحيم يبدأ عند ما تصبح الحركة البسيطة الضرورية فى الحياة شيئاً رهيباً . وقد تقاسم هذه المعرفة على مر الأجيال كل من ذاق الجحيم الذى صنعه البشر على الأرض .

والآن أصبح كل شيء رهيباً : أن تسير أو أن تتنفس أو ترى أو تفكر .

إلا أن هذا المظهر من مظاهر الجحيم لا يستمر إلى الأبد ، بل إنه يتجدد فجأة ، ويبدو المظهر الآخر من مظاهر الجحيم ، فتظهر أمامك أجراف سوداء . أجراف سوداء غريبة كالحلم المفزع ، هذا هو جرف الحجر الأسود . وتتجه إلى الحجر الأسود فتجده معرقاً بعروق من الرخام الأبيض البراق . ألا ما أشد بريق هذا الرخام . إنه يلتمع ويشرق .. ويالها من إشراقة سماوية ، ولا بد أن تكون له إشراقة سماوية . أليست طرق الجنة مرصوفة بالذهب . والرخام الأبيض غنى بالذهب ؟

وهذا هو سر مجيء البشر إلى هذا المكان ؛ وهذا هو سر مجيئك إليه ، لأن الرخام غنى بالذهب ومثقل به .

اقترب وانظر . لقد كان فراعنة مصر أول من اكتشف هذا الجرف من الحجر الأسود فى قديم الزمان . ولم يكن لديهم حينذاك إلا آلات من النحاس والبرنز ، فلم يستطيعوا إلا خدش السطح أو أعمق قليلا ، إلا أن الذهب انتهى بعد أجيال من الخدش على السطح فأصبح من الضرورى أن يدخلوا إلى بطن الحجر الأسود ليستخرجوا الرخام الأبيض . وقد استطاعوا أن

يفعلوا ذلك ، لأن عصر النحاس كان قد انقضى ، وبدأ عصر الحديد وأصبح فى وسع بنى الإنسان أن يستخرجوا الرخام بالمعاول والأوتاد الحديدية والمطارق الثقيلة التى تزن الواحدة منها ثمانية عشر رطلا، إلا أنهم احتاجوا إلى نوع جديد من الآدميين. فالحرارة والتراب والخصائص الجثمانية اللازمة لتتبع العروق الملتفة التى تحمل الذهب خلال الصخور ، أثبتت استحالة استخدام الفلاحين من أبناء الحبشة أو مصر ، كما أن العبد العادى كان كبير النفقة سريع الموت ، فجاءوا إلى هذا المكان بأسرى الحروب من الجنود الذين قستهم الحرب ، والأطفال الكور والمنحدرين من صلب عبيد انحدروا هم أيضاً من عبيد ، وتلك عملية لا يبقى فيها إلا أقوى الناس وأصلبهم عودا . ومست الحاجة إلى الأطفال لأن الطفل وحده هو الذى يستطيع أن يعمل عندما تدق العروق وتضيق وتغوص داخل جرف الحجر الأسود .

وزال مجد الفراعنة وسلطانهم القديمان ، وأقفرت خزائن ملوك مصر من اليونان ووقعوا فى قبضة روما ، وتولى تجار العبيد فى روما استغلال المناجم ، ومهما يكن من شىء فالرومان وحدهم كانوا هم الذين يعرفون كيف يستغلون العبيد على خير وجه .

وهكذا يصل إلى المناجم كما وصل سبارتاكوس إليها ، يصل إليها مائة واثنان وعشرون من التراقيين تربط السلاسل بين

أعناقهم ويحملون أصفادهم المتوهجة من فرط الحرارة مخترقين الصحراء على طول الطريق من الشلال الأول. إن الرجل الثانى عشر من المقدمة هو سبارتا كوس. إنه يكاد يكون عاريا. وكلهم أشباه عراة، وعما قليل سيتعرى هو من كل شيء. إنه يرتدى مزقة من الثياب حول حقويه وشعره طويل وكذلك لحيته، كما أن كل من فى الصف طويل الشعر ملتح بلى نعلاه، لكنه يتشبث بالقليل الباقى منهما سعيا وراء أية وقاية يزوده النعل بها، فجلد قدميه الذى يبلغ سمكه ربع بوصة، والذى أضحى صلدا كجلد الدواب ليس بكاف لوقايته من رمال الصحراء الملتهبة.

ما شكله؟ ما شكل هذا الرجل، سبارتا كوس؟ إنه فى الثالثة والعشرين، وهو يحمل سلسلته مجتازا الصحراء. لكن مظاهره لا يشى بسنه، فأمثاله لا يعرفون إلا آماداً وأعماراً من التعب والنصب، لا شباب، ولا رجولة، ولا شيخوخة، بل هو الكدح الذى لا ينبىء بعمر. يغمره الرمل الأبيض الناعم من قمة رأسه إلى أخمص قدميه: شعره ولحيته ووجهه، أما جلده المختفى تحت طبقة الرمال فلونه بنى محروق كلون عينيه السوداوين الحادتين اللتين تطلان كجمرتين كريهتين من وجهه الشبيه بوجوه الأموات. فالبشرة السمراء ترتبط بحياة كحياته، لأن العبد الأبيض البشرة، الأصفر الشعر القادم من الشمال لا يقوى على العمل فى المناجم، لأن الشمس تشوى جسده ثم تقتله ويموت بعد آلام رهيبة.

ومن العسير أن تقرر هل كان قصير القامة أو طويلها، لأن الرجال المغلولين فى الأصفاد لايسيرون منتصبى القامة، لكن جسده كالحبل المجدول جففت الشمس لحمه فأصبح جافا لاماء فيه، ومع ذلك فهو لايخلو من اللحم، ذلك أن عملية الحصاد والتذرية قد دامت أجيالا كثيرة. ولم تكن الحياة فوق تلال تراقيا الصخرية يسيرة يوما، فلذا كان ما بقى من هذا اللحم صلبا جامدا شديد التشبث بالحياة. وحفنة القمح التى يتغذى بها كل يوم، وفطائر الشعير الصلدة خالية من كل تغذية، لكن الجسد فى يغذى نفسه بنفسه، وعنقه سميك عضلى ملىء بالقروح المتقيحة حيث يقبع الطوق البرونزى. أما الكتفان فعضلاتهما بارزة وأبعاد جسده متساوية تساويا يبدو الرجل معه أصغر حجما مما هو. والوجه عريض، لكنه يبدو أكثر فرطحة مما هو عليه فعلا، لأن الأنف كسرته يوما ضربة من عصا ملاحظ العمل. ولما كانت العينان السوداوان واسعتين فقد أكسب هذا الوجه تعبيرا رقيقا شبيها بالأغنام. وتحت اللحية والتراب يوجد فم كبير ممتلىء الشفتين، فيه حساسية وقوة. وإذا انفرجت شفتاه — فى تقطيبة لا ابتسامة — بدت الأسنان بيضاء منتظمة، واليدان كبيرتان مربعتان، جميلتان كأجمل ما تكون عليه بعض الأيدى. والحقيقة أن الشىء الوحيد الجميل فيه كان يديه

هذا إذن هو سبارتاكوس العبد التراقى إبن العبد الذى انحدر هو الآخر من عبد. ولا يعرف إنسان مصيره، وليس المستقبل

كتابا مفتوحا يقرأ ، وحتى الماضى — عندما يكون الماضى كدا ولاشىء غير الكد — يمكن أن يتحلل إلى مرقد مظلم لألوان مختلفة من الألم. هذا إذن هو سبارتاكوس الذى لايعرف المستقبل ولا سبب يدعوه إلى تذكر الماضى ، ولم يخطر بذهنه يوماً أن هؤلاء الكادحين سيتاح لهم القيام بعمل غير الكدح . ولم يخطر بذهنه كذلك أن سيأتى يوم لايكدح فيه البشر والسوط يلهب ظهورهم.

ترى فيم يفكر وهو يخطط فوق الرمال الساخنة ؟ . . يجب أن نعرف أن الرجال عندما يكونون فى الأصفاد لايفكرون إلا فى القليل ، فى القليل جداً ، وأن من الخير لهم فى معظم الأحوال ألا يفكروا فى أكثر من موعد الوجبة التالية أو متى يشربون ثانية أو ينامون من جديد . وعلى هذا لاتوجد أفكار معقدة فى ذهن سبارتاكوس أو أذن أى واحد من رفاقه التراقيين الذين تضمهم الأصفاد معه ، فأنت إذا جعلت من الرجال وحوشا فلن يفكر هؤلاء الرجال فى الملائكة .

لكن نهاية اليوم قد حانت وبدأ المنظر يتغير . وهؤلاء الرجال وأمثالهم يتلهفون على النزر اليسير من الإثارة والتغيير . ويرفع سبارتاكوس رأسه فيرى أمامه الشريط الداكن الذى يكون الجرف . وللعبيد جغرافيا خاصة بهم . نعم ، إنهم لايعرفون شكل البحار ، أو ارتفاع الجبال أو مجرى الأنهار ، إلا أنهم يعرفون الكثير عن مناجم الفضة فى أسبانيا ، ومناجم الذهب فى الجزيرة

العربية ، ومناجم الحديد فى شمال إفريقيا ، ومناجم النحاس فى القوقاز ، ومناجم التصدير فى بلاد الغال . وللعبيد معجم خاص بهم ضمنوه مواطن الرعب . وملاذهم النفسى أن يعرفوا أن من الأماكن ما هو أسوأ مما هم فيه . لكن العالم الواسع بأسره لم يعرف ما هو أسوأ من الجرف الأسود القائم ببلاد النوبة .

ويتطلع سبارتاكوس إلى الجرف الأسود ويتطلع الآخرون ، ويتوقف الركب بأسره عن الخطو وعن الحركة المؤلمة ، وتتوقف الجمال بأحمالها من الماء والقمح ، ويتوقف الملاحظون بسياطهم ومعاولهم الطويلة كذلك ، ويتطلع كل إنسان إلى شريط الجحيم الأسود ، ثم يتابع الركب سيره .

وتكون الشمس فى طريقها إلى الغروب وراء الصخرة السوداء عندما يصلون إليها . وتكون الصخرة قد ازدادت سوادا ووحشية وإنذارا بشر مقبل . وهذا موعد نهاية عمل اليوم ، وقد بدأ العبيد يخرجون من فتحات المنجم . ويفكر سبارتاكوس متسائلا : ماذا يكون هؤلاء ؟ ماذا يكون هؤلاء ؟ . ويهمس رجل من ورائه قائلا : كان الله فى عونى !

ثم يدرك سبارتاكوس أن هذه الأشياء التى يراها ليست أجناسا صحراوية غريبة ، بل هى رجال مثله وأطفال مثلما كان فى يوم من الأيام . هذه حقيقتهم . لكن الاختلاف الذى طرأ عليهم نبع داخلهم وأتاهم من خارجهم لأنه وجد منهم استجابة داخلية لهذه

القوى التي تحيلهم شيئاً مغايراً للجنس البشرى ، هي اضمحلال للرغبة أو الحاجة إلى أن يكون المرء إنساناً . وحسبك أن تراهم — أن تراهم ! ويدب الخوف والفزع في قلب سبارتاكوس الذى استحال مع الأيام حجراً . وتتندى مرة أخرى آبار الشفقة فيه — التى اعتقد أنها نضبت — وما زال جسده الذى جف منه الماء قادراً على ذرف الدموع . وينظر إليهم . ويهوى السوط على ظهره ليتقدم ، لكنه يظل واقفاً فى مكانه ينظر إليهم .

لقد كانوا يزحفون على أربع داخل مسارب المنجم . والآن حتى بعد أن خرجوا إلى العراء ماز الوا يزحفون على أربع كالحيوانات ولم يستحموا منذ جاءوا إلى هذا المكان ، ولن يستحموا بعد ذلك أبداً ، جلودهم يلطخها التراب الأسود والقذارة القاتمة اللون . شعورهم طويلة ملبدة . ومن شب منهم عن طور الطفولة قد التحى . بعضهم أسمر اللون والبعض الآخر أبيض ، إلا أن الفرق بين اللونين قد أصبح الآن أضعف من أن يلحظه الإنسان ، لهم جميعاً كالكل قبيح فوق ركبهم ومرافقهم ، وكلهم عراة من كل شيء . ولم لا ؟ هل ستطيل الملابس من أعمارهم ؟ إن للمنجم غرضاً واحداً هو دفع الأرباح إلى السماسرة الرومانيين . وحتى مزق الثياب القذرة لها ثمنها .

ومع ذلك فهم يرتدون نوعا من الثياب . فكل منهم يحمل فى رقبته طوقاً من الحديد أو البرنز . وعندما يزحفون خارجين من الحجر الأسود ، يسلك الملاحظون كل طرق فى سلسلة طويلة حتى

يكتمل عدد المصفدين عشرين ، وحينئذ يتجهون إلى قواعدهم . ويجب أن نلاحظ أنه لم يهرب إنسان من مناجم بلاد النوبة ، لأن الهرب منها مستحيل . وكيف يتسنى للمرء أن يعود إلى عالم البشر مرة ثانية بعد عام واحد يقضيه في هذه المناجم؟ إن القيد الذى فى أعناقهم رمز أكثر منه ضرورة .

ويحدق سبارتاكوس إليهم ويفتش باحثا عن نوعه ، عن بنى جنسه ، البشر ، هذا البشر الذى يصبح جنساً ونوعا بالنسبة للرجل عندما يصبح عبداً . ويقول لنفسه : تكلموا .. خاطبوا بعضكم البعض . لكنهم لا يتكلمون ، فهم صامتون كأنهم الموت مجسداً ، ويضرع بينه وبين نفسه قائلا : ابتسموا .. لكن أحداً لا يبتسم .

ويحملون أدواتهم معهم : المعاول الحديدية والروافع والأزاميل ، ويحمل كثير منهم مصابيح بدائية مثبتة فوق رءوسهم . أما الأطفال فهم نحيلون كالعناكب يهفلون فى أثناء مسيرهم وتطرف عيونهم بلا توقف من جراء الضوء . وهؤلاء الأطفال لا ينمون أبدا . فهم يصلحون للعمل سنتين على الأكثر بعد مجيئهم إلى المناجم ، ولكن ليس ثمة وسيلة أخرى عداهم لتتبع عروق الذهب عندما تدق وتغيض فى الحجر . ويمر عبيد المنجم أمام التراقيين يحملون أصفادهم . لكنهم لا يديرون رءوسهم لينظروا إلى القادمين الجدد ، فقد مات حب الاستطلاع فيهم ، فهم لا يعبئون .

وسبارتاكوس يعرف هذا ويقول فى نفسه : لن أبالى بشىء أنا الآخر بعد زمن وجيز ، وهذا يخيف أكثر من أى شىء آخر .

والآن يذهب العبيد لتناول طعامهم فيضمون التراقين إليهم. أما المأوى الصخرى الذى يقيمون فيه فقد أنشىء على قاعدة الجرف نفسه . . أنشىء منذ زمن بعيد . . بعيد جدا لا يذكر أحد متى أنشىء . . أنشىء من شرائح هائلة متساوية من الحجر الأسود الخشن . وما من نور يضىء داخله ، ولا تهوية إلا من فتحتين عند طرفيه ، ولم ينظفه إنسان قط حتى تراكمت أقذار عشرات السنين على أرضه وتصلبت فوق سطحها . ولم يحدث أن دخل الملاحظون إلى هذا المكان ، فإذا حدثت اضطرابات داخله منعوا عنهم الماء والطعام. فإذا انقضت على العبيد مدة طويلة كافية بلا طعام ولا ماء عادوا إلى وداعتهم وأخذوا يزحفون خارجين كالحيوانات . وليسوا هم فى الواقع إلا حيوانات . وإذا مامات عبد بالداخل أخرج العبيد جثته ، إلا أنه يحدث أحيانا أن يموت طفل صغير فى مكان بعيد داخل المأوى الطويل فلا يلاحظ موته إنسان ولا يحس أحد بغيابه حتى تكشف رائحة جسده المتعفن عن مكانه . . . هذا هو المكان الذى يقيمون فيه .

ويدخل العبيد المكان دون أصفادهم . ذلك أن قيودهم الحديدية تنزع عنهم عند المدخل ، ويأخذ كل منهم وعاء خشبياً فيه طعام

وقربة من الجلد بها ماء . وليس فى القربة إلا قدر ضئيل من الماء هو القدر المقرر لهم تناوله مرتين فى اليوم ،وإن كان ضعف هذا القدر من المعطى لهم لا يكفى لتعويض ما تبخره الحرارة من الجسم فى هذا المكان الجاف . وهكذا يتعرض العبيد على مر الأيام إلى خطر جفاف الماء من أجسادهم تدريجياً ، وهذا كفيل بإفساد الكليتين إن آجلا أو عاجلا ، هذا إذا لم يقتلهم غيره من العوامل . وعندما يشتد بهم الألم ويعوقهم عن العمل يطردونهم إلى الصحراء ليموتوا فيها .

وسبارتاكوس يعرف هذا كله ، فهو يعرف ما يعرفه العبيد لأن أمة العبيد أمته . فقد ولد فيها وشب ونضج فيها ، فهو يعرف سر حياة العبيد ، وهو مجرد رغبة ، لا فى المتعة أو الراحة أو الطعام أو الموسيقى أو الضحك أو الحب أو الدفء أو النساء أو الخمر ، لا ، ليست رغبة فى أى من هذه الأشياء بل رغبة فى التحمل ، فى البقاء ، هذا وحده ولا أكثر . . رغبة فى البقاء .

وهو لا يدرى السر فى ذلك . . فلا سبب يدعو إلى هذا البقاء ولا منطق فى هذا البقاء ، لكن لا هذا ولا ذاك هو تفسير الغريزة لأن الأمر أكثر من أن يكون مجرد غريزة . فالحيوان لا يستطيع البقاء فى هذه الظروف ، لأن نظام البقاء ليس بسيطاً ، وليس شيئاً سهلا . . بل هو أكثر تعقيداً وعسراً وحاجة إلى إعمال الفكر فى كافة المشكلات التى يواجهها من لم يجابه هذه المشكلة قط . ومع

ذلك فإن لها سبباً هى الأخرى و كل ما فى الأمر أن سبارتاكوس يجهل هذا السبب .

إلا أنه سيبقى .. سيتلاءم ، سيتشكل ، سيتأقلم ، سيتبلد ، سيتعود ، فهو تركيب آلى كثير المرونة قادر على التشكل . وجسده يختزن قوة نتيجة لتحرره من الأصفاد ، فلقد حمل هو وزملاؤه تلك السلاسل طويلا ، حملوها وهم يجتازون البحر ، وحملوها صاعدين فى نهر النيل بطوله ، ثم فى عبر الصحراء ، حملوها أسابيع وأسابيع فى القيود وها هو ذا يتخلص منها أخيراً . . إنه خفيف كالريشة ، لكن هذه القوة التى وجدها يجب ألا تتبدد ، فهو يقبل نصيبه من الماء ـ وهو نصيب أكبر مما شاهد خلال أسابيع . لكن لن يجرعها ثم يبولها فتتبدد ، بل سيحتفظ بها ويرشفها فى ساعات عديدة كى تتغلغل كل قطرة ممكنة منها فى أنسجة جسده . ويتناول طعامه وهو ثريد من القمح والشعير ، مطبوخ بالجراد الجاف ، وفى الجراد الجاف قوة وحياة . والقمح والشعير هما بناء جسده . لقد أكل طعاماً أسوأ من هذا ، ويجب احترام كل أنواع الطعام ، لأن من لا يحترم الطعام ولو بمجرد التفكير ، يصبح عدوا للطعام ولا يلبث أن يموت .

ويخطو إلى ظلمة المأوى فتنهش موجة الرائحة الكريهة فى حواسه . لكن الإنسان لا يموت من الرائحة . والحمق وحدهم

أو الأحرار وحدهم هم القادرون على متعة التفيؤ ، أما هو فلن يبدد أوقية واحدة من محتويات معدته بهذه الطريقة ؛ ولن يقاوم هذه الرائحة ، لأن مثل هذه الأشياء لا تقاوم ، بل سيفعل عكس هذا . على العكس سيحتضن هذه الرائحة ويرحب بها ويسمح لها بالتسلل إلى داخله وعما قليل لن ترهبه ..

ويمشى فى الظلام تقوده قدماه . فقدماه كالعينين له . ويجب أن لا يقع أو يتعثر ، لأنه يحمل الطعام فى يد ، والماء فى اليد الأخرى . ثم يسترشد بالحائط الصخرى ، ويجلس مرتكناً بظهره إليه . وليس المكان بالغ السوء هنا . فالصخر رطب ، ويسند ظهره . ويأكل ويشرب ، وفى كل جانب حوله حركات وتنفس ومضغ يقوم بها بقية الرجال والأطفال وهم يفعلون مايفعل . وتساعده أعضاء جسده الداخلية الخبيرة فتستخرج بخبرتها ماتحتاج إليه من الطعام الضئيل والماء القليل . ويلتقط فتات الطعام الأخيرة من الوعاء ويحسو ما تبقى فيه ثم يلعقه . إنه لا يخضع لقيود الشهية . لأن الطعام هو البقاء ، وكل ذرة صغيرة وكل لطخة طعام فيها البقاء .

لقد فرغوا الآن من الطعام ، وبعض الآكلين أكثر رضى من الآخرين ، وبعض آخر يستسلم لليأس . فاليأس لم يختف كله من هذا المكان . فالأمل قد يضيع لكن اليأس أكثر تشبثاً وعناداً . وتسمع التأوهات والنحيب والتحسر وتتردد صرخة فى مكان ما ، بل إنك

لتسمع حديثا خافتا وصوتا محطما ينادي قائلا :

— سبارتاكوس . أين أنت ؟

فيجيب سبارتاكوس :

— هأنذا أيها التراقى .

فيقول صوت آخر :

— هنا التراقى ، التراقى ، التراقى .

إنهم شعبه وناسه . فيلتفوا حوله ويحس أيديهم وهم يلتصقون به . ولعل العبيد الآخرين ينصتون ، إلا أنهم على أية حال غارقون فى صمتهم نتيجة لوصول القادمين الجدد إلى الجحيم . ولعل من جاءوا إلى هنا من قبل يذكرون الآن أخوف ما يخافون ذكراه ، فالبعض يفهم كلمات اللغة الأتيكية والبعض لا يفهمها. بل قد يكون من بينهم من يحمل ذكرى لجبال تراقيا التى تغطى الثلوج قممها، والبرودة المباركة والجداول تجرى متخللة غابات الصنوبر ، وقطعان المعز السوداء تتقافز بين الصخور . ومن يدرى أية ذكريات تلح على ذاكرة هؤلاء المقضى عليهم بالجرف الأسود؟

وهم ينادونه قائلين :

— يا تراقى .

ثم أحس بهم يحيطونه من كل جانب .وأينما مد يده وجد وجه

واحد منهم وكأنها مغطاة بالدموع . آه .. إن الدموع إسراف وتبديد

ويهمس واحد منهم يسأل :

– أين نحن يا سبارتاكوس ؟ أين نحن ؟

– لم نضع بعد ، فنحن نذكر كيف جئنا .

– ومن يذكرنا ؟

فيكرر عبارته :

– لم نضع بعد .

– لكن من يذكرنا ؟

والمرء لا يستطيع أن يتحدث بهذا الأسلوب . لكنه كالأب بالنسبة لهم . إنه أب لرجال في ضعف عمره : فهو أب لهم على الطريقة القبلية القديمة ، فهم كلهم من تراقيا ، لكنه هو التراقى ، ولهذا ينشد لهم في صوت رقيق كأنه أب يقص على أطفاله قصة :

« مثلما تتكسر المياه المتلاحقة على الشاطىء ؛
في صفوف متلاصقة أمام رياح الغرب ،
متلاحقة في نظام ، صاعدة من أعماق المحيط ؛
ثم تتقوس وهى تتكسر على الأرض ؛
وزبدها الأبيض يتناثر قوياً وبعيداً ؛
كذلك تقدم الدلفانيون في مثل هذا النظام
دون تردد إلى خط المعركة »

فيأسرهم ويضع حداً لتعاستهم . ويفكر قائلا لنفسه : أي
معجزة . وأي سحر في هذا النشيد القديم ؟ إنه يخرجهم من هذه
الظلمة الرهيبة ليقفوا على شواطىء طروادة المتلألئة ، هناك حيث
أبراج المدينة البيضاء والأبطال المتمنطقون بدروع البرنز والذهب .
ويرتفع النشيد الخافت وينخفض فيحل عقد الرعب والقلق في نفوسهم ،
وتحس في الظلام حركة وتجمعا ، وليس من الضروري للعبيد أن
يعرفوا اليونانية ، كما أن لهجة سبارتاكوس التراقية لا تكاد تشبه
اللغة الأتيكية .. ولكنهم يعرفون النشيد حيث تكمن حكمة الشعب
القديمة ، وتحفظ لوقت المحنة ...

أخيراً يرقد سبارتاكوس لينام ، وسينام . فهو رغم شبابه قد
التقى منذ زمن بعيد بالأرق ذلك العدو الرهيب ، وانتصر عليه . وهو
الآن يلم شتات نفسه ويكتشف ذكريات طفولته .. إنه يريد السماء
الزرقاء الصافية الندية ، والشمس المشرقة ، والنسائم الرقيقة . وكلها
هناك . إنه يرقد بين أشجار الصنوبر يرقب قطعان المعز وهي ترعى ؛
وإلى جانبه رجل شيخ ؛ والشيخ يعلمه القراءة . ويخط الشيخ
بعصاه الحروف حرفاً بعد حرف في التراب ويقول له «اقرأ وتعلم يابني
هذا هو السلاح الذي نحمله معنا نحن العبيد . وبغيره نصبح
كالحيوانات في الحقول لأن الإله الذي أعطى النار للبشر هو نفسه
الذي منحهم القدرة على تدوين أفكاره كي يتمكنوا من استرجاع

أفكار الآلهة التي كانت في العصر الذهبي منذ زمن بعيد ، وقت أن كان البشر وثيق الصلة بالآلهة ، يخاطبونهم وقتما شاءوا . ولم يكن في ذلك الوقت عبيد .. وسيعود هذا العصر من جديد .

هذا ما يذكره سبارتاكوس . ولا تلبث ذكرياته أن تستحيل حلماً ثم لا يلبث أن ينام ...

ويوقظه في الصباح قرع الطبل ، والطبل يقرع عند مدخل المأوى الحجرى فتتردد أصداؤه وتتردد بين جدران الكهف الصخرى فينهض ويسمع زملاءه العبيد من حوله ينهضون ، ويتحركون في الظلمة الحالكة نحو المدخل . ويأخذ سبارتاكوس قدحه ووعائه الخشبي معه فلو أنه نسيهما لحرم من الطعام والشراب ذلك اليوم . لكنه عليم بأساليب العبودية وليس بينها - مهما تباينت - من فرق لا يستطيع أن يتبينه ويحس - وهو يتحرك - ضغط الأجساد من حوله ، فيترك نفسه يتحرك معهم إلى الفتحة عند طرف المأوى الصخرى . ويظل الطبل يصدر صوته المدوى طيلة الوقت .

إنها الساعة السابقة على الفجر ، والصحراء في هـــذه الساعة ألطف ما تكون جواً ، وفي هذه الساعة الوحيدة من اليوم تصبح الصحراء صديقاً . فالنسيم الرقيق يبرد وجه الجرف الأسود . والسماء رائعة بزرقتها السوداء المضمحلة ، والنجوم المتلألئة تختفي في رقة . وهذه هي الأشياء النسائية الوحيدة في عالم الرجال هذا الخالي من

البهجة والأمل . وحتى العبيد فى مناجم الذهب ببلاد النوبة التى لا يرجع منها إنسان قط ، يجب أن يحصلوا على فترة من الراحة الصغيرة ، ولهذا يعطونهم ساعة ما قبل الفجر كيما تملأ الحلاوة المرة الحادة قلوبهم وتنعش آمالهم .

ويقف الملاحظون متجمعين ، يأكلون الخبز ويمتصون الماء . أما العبيد فلن ينالوا طعاماً أو ماء قبل أربع ساعات . ذلك أن الملاحظ شيء والعبد شيء آخر . فالملاحظون يلتفون فى عباءات صوفية ويحمل كل منهم سوطا وهراوة ثقيلة وسكينا طويلا . ترى من يكون هؤلاء الرجال الملاحظون ، وما الذى أتى بهم إلى هذا المكان الرهيب فى الصحراء حيث لا توجد النساء ؟

إنهم رجال من الاسكندرية ، قساة غلاظ ، وهم هنا لأن الأجر مرتفع ، ولأنهم يحصلون على نسبة مئوية من كل هذا الذهب الذى تخرجه المناجم . إن أحلام الثراء والفراغ والوعد بأن يصبحوا مواطنين رومانيين إذا خدموا الشركة المساهمة خمس سنوات ، هى التى جاءت بهم إلى هنا ، فهم يعيشون للمستقبل عندما يستأجرون مسكناً فى أحد منازل روما ، وعندما يشترى كل منهم ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً من الإماء يملأن عليه حياته ويقمن على خدمته ، وعندما ينفق كل منهم أيامه فى ساحات القتال والحمامات ، وعندما يشربون كل ليلة حتى الثمالة . وهم يعتقدون أنهم بمجيئهم إلى هذا الجحيم يرفعون من مستوى جنتهم المستقبلة فى الأرض . إلا أن

حقيقة الأمر هى أنهم ، ككل حراس السجون . يرغبون فى السيادة الرخيصة على المحكوم عليهم أكثر من رغبتهم فى العطور أو الخمر أو الإماء .

وهم رجال من نوع غريب ، نتاج من نوع فريد لأحياء الإسكندرية المتواضعة ، واللغة التى يتكلمونها هى خليط من اللغتين الآرامية واليونانية ولقد مضى قرنان ونصف قرن منذ غزا اليونان مصر . وهؤلاء الملاحظون ليسوا مصريين أو يونانيين ! إنهم إسكندريون . ومعنى هذا أنهم متفننون فى عبثهم المختلف الأنواع ساخرون فى نظرتهم إلى الحياة ، لا يؤمنون بالآلهة على الإطلاق، غرائزهم منحرفة سوقية، غارقون فى ملذاتهم،ولا ينامون إلا مخدرين بعصير أوراق القات المخدرة التى تنمو على شاطىء البحر الأحمر .

هؤلاء هم الرجال الذين يرقبهم سبارتاكوس فى الساعة اللطيفة الجو ، السابقة على الفجر ،حين يخرج العبيد من المأوى الصخرى الكبير ليحملوا أصفادهم فوق أكتافهم ويتجهوا إلى الجرف .سيصبح هؤلاء سادته ، يملكون له قوة الحياة وقوة الموت، ولهذا راح يرقبهم ليتعرف إلى أوجه الاختلاف الصغيرة بينهم ،وإلى عاداتهم ولأزماتهم والدلائل التى تبين شخصية كل منهم .ففى المناجم لا يوجد سادة طيبون،وكل ما فى الأمر أنه يوجد من هو أقل قسوة ووحشية من غيره .وأخذ يراقبهم وهم يتفرقون واحداً إثر الآخر ليتولوا القيادة حيث يتجمع العبيد.

والمكان ما زال على ظلمته الحالكة فلا يستطيع تمييز دقائق الوجه والسمات ، لكن عينه خبيرة بمثل هذه الأمور ، ففي مشية الرجل وثقله فيهما تعريف به .

وأصبح الجو باردا والعبيد عراة من كل شيء حتى من خرقة حول حقويهم تستر أجسامهم الهزيلة النحيلة المثيرة للشفقة التي سودتها الشمس ، يرتعدون في وقفتهم ويلتمون أذرعتهم حول أجسادهم . ويأخذ الغضب بسبارتاكوس في بطء ، لأن الغضب ليس مجديا في حياة العبد ، لكنه يقول في نفسه « كل شيء يهون إلا تحمل هذا ، فعندما لا نجد حتى خرقة الثياب التي تستر عوراتنا نصبح كالحيوانات » ثم يراجع نفسه ويقول . « لا - بل أقل من الحيوانات ، لأن الرومان بعد أن استولوا على الأراضي التي كنا نملكها والمزارع التي كنا نفلحها ، تركوا الحيوانات في الحقل وأخذونا نحن لنعمل في المناجم .

ويقف الآن قرع الطبول المحطمة للأعصاب ، ويبدأ الملاحظون يحلون سياطهم ويقرقعونها ليزيلوا صلابة جلد الثور المدبوغ فيمتلىء الهواء بموسيقى القرقعة والطقطقة . ويلوحون بسياطهم في الهواء لأن الوقت لم يحن بعد لضرب الأجساد بالسياط . وتتحرك الجماعات خارجة من تشكيلاتها . لقد ازداد ضوء النهار وأصبح في وسع سبارتاكوس أن يرى - بوضوح - الأطفال المرتعدين الناحلين الذين سيزحفون داخلين إلى باطن الأرض ليخدشوا الحجر الأبيض حيث يكمن

الذهب . ويرى بقية التراقيين ذلك أيضاً لأنهم يتجمعون حول سبارتاكوس ، ويهمس بعضهم قائلا :

ـ أبتاه ... أبتاه ... أى جحيم هذا ؟

فيقول سبارتاكوس .

ـ ستتحسن الأحوال .

وماذا تملك أن تقول غير ذلك عندما يناديك من هم فى سن أبيك قائلين « يا أبتاه » ؟ لهذا يقول ما يجب عليه أن يقول فى مثل هذه الظروف .

لقد توجهت الآن كل الجماعات إلى الجرف ولم يبق إلا جماعة التراقيين المتزاحمة وستة من الملاحظين يقودهم واحد منهم ، وسياطهم المدلاة تخط آثارها على الرمال . ويتقدمون نحو القادمين الجدد ، ويتكلم واحد من الملاحظين فيسأل فى رطانته الغريبة :

ـ من زعيمكم يا تراقيون ؟

فلا يجيب أحد .

ـ إن الوقت لم يحن بعد لاستخدام السوط .

فيقول سبارتاكوس :

ـ إنهم ينادوننى قائلين « يا أبتاه » .

فينظر اليه الملاحظ صاعداً نازلا بعينيه ، ويقيسه بنظره ثم يقول :

ـ لكنك أصغر من أن تنادى بذلك .

— إنها عادة بلادنا .

— لكن عاداتنا هنا تختلف عن ذلك ، يا « أبتاه » . هنا يجلد الأب عندما يأثم الطفل . أتسمعني ؟

— أسمعك .

— أصغوا إلى كلامي إذن يا تراقيون . هذا مكان سيء ، لكنه يمكن أن يصبح أسوأ مما هو . فإذا عشتم فنحن نطلب العمل والطاعة . وإذا متم فنحن لا نطلب شيئاً . إن الحياة في غير هذا المكان أفضل من الموت ، أما هنا فقي وسعنا أن نجعل الموت أفضل من الحياة أتفهموني يا تراقيون ؟

بدأت الشمس ترتفع . وعادت السلاسل تضمهم فيحملون أصفادهم إلى الجرف . ثم تفك القيود . ثم اختفى برد الصباح القصير الأمد . ثم يعطونهم أدوات العمل : المثاقب الحديدية والمطارق والأوتاد الحديدية ، ويدلونهم على خط أبيض في الصخر الأسود عند قاع الجرف . وقد يكون ذلك بداية العرق وقد لا يكون شيئاً على الإطلاق . وعليهم أن يقطعوا الصخر الأسود من حوله وأن يخرجوا الحجر الحاوي للذهب .

وها هي ذي الشمس في السماء . وتبدأ حرارة النهار الرهيبة من جديد ، المثقب والمطرقة والوتد . ويحمل سبارتاكوس مطرقة ويهوي بها . إلا أن ثقل المطرقة يزداد ساعة بعد ساعة ، وهو رغم صلابة عوده لم يقم طيلة حياة الكدح التي عاشها بمثل هذا النوع من

العمل ، فلا تلبث ، كل عضلة فى جسده أن تتوتر وترتعد من فرط توترها . إن من اليسير أن نقول إن المطرقة تزن ثمانية عشر رطلا ، لكننا لا نجد ألفاظاً يصلح لوصف ألوان العذاب التى يعانيها رجل يحمل هذه المطرقة ويهوى بها ساعة بعد ساعة . ويبدأ سبارتاكوس يتصبب عرقاً فى هذا المكان حيث الماء ثمين ، يتفصد العرق من جلده ويجرى نازلا من جبهته إلى عينيه ، فيقرر بكل ما فى إرادته من قوة أن يوقف هذا العرق لأنه يعلم أن العرق فى هذا الجو معناه الهلاك . لكن العرق لا يتوقف ، ويصبح العطش مؤلماً بل حيواناً حشياً رهيباً فى داخل جسده .

وتمضى ساعات أربع هى الأبدية ، ساعات أربع هى اللانهائية . ومن يعرف خيراً من العبد كيف يسيطر على رغبات الجسد؟ ومع ذلك يحس سبارتاكوس أنه يكاد يموت عطشاً . ويشعر كل التراقيين بنفس الشعور ، فيفرغون القرب الجلدية من السائل المبارك بما فيه من طحالب خضراء . ثم يدركون مدى الخطأ الذى ارتكبوه .

تلك هى مناجم الذهب فى بلاد النوبة . وما إن ينتصف النهار حتى تأخذ قوتهم وقدرتهم على العمل فى الضعف فتبدأ السياط فى حثهم عليه ودفعهم إليه . وللسوط سلطان كبير إذا كان من الملاحظ ، فهو قادر على أن يمس أى جزء من الجسم فى رقة وخفة وتهديد وتحذير . وهو قادر على أن يمس حقوق الرجل أو فمه أو ظهره

أو حاجبه، والسوط في يده كالآلة الموسيقية يستطيع أن يعزف بها فوق جسد الإنسان. الآن أصبح العطش أسوأ عشر مرات عما كان عليه من قبل، إلا أن الماء قد نفد ولن ينالوا المزيد منه، حتى ينتهي عمل اليوم، هذا اليوم هو الأبدية.

ومع ذلك فهو ينتهي، لأن كل شيء ينتهي. فهناك وقت للبداية ووقت للنهاية. وتدق الطبول من جديد وينتهي عمل اليوم.

ويلقي سبارتاكوس بالمطرقة ويتطلع إلى يديه الداميتين ويجلس بعض التراقيين، ويتدحرج أحدهم وهو فتى في الثامنة عشرة ويرقد على جنبه وقد شد ساقاه في عذاب شديد، ويذهب سبارتاكوس إليه.

— أبتاه .. أبتاه .. أهذا أنت؟

فيقول سبارتاكوس

— أجل .. أجل

ثم يقبل الفتى بين حاجبيه

— إذن قبل شفتي لأنني أموت يا أبتاه أريد أن أعطيك ما تبقى من روحي.

فيقبله سبارتاكوس، لكنه لا يستطيع البكاء لأن العطش قد جعله مستشيطاً جافاً كالجلد المحروق.

- ٤ -

وبهذا انتهى باتيانوس من قصة ذهاب سبارتاكوس وبقية التراقيين إلى مناجم الذهب فى بلاد النوبة وكيف كدحوا عراة فى الجرف الأسود. وكانت القصة قد استغرقت وقتاً طويلا فى روايتها. وكان المطر قد انقطع ونزل الظلام شاملا حالكا تحت سماء مثقلة، وقد جلس الرجلان، أحدهما مدرب للمجالدين، والآخر جندى نبيل على ثراء، قد يصبح يوماً أغنى رجل فى عالمه، فى المنطقة التى يغمرها ضوء المصباحين المرتجف. كان باتيانوس قد شرب من النبيذ قدراً كبيراً فازداد ترهل عضلات وجهه الرخوة. وكان من النوع الشهوانى الذى يجمع بين السادية وقدرة كبيرة على رثاء النفس وتحقيق الذات الموضوعى. فتلى قصة منجم الذهب فى قوة وروعة جعلت كراسوس يتأثر على الرغم منه.

ولم يكن كراسوس بالجاهل أو البليد الحس. فهو قد قرأ الدورة العظيمة التى كتبها أخيلوس عن بروميثيوس، ورأى جانباً من معناها يتحقق فى سبارتاكوس فى خروجه من حيث كان ليصبح شخصاً تعجز كل قوة تجمعها روما عن الوقوف فى وجه عبيده. وكان يحس برغبة حارة وحاجة ملحة إلى فهم سبارتاكوس، إلى تصور سبارتاكوس أجل، وإلى أن يزحف قليلا إلى داخل سبارتاكوس. رغم ما فى

ذلك من صعاب ، كى يفسر اللغز الخالد لطبقته ، لغز الرجل رهين القيود الذى يمد يده إلى النجوم ، عسى أن يتضح هذا اللغز فى شىء ما ، وراح ينظر إلى باتيانوس شذراً وهو يحدث نفسه بأنه يدين فعلا لهذا الرجل السمين القبيح بقدر كبير .

وقال يسأل متعهد المجالدين

— وكيف فر سبارتاكوس من ذلك المكان ؟

— إنه لم يفر . فلا أحد يفر من ذلك المكان إن فضيلة هذا المكان هى أنه يقضى فى أقصر وقت على رغبة العبد فى العودة إلى عالم البشر ، ولقد اشتريت سبارتاكوس من هناك .

— من هناك ؟ ولم ؟ وكيف عرفت أنه هناك ، أو من يكون أو ماذا يكون ؟

— لم أكن أعرف . لكن هل تظن أن شهرتى فى اختيار المجالدين خرافة ، رواية ؟ — هل تظننى رجلا بديناً عديم الفائدة لايعرف شيئاً عن أى شىء ؟ إن الفن موجود حتى فى حرفتى وأؤكد لك —

فأحنى كراسوس رأسه موافقاً وقال .

— إنى أصدقك ، فحدثنى ، كيف اشتريت سبارتاكوس ؟

فسأله باتيانوس وهو يمسك بزجاجة النبيذ الفارغة قائلا :

ـ هل تحرمون النبيذ على الفرقة ؟ أو يجب أن أضيف رذيلة السكر إلى ماتحتقرونني من أجله ؟ أو هو القول بأن الأحمق يمسك لسانه جيداً ولا يفك عقدته إلا الخمر ؟

فأجابه كراسوس قائلا :

ـ سأحضر لك مزيداً من النبيذ .

وقام واخترق الستار إلى غرفة نومه وعاد بزجاجة ثانية . وباتياتوس يعتبر نفسه جليسه ، لهذا لم يعبأ باتياتوس بآداب الضيافة فأطاح بعنق الزجاجة على ساق المنضدة وظل يصب منها فى قدحه حتى فاض وابتسم وقال :

ـ دماء ونبيذ . لقد كنت أفضل أن أولد فى بيئة غير هذه وأن أقود فرقة عسكرية . لكن من يدرى ؟ قد تكون متعتك أنت فى مشاهدة المجالدين يتقاتلون . أما أنا فقد ضقت ذرعاً بذلك .

ـ وأنا أشاهد من القتال ما فيه الكفاية .

ـ أجل ، بطبيعة الحال إلا أن للمجتلد ورجاله أسلوباً فى القتال لاتجاريه بجزرتك الجماعية . لقد أرسلوك لإنقاذ مصير روما بعد أن حطم سبارتاكوس ثلاثة أرباع قوات روما المسلحة ، وهل تسيطر الآن على إيطاليا ؟ كلا إن الحقيقة أن سبارتاكوس هو الذى يسيطر على إيطاليا . أجل إنك ستهزمه . إذ لا يستطيع

خصم أن يقف فى وجه روما . إلا أن ذلك مؤقت ، لأنه متفوق عليكم . أليس كذلك ؟

فأجابه كراسوس قائلا :

— نعم

— ومن ذا الذى درب سبارتاكوس ؟ أنا . إنه لم يقاتل فى روما أبداً لكن خير القتال لا تجده فى روما . إن روما لاتقدر إلا حانوت القصاب ، أما القتال الحق فتجده فى كابوا وصقلية . أصغ إلى ، إن أى جندى من جنود الفرق لايقوى وهو يحمل خوذة فوق رأسه ودروعاً فوق صدره وكتفاه مغطاتان بكل هذه الدروع كالطفل فى الرحم ، على الطعن بتلك العصا التى يعطونها له ، أما إذا شئت القتال بحق فانزل عارياً إلى المجتلد ولا تحمل شيئاً إلا السيف فى يمينك ، والدماء تغطى الرمال وتنفذ رائحتها إلى أنفك وأنت تدخل إلى المجتلد ، ثم يدوى النفير وتقرع الطبول ، والشمس مشرقة والسيدات يلوحن بمناديلهم المزركشة فتثور غرائزك بينما يتمزق بطنك وتقف هناك تصرخ بينما تبرز أحشاؤك وتتهاوى على الرمال هذا هو القتال ياقائدى - وإذا شئت أن تجيد ذلك النوع منه فإن الرجل العادى لا يصلح له بل أنت فى حاجة إلى سلالة أخرى من الرجال ، وأين تجدها ؟ إنى أرحب بإنفاق المال فى سبيل المال . وعلى هذا أرسل وكلائى ليشتروا لى ما أحتاج . أبعث بهم إلى حيث

يسارع الضعاف إلى الموت وحيث يقتل الجبناء أنفسهم . إنى أبعث بهم مرتين فى كل عام إلى مناجم النوبة . ولقد ذهبت إلى هناك بنفسى ذات مرة - أجل وكان فى تلك المرة الكفاية وإن شئت أن تضمن استمرار المنجم فى العمل ، فعليك أن تستهلك العبيد ، ذلك أن الكثرة الغالبة منهم لا تعيش إلا عامين لا أكثر . ومنهم من لا يتحمل إلا ستة أشهر . لكن الوسيلة الوحيدة المربحة لتشغيل المنجم هى سرعة استهلاك العبيد وشراء المزيد منهم على الدوام . وإذا كان العبيد يعرفون ذلك فهناك على الدوام خطر اليأس الذى يدفع إلى التهور ، وهذا التهور هو أكبر خطر يهدد المناجم . لأنه وباء معد . وعندما تجد رجلا يائساً متهوراً ، رجلا قوياً لا يهاب السوط ويسمع له بقية الرجال فخير ما يمكن عمله هو المبادرة إلى قتله وتعليقه فى ضوء الشمس ليتغذى الذباب بلحمه وليرى كل إنسان نتيجة اليأس والتهور . لكن وسيلة القتل هذه فيها ضياع وتبديد ولا تضيف شيئاً إلى مالك . لهذا اتفق مع الملاحظين على أن يحتفظوا لى بهؤلاء الرجال ويبيعوهم لى بثمن معقول . ويذهب الثمن إلى جيوبهم ولا يخسر أحد شيئاً . وهؤلاء الرجال هم خير المجالدين .

— وهذه هى الطريقة التى اشتريت بها سبارتاكوس ؟

— بالضبط . لقد اشتريت بها سبارتاكوس وتراقيا آخر يدعى جانيكوس

وأنت تعلم كيف ازداد الإقبال فى ذلك الوقت على المجالدين التراقيين لبراعتهم فى اســـتعمال الخنجر . فالإقبال على الخنجر هذا العام وعلى السيف فى العام التالى وعلى المدراة فى العام الذى يليه . والحقيقة أن كثيراً من التراقيين لم يمسوا الخنجر طيلة حياتهم ، لكنها خرافة . والسيدات ، يرفضن مشاهدة الخنجر فى أيد غير أيديهم .

— وهل اشتريته بنفسك ؟

— عن طريق وكلائى . وقد شحنوا الاثنين فى أصفادهما على سفينة من الأسكندرية . ولى وكيل فى ميناء نابولى بعث لى بهما على محفتين من هناك .

فاعترف كراسوس قائلا :

— ليست مهنتك باليسيرة :

وكراسوس يقظ على الدوام لكل مكان يستطيع أن يستغل فيه قدراً يسيراً من المال استغلالا مربحاً . وأومأ باتياتوس برأسه وقال .

— إذن فأنت تقدر ذلك ؟

وانساب النبيذ من جانبي فمه وهو يبسط طيات اللحم الضخمة المحيطة ، بذقنه وتابع حديثه قائلا :

— وقل من الناس من يقدر ذلك . أى قدر من المال تعتقد

إلى استغله فى معبدى فى كابوا؟

فهز كراسوس رأسه وقال :

— لم يخطر ذلك ببالى قط . فالمرء يشاهد المقاتلين ولا يقف للتفكير فى رأس المال المستغل لإدخالهم إلى الجتالد . لكن هذه مسألة عامة . فالمرء عندما يشاهد فرقة عسكرية يقول لقد وجدت الفرق العسكرية دائماً ، ولذلك فستوجد الفرق على الدوام .

وكان هذا القول ملقاً رائعاً ، فوضع باتياتوس قدحه وحدق إلى القائد ثم دلك داخل أنفه الضخم بأصبعه صعوداً ونزولا وقال

— خمن .

— مليون ؟

فقال باتياتوس فى بطء وتأكيد

— خمسة ملايين ديناراً . خمسة ملايين ديناراً . تصور هذا . فأنا أتعامل مع وكلاء فى خمسة أقطار . ولى وكيل دائم فى ميناء نابولى ولا أطعم من لى من المجتلدين إلا أفخر الأطعمة ، القمح الكامل والشعير ولحم البقر وجبن العنزة ، ولى مجتلدى الخاص لإقامة عرض صغير أو قتال بين اثنين ، أما مسرحى الكبير ففيه مدرجات حجرية وقد كلفنى مليوناً كاملا ، كما آوى وأطعم فصيلة كاملة من جنود الحرس المحلى . ودع عنك الرشاوى التى أدفعها فى نفس الاتجاه — وأرجو معذرتك — فليس كل العسكريين من أمثالك . وإذا

أردت . وإذا أردت أن تأخذ مقاتليك إلى روما ليتقاتلوا فيها فإن هذا يقتضيك خمسين ألف دينار كل عام للمحاكم وحكام المناطق دع عنك ذكر النساء .

فسأله كراسوس قائلا :

ـ النساء ؟

ـ ليس المقاتل المجالد حرا في ضيعة . فإذا أردته أن يكون كما تشتهي فعليك أن تزوده بمن يضاجعها . فتزداد شهيته للطعام ويحسن القتال ، ولي بيت يضم نسائي ، ولا أبتاع منهن إلا خيرهن فليس فيهن امرأة قذرة أو عجوز ذاوية ، ويجب أن تكون كل واحدة منهن عندما أتسلمها قوية صحيحة عذراء . وأنا أعرف ذلك

وأفرغ قدحه في جوفه ولعق شفتيه وبدا عليه الحزن والوحدة وقال شاكيا وهو يصب النبيذ في طه :

. إني في حاجة إلى النساء ، قد لا يرغب فيهن بعض الرجال ، لكنني أرغب فيهن .

ـ وتلك المرأة التي يقولون إنها زوجة سبارتاكوس ؟

فقال باتياتوس

فارينيا ؟

وانقلبت سحنته وأطل من عينيه عالم من الكراهية والغضب والرغبة وعاد يقول :

— فاربنيا ؟ .

— حدثنى عنها .

ووشى الصمت الذى ران على كراسوس بأكثر مما تلاه من كلمات .

— كانت فى التاسعة عشرة عندما اشتريتها . كانت ألمانية من بنات الهوى . لكنها جميلة يجب أن تتطلع إليها إذا كنت ممن يعشقون الشعر الأصفر والأعين الزرقاء. إنها حيوان صغير قذر. وكان من الواجب أن أقتلها . كان الله فى عونى. لكننى أعطيتها السبارتاكوس بدلا من ذلك . وكان ذلك دعابة منى فقد كان هو راغباً عن النساء وكانت هى راغبة عن الرجال . لقد كان الأمر مجرد دعابة .

— حدثنى عنها .

فزمجر باتياتوس قائلا :

— لقد حدثتك عنها .

ووقف وتعثر خارجا من بين طيات الخيمة وسمعه كراسوس يتبول فى خارجها. وكان من فضائل القائد أنه يسعى إلى تحقيق أهدافه بنفسه ولا يشرك معه إنسانا فى التفكير. فلم يزعجه تعثر باتياتوس وهو يعود إلى المنضدة ، ولم يكن بين أهدافه أو حاجاته أن يحيل متعهد المجالدين إلى سيد مهذب .

وقال فى إصرار

— حدثنى عنها .

فهز باتياتوس رأسه فى تؤدة وسأله فى وقار مبالغ فيه

— أيضايقك أن أفرط فى الشراب ؟

فأجابه كراسوس قائلا

— لا أشعر بشىء مافى هذه الناحية ولك أن تشرب ما تشاء ، لكنك كنت تحدثنى كيف وصل إليك سبارتاكوس وجانيكوس عن طريق البر فى محفتين ، وأظنهما كانا مصفدين ؟

فأومأ باتياتوس رأسه موافقاً .

وإذاً فأنت لم تره قبل ذلك ؟

— لا . قد لاتعير أهمية لما رأيته أنا . لكننى أحكم على الرجال بغير ما تحكم به أنت عليهم . كان الرجلان ملتحيين ، قذرين ، تغطيهما القروح وقد خطط السوط جسديهما من الرأس حتى القدم وكانت الرائحة المنبعثة منهما كريهة إلى حد يقلب معدتك إذا اقتربت منهما . وكان برازهما الجاف يغطى جسديهما . وكانا ضامرين نحيلين إلى أقصى ما يكون عليه النحول ، وكانت عيونهما وحدها هى التى تنطق باليأس والتهور . وما كنت لترضى بأخذهما لتنظيف المرحاض فى بيتك . لكننى نظرت إليهما وشاهدت شيئاً . فهذا فن ، ثم أدخلتهما الحمام ، وقصصنا شعرهما ، وحلقنا لحيتيهما ، ودلكناهما بالزيوت وأحسنا تغذيتهما .

— هلا حدثتنى الآن عن فارينيا ؟

— عليك اللعنة .

ومد متعهد المجالدين يده إلى قنينة النبيذ . لكنه قلبها بسبب قلة عنايته . ومال على المنضدة يحدق فى اللطخة الحمراء. أما ما رآه فيها فلا يستطيع إنسان أن يخمنه ، فلعله شاهد الماضى ، ولعله شاهد شيئاً من المستقبل كذلك ففن التكهن بالغيب ليس كله خداعاً ، وللرجال وحدهم . دون الحيوان ، قدرة الحكم على نتائج أعمالهم . فهذا الرجل الذى مرن سبارتاكوس على القتال تسلل إلى مستقبل لا نهاية له — كما يفعل كل الرجال — لكن آجالا مجهولة ما زالت فى طى الغيب ستظل تذكرة وجلس مدرب الرجال الذى درب سبارتاكوس على القتال فى مواجهة قائد الرجال الذى سيحطم سبارتاكوس . لكنهما كانا يشتركان غبيا فى فهم غامض مضطرب هو أنه لن يستطيع إنسان أن يحطم سبارتاكوس . وإذ كانا قد تقاسما بصيصاً ضئيلا من هذا الغيب ، فقد كان ذلك كافيا لأن تحل عليهما هما الاثنين اللعنة .

— ٥ —

(قال كراسوس القـــائد . . هذا هو صديقك البدين لنتولوس بتياتوس . إلا أن كايوس كراسوس ، الفتى الراقد

بجواره ، كان قد غفا وأغلق عينيه — ولم يسمع من القصة إلا أجزاء متناثرة . ولم يكن كراسوس بالراويه للقصص، فالقصة فى ذهنه : وفى ذاكرته ، وفى مخاوفه وآماله . لقد انتهت حرب العبيد وانتهى سبارتاكوس .. وبدت سالاريا الريفى برمز اليوم للسلام والازدهار .

(وما كان كاسيوس كراسوس قد استغرق فى النوم بعد ، بل كان يسرح بخاطره إلى الصلبان التى تقوم على جانبي الطريق من روما إلى كابوا . ولم يزعجه أنه يقاسم القائد الكبير الفراش . فما كان جيله يشعر بعد بالحاجة إلى تخفيف وطأة الجريمة بالالتجاء إلى تبرير الانحراف الجنسى . بل كان ذلك أمراً عادياً بالنسبة له، كما كان عذاب الآلاف الستة من العبيد المعلقين على الصلبان على جانبي الطريق أمراً عادياً بالنسبة له أيضاً . بل لقد كان أكثر سعادة به من القائد الكبير كراسوس . فقد كان القائد الكبير كراسوس رجلا تكتنفه الشياطين ، أما كراسوس الشاب النبيل المحتد — الذى يتصل بالقرابة عن بعد بأسرة كراسوس التى تعد من أكبر أسر روما فى ذلك الوقت — فلم يكن يعرف الشياطين ،

(صحيح أن سبارتاكوس الميت يفزعه ، وأنه هو يكره العبد الميت ، إلا أنه عندما فتح عينيه وتطلع إلى وجه كراسوس القابع فى الظلال حار فى تفسير كراهيته له .

(وقال كراسوس . . لست نائماً قط . وهذه هى القصة على علاتها — إذا كنت قد سمعت منها شيئاً — ولماذا تكره سبارتاكوس الذى مات وانقضى إلى الأبد ؟

(لكن كايوس كراسوس كان تائها بين ذكرياته ، فقد كان ذلك منذ سنوات أربع خلت ، وكان صديقه حينذاك هو براكوس . وارتحل مع براكوس على طول الطريق الأبيوسى إلى كابوا ، وكان براكوس يريد أن يرضيه . أن يرضيه فى شهامة وثراء وإسراف فماذا تجد خيراً من الجلوس إلى جانب رجل ترغب فيه وسط الحشيات فى المجتلد لتشاهد رجالا يتقاتلون حتى الموت ؟ فى ذلك الوقت ، منذ سنوات أربع . أربع سنوات قبل هذه الليلة الغريبة فى بيت سالاريا كان قد شارك براكوس محفته وتملقه براكوس ووعده بأن يريه ألوان القتال الموجود فى كابوا — على ألا يكون الثمن حائلا بينه وبين ذلك له . وستراق الدماء فوق الرمال وسيشربان النبيذ وهما يرقبانها .

(وذهب بعد ذلك مع براكوس لمقابلة لنتولوس باتياتوس صاحب أحسن معهد ومدرب خير المجالدين فى طول إيطاليا وعرضها .

(وتذكر كايوس أن ذلك كله حدث منذ سنوات أربع — قبل أن تنشب حرب العبيد ، وقبل أن يسمع إنسان باسم سبارتاكوس أما الآن فقد مات براكوس ومات سبارتاكوس كذلك وهذا هو كايوس ينام فى فراش واحد مع أكبر القادة العسكريين فى روما .)

الجزء الثالث

ويتضمن قصة الرحلة الأولى إلى كابوا التى قام بها ماريوس جراكوس وكايوس جراسوس قبل الليلة التى أمضياها فى بيت سالاريا الريفى بحوالى أربع سنوات ؛ وقصة قتال اثنين من المجالدين .

حدث ذات يوم من أيام الربيع المشرقة أن كان لنتولوس باتيانوس ، متعهد المجالدين يجلس فى مكتبه يتجشأ بين الفينة والفينة وقد استحال إفطاره الضخم إلى كتلة مريحة فى معدته ، إذ دخل إلى الحجرة كاتب حساباته اليونانى ليخبره أن شابين رومانيين ينتظران فى الخارج ، وأنهما يريدان التحدث إليه بشأن تنظيم قتال بين اثنين من المجالدين .

وكان المكتب وكاتب الحسابات - وهو عبد متعلم من أيونيا دليلين على ثراء أحوال باتيانوس وازدهارها فقد آتى تمرسه بشئون سياسة الأروقة ، وقتال الشوارع المنظم وتعلقه الحكيم بالأسر الكبيرة الواحدة تلو الأخرى ، ومقدرته التنظيمية التى ساعدته على تأليف إحدى كبريات عصابات الشوارع وأكثرها كفاية فى المدينة وآتى كل ذلك أكله - وأثبت استغلاله لأرباحه التى ادخرها بعناية ، فى معهد المجالدين الصغير فى كابوا ، إنه كان استغلالا حكيما . وكان يحلو له أن يقول دائما إنه يمتطى موجة المستقبل . وأن رجل العصابات يستطيع الوصول إلى حد ما ثم لا يتخطاه ، وأنه لا يوجد رجل العصابات الذى له من الحكمة ما يمكنه من اختيار الجانب الراجح على الدوام فقد اختفت عصابات أقوى من عصابته من مسرح السياسة الرومانية نتيجة انتصار غير متوقع لأحد الخصوم والغضبة المضرية لقنصل جديد

أما قتال الاثنين - كما كان العامة يسمى عادة - فهو ميدان جديد للاستثمار والربح. فقد كان عملا مشروعا ومعترفاً به، وكل من قرأ تاريخ ذلك الوقت بعناية يدرك أن قتال الاثنين كان لا يزال فى طفولته وأن التسلية العارضة سرعان ما تصبح جنونا دافقا يصيب النظام الاجتماعى بأسره: فبدأ رجال السياسة يدركون أنه إذا عجز المرء عن اكتساب المجد فى حرب ناجحة على أرض أجنبية ففى استطاعته أن يحققه بخلق صورة مصغرة له فى بلده وعلى هذا أخذ قتال المئات من أزواج المقاتلين الذى قد يدوم أياما وأسابيع ينتشر، وأصبح من العسير تلبية الطلبات على المجالدين المدربين واخذت أسعارهم فى الارتفاع يوماً بعد يوم وانشئت الساحات الحجرية فى المدينة تلو الأخرى ولما أنشئت فى النهاية ساحة من أجمل الساحات وأكثرها روعة فى طول إيطاليا وعرضها بمدينة كابوا قرر انتولوس باتياتوس أن يشد الرحال إلى هناك ويقيم معهدا للمجالدين

وبدأ اعماله فى نطاق ضيق بسيط فى كوخ صغير وحظيرة بسيطة للقتال يدرب فيها زوجا من المقاتلين دفعة واحدة إلا أن أعماله اتسعت ونمت نمواً سريعاً حتى أصبح اليوم بعد خمس سنوات يملك مؤسسة ضخمة يدرب ويحتفظ فيها بأكثر من مائة زوج من المجالدين وأصبح له مبناه الحجرى الخاص الذى

يقيم فيه المجالدون وملعبه الرياضى ، وبيت الحمامات الخاص به وفناء التدريب الخاص ، وساحته التى خصصها لإقامة أى عرض خاص ـ وهى لاتشبه الملاعب العامة فى فخامتها ولكنها مع ذلك تتسع لجلوس جماعات يتراوح عددها بين الخمسين أو الستين وتتسع لقتال ثلاثة أزواج من المجالدين فى وقت واحد. وأقام بالإضافة إلى هـــذا علاقات محلية كافية مع الهيئات العسكرية ـ بدفع الرشاوى المناسبة ـ ليحصل على قوة كافية من القوات النظامية فى كل وقت. فوفر بذلك على نفسه نفقات إنشاء قوة الشرطة الخاصة به. وكان مطبخه يطعم جيشا صغيرا لأن أهل بيته كانوا يزيدون على أربعمائة شخص ويضمون إلى المجالدين نسائهم والمدربين ، والعبيد من خدم المنزل وعبيد المحفات ولا عجب إذن إذا كان يشعر بالرضى عن نفسه .

وكان المكتب الذى يجلس فيه ذلك الصباح المشمس من الربيع أحدث مقتنياته وكان فى بداية حياته العملية يصر عـــلى رفض تعليق الستائر على النوافذ . فهو ليس من أبناء الأسر الشريفة ولم يتظاهر يوماً بأنه يرغب فى أن يصبح كذلك إلا أنه وجـــد مع تضخم أرباحه، أنه ينبغى له أن يحيا حياة تتلاءم مع ثرائه . فبدأ يشترى العبيد من اليونان وتضمنت مشترياته مهندساً معمارياً وكاتباً للحسابات. نصحه المهندس بأن يقيم لنفسه مكتباً على الطراز اليونانى

مستوى السقف يقوم على أعمدة وثلاثة جدران فتطل على أن يفتح الجانب الرابع على أجمل ما يمكن أن يطل عليه من مكانه . فإذا ما أزيحت الستائر جانباً ، فتح جانب كامل من الغرفة للهواء الطلق وضوء الشمس . وكانت الأرض الرخامية والمنضدة البيضاء الجميلة التي يدير أعماله فوقها من خير ذوق وطراز . أما الجانب المفتوح فوراء ظهره وكان هو جالس في مواجهة الباب. وكان له فضلا عن ذلك غرفتين إحداهما للمكتبه والأخرى لانتظار الزائرين ، وكان ذلك وثبة بعيدة المدى حقاً لمنظم قتال العصابات في أزمة روما .

وقال كاتب الحسابات

— اثنان من الخلعاء . . عطور ومساحيق وخواتم وملابس ثمينة . . مال كثير لكنهما من الخلعاء سيتعبانك . أحدهما صبي أمرد في الحادية والعشرين تقريباً فيما أظن والآخر يحاول إرضاءه

فقال باتيانوس :

— ليدخلا

ودخل الشابان بعد لحظة . ونهض باتيانوس في أدب مفرط وأشار إلى مقعدين أمام المنضدة .

وبعد أن جلس الإثنان فحصهما باتيانوس فحصاً سريعاً وبعين الرجل الخبير وكانت تلوح عليهما من دلائل الثراء ما كفاهما الحاجة إلى إظهار غناهما. وكانا في مقتبل العمر ، ومن أسرة طيبة ولكنهما

لم يكونا من النبلاء الظاهرين — لأن ما كان عليه من ثراء كان واضحا إلى درجة لا يتسامح فيها أى من متزمتى النبلاء فى المدينة. فقد كان الشاب الأصغر، كايوس كراسوس، جميلا كالفتاة، بينما كان براكوس يكبره بعض الشيء، وكان أكثر منه صلابة وواضح السيطرة عليه. له عينان زرقاوان باردتان، وشعر فى لون الرمال، وشفتان رفيعتان، ومظهر ساخر فيه قحة.

وتولى هو الحديث بينما اكتفى كايوس بالسمع وإلقاء نظرة بين الفينة والفينة على صديقته فى احترام وإعجاب. وراح براكوس يتحدث عن المجالدين فى ألفة ويسر المفتون بالألعاب.

وقال الرجل البدين

— أنا لنتولوس باتياتوس. متعهد المجالدين.

وتعمد أن يضيف إلى اسمه الصفة التى تبعث على الاحتقار لعلمه أنها ستكلفهما خمسة آلاف دينار على الأقل قبل أن ينقضى النهار، فقدم براكوس نفسه وصديقه له ثم طرق الموضوع مباشرة.

— نريد ان نشاهد عرضا خاصاً لاثنين من المجالدين

— لكما وحدكما؟

— لنا نحن ولصديقتين لنا.

فأومأ متعهد المجالدين برأسه فى تفكير ومد يديه السمينتين أمامه كى يظهر ماستيه والزمردة والياقوتة ثم قال:

يمكن أن ننظم هذا العرض

فقال : براكوس فى هدوء

— قتال حتى الموت .

ماذا ؟

— لقد سمعتنى أريد زوجين ، من مقاتلى تراقيا يقتتلان حتى الموت.

فسأل باتيانوس قائلا :

— ولماذا ؟ لماذا ؟ أفى كل مرة تجيئون معشر الشباب من روما تريدونه قتالا حتى الموت ؟ إن فى وسعكما أن تشاهدا نفس القدر من الدم المسفوك ، ونفس البراعة فى القتال — لا ، بل خيراً من ذلك — حتى تكتفيا ، فلم إذن تريدونه قتالا حتى الموت ؟

— لأننا نفضله .

وقال باتيانوس وهو يشير بيديه طلباً للهدوء والتفكير والنظر العلمى بين الرجال ممن يفهمون القتال ،

— ليست هذه إجابة . أصغ إلى . . أصغ إلى . أنت تطلب مقاتلين تراقيين وعندى خير قتال تراقى فى العالم بأسره . لكنك لن تشاهد قتالا جيداً أو خير استعمال للخنجر إذا أردته قتالا حتى الموت . وأنت تعرف هذا كما أعرفه أنا ، وهذا منطق ومعقول فأنت تدفع نقودك — ثم . . لا شىء . . انتهى كل شىء وفى وسعى أن أقدم لكما يوماً من القتال فى نواح لم تشاهدا لها

مثيلا فى روما . والحق أنكما تستطيعان الذهاب إلى المسرح لمشاهدة ما يفوق أى شيء آخر فى روما ، لكن مادمتما قد جئتما إلى للحصول على المتعة الخاصة ، فعلى أن أحافظ على شهرتى . وأنا لم أشتهر بأنى قصاب ، إنما أريد أن أقدم لكما قتالا جيداً . خير قتال يستطيع المال أن يشتريه

فابتسم براكوس وقال

— نريد قتالا جيداً ، ونريده حتى الموت .

— هذا قول متناقض .

فقال براكوس فى رقة

— متناقض حسب طريقتك فى التفكير . فأنت تريد أن تحتفظ بأموالى وبمقاتليك . أما أنا فعندما أدفع ثمن شيء ، فأنا أشتريه وأنا الآن أشترى زوجين ليتقاتلا حتى الموت . فإذا رفضت أن تبيعنى إياهما قصدت مكانا آخر .

— وهل قلت إنى أرفض خدمتكما ؟ وكل ما فى الأمر أنى أريد خدمتكما خيرا مما تظنان . أستطيع أن أقدم لكما زوجين من المقاتلين فى جولات من الصباح حتى الليل .. مدة ثمان ساعات من القتال فى اليوم فى الساحة إذا شئتما . واستبدل بأى مقاتل يصاب بجراح بالغة مقاتلا آخر . سأقدم لكما كل الدماء والمتعة التى ترغبان فيها أنتما وسيداتكما . ولن أتقاضى منكما أكثر من ثمانية

آلاف دينار لقاء كل ذلك . على أن يشمل هذا الطعام والخمور وأى خدمات قد تطلبونها .

فقال براكوس فى برود .

— أنت تعرف ماتريد . أنا لا أحب المجادلة .

— سيكلفك ذلك خمسة وعشرين ألف دينار

فبهت كايوس ، بل ذعر لضخامة المبلغ ، إلا أن براكوس هز كتفيه فى عدم مبالاة وقال

— موافق على أن يتقاتلوا وهم عراة .

— عراة ؟

— لقد سمعت ما أقول يا متعهد المجالدين ؟

— موافق .

— ولا أريد غشاً أو خداعاً .. لا أريد أن يجرح كل منهما الآخر ويتظاهرا بأنهما انتهيا . فإذا سقط الاثنان فيقوم واحد من مدربيك بقطع رقبتهما . ويجب أن يفهما ذلك .

فأومأ باتياتوس برأسه موافقاً ،

— سأعطيك عشرة آلاف تحت الحساب والباقى بعد أن يفرغ الاثنين المتقاتلان كلاهما

— موافق . وأرجو أن تدفع المبلغ لكاتب حساباتى ،

وسيعطيك به إيصالا ويحرر المقود . فهل ترغبان فى مشاهدة المقاتلين قبل رحيلكما ؟

— وهل نستطيع أن نحجز الساحة صباحا ؟

— فى الصباح — أجل . لكن يجب أن أحذرك من أن هذا اللون من القتال قد ينتهى انتهاء سريعاً جداً.

— أرجوك ألا تحذرنى يامتعهد المقاتلين .

واستدار لكايوس وسأله

— أترغب فى مشاهدتهم يابنى ؟

فابتسم كايوس فى استحياء وهز رأسه موافقاً . وخرجا . وبعد أن دفع براكوس المبلغ ، ووقع العقد ، صعدا إلى محفتيهما وحملهما العبيد إلى فناء التدريب . ولم يستطع كايوس أن ينتزع بصره من براكوس . فقد كان يفكر فى أنه لم ير من قبل رجلا يتصرف بهذا الأسلوب الذى يبعث على الإعجاب . لم يكن الأمر مجرد إنفاق خمسة وعشرين ألف دينار — فقد كان كل من يعرف كايوس يعتبر دخله البالغ ألف دينار فى الشهر دخلا سخياً — بل إن موضع الإعجاب هو طريقته فى الإنفاق وطريقته العارضة فى التعامل بالحياة الإنسانية . فهى لون من ألوان الاحتقار الساخر لكل ما يتطلع إليه كايوس وما يمثل له أعلى مراحـــل التمدين . وكايوس لن يجد الشجاعة ولو بعد ألف عام على أن يطلب قتال

المجالدين وهم عراة . إلا أن هذا كان أحد الأسباب التى من أجلها رغبا فى مشاهدة العرض لمتعتهما الخاصة فى كابوا بدلا من الذهاب إلى المجتلد فى روما .

وأنزل العبيد محفيتهما عند فناء التدريب . وكان هذا الفناء منطقة مسورة بأسوار من الحديد يبلغ طولها مائة وخمسين قدما وعرضها أربعين ، وتمتد الأسوار حول ثلاثة أضـــلاع منها ، أما الضلع الرابع ففيه المبنى الحجرى الذى يقيم فيه المجالدون وأدرك كايوس أنه أمام فن أعلى وأخطر من تدريب الوحوش والاحتفاظ بها . لأن المجالد ليس حيوانا خطراً فحسب ، بل هو حيوان مفكر كذلك . وطافت به رعدة لذيذة من الخوف والاهتياج وهو يرقب الرجال فى فناء التدريب وكان عددهم يقارب المائة يرتدون خرقاً حول أوساطهم ولاشىء عدا ذلك ، حليقين ، قصيرى الشعر ، يقومون بتمارينهم بالعصى الخشبية والهراوات ويسير بينهم حوالى ستة من المدربين هم ، ككل المدربين ، من محاربى الجيش القدامى . وكان المدرب يحمل فى إحدى يديه سيفاً أسبانياً قصيراً ودرعاً نحاسياً قصيراً فى اليد الأخرى ، ويسير فى حذر ويقظة وعيناه قلقتان متيقظتان . وتناثرت حول الفناء فصيلة كاملة من قوات الجيش النظامية ، تفرض بهراواتها الثقيلة القاتلة نظاما لا يعرف الخلل . وقال كايوس لنفسه .. لا عجب

إذن إذا كان المال الذي يدفع ثمناً لموت بعض هؤلاء الرجال عاليا .

أما المجالدون أنفسهم ، فعضلاتهم رائعة ، وحركاتهم فيها رشاقة النمور . وكانوا ينقسمون بوجه عام إلى فئات ثلاث ، هي الفئات الثلاث للمقاتلين المشهورة في إيطاليا حينذاك . الفئة الأولى هي التراقيون — وهم جماعة أو أبناء مهنة واحدة أكثر منهم أبناء جنس من الأجناس ، لأن فيهم كثيراً من اليهود واليونان — وكانوا مطلوبين أكثر من غيرهم في ذلك الوقت . وهم يحاربون بخنجر قصير معقوف بعض الشيء ، هو السلاح المستعمل في تراقيا وهذا مصدر غالبيتهم . أما الرتيارى فهم الفئة الثانية وكان عهد شهرتهم قد بدأ لتوه ، ويحاربون بسلاحين غريبين . . شبكة صيد السمك، ومذراة طويلة مثلثة الفروع . وكان باتياتوس يفضل لهذا اللون من القتال أبناء أفريقيا الطوال القامة ، الطوال الأطراف، السود الوجوه ، القادمين من بلاد الحبشة . وكانت هذه الفئة تقاتل دائماً فئة المرميلون ، وهي فئة من المجالدين لا تميزهم صفة خاصة ، يقاتلون بالسيف وحده ، أو بالسيف والدرع . وكانت غالبية المرميلون عادة من ألمانيا أو بلاد الغال .

وقال براكوس وهو يشير إلى الرجال السود .

— انظر إليهم . هذا هو خير ألوان القتال وأكثرها براعة،

إلا أنه قد يصبح مملا . وكيما تشاهد القتال فى أحسن مظاهره يجب أن تشاهد التراقيين .

وسأل باتياتوس قائلا

— ألا توافقنى ؟

فهز متعهد المجالدين كتفيه وقال

— لكل مميزاته .

— أريد الجمع بين تراقى ومقاتل أسود .

فنظر إليه باتياتوس لحظة ثم هز رأسه وقال

— لا يمكن الجمع بينهما . فالتراقى لا يحمل إلا خنجراً .

فقال براكوس

— أريد ذلك

فهز باتياتوس كتفيه . والتقت عيناه بعينى أحد المدربين ، فأشار له برأسه أن يأتى . وراح كايوس ، مفتونا ، يراقب صفوف المقاتلين وهم يقومون بتمريناتهم الدقيقة الشبيهة بالرقص . يرقب اليهود والتراقيين يتمرنون على قتال الخناجر بعصى قصيرة وهراوات خشبية صغيرة ، والرجال السود يقذفون بالشباك وبالرماح الخشبية الطويلة الشبيهة بأيدى المكانس ، والألمان الضخام الشقر يبارزون الغاليين بالسيوف الخشبية . ولم ير هو فى حياته من قبل رجالا يعملون بمثل هذا النظام أو خفة الحركة أو الرشاقة ،

لا يعرفون التعب ، وهم يؤدون تمريناتهم ويعيدونها مرات ومرات . وأثاروا وهم في مكانهم تحت ضوء الشمس ، وراء القضبان الحديدية ، شعوراً بالرثاء حتى في كايوس — حتى في ضميره الفقير المعقد المعوج التالف — لأن مثل حياتهم الرائعة المليئة بالحيوية لا تستخدم إلا في التقتيل . لكن هذا الشعور لم يدم إلا لحظة : لأنه لم يمر في حياته قط من قبل بمثل هذا الهياج الشعوري الحاد من جراء تجربة مقبلة . ذلك بأن الملل قد تسرب إلى حياته وهو بعد طفل ، لكنه لم يعد يعرف الملل الآن .

وراح المدرب يشرح لهما قائلا

— ليس للخنجر إلا حد واحد مسنون ، فإذا ماوقع الخنجر في الشباك انتهى التراقى . وهذا يثير الشغب في المعهد لأن القتال متكافئا .

فقال باتياتوس في اقتضاب .

— أحضرهما .

— لماذا لا نجرب ألمانيا ؟

فقال براكوس في برود .

— إنما أدفع الأجر لأحصل على التراقيين ، فلا تجادل معى .

وقال متعهد الجالدين

ــ لقد سمعت ما قال .

وكان المدرب يعلق صفارة فضية صغيرة فى خيط حول عنقه ، فنفخ فيها بشدة ثلاث مرات فوقف الجالدون عن تدريبهم وسأل المدرب باتياتوس

ــ أيهم تريد ؟

ــ درابا

فصاح المدرب ينادى

ــ درابا .

فاستدار واحد من السود ومشى نحوهم يجر شبكته وعصاه . وكان عملاقا يلمع جسده الأسود من العرق المتفصد منه .

ــ داود

فصاح المدرب ينادى

ــ داود

وكان هذا يهوديا نحيلا شبيها بالصقر ، شفتاه رقيقتان حادتان ، وعيناه خضراوان ، حليق الوجه،لوحت الشمس وجهه. وكان يدير خنجره الخشبي المقوس بين أصابعه وهو يحدق إلى ماوراء الضيفين دون أن يراهما .

وقال براكوس لكايوس .

— إنه يهودى وهل رأيت يهودياً من قبل ؟

فهز كايوس رأسه .

— سيكون ذلك مثيراً . فاليهود بارعون فى استعمال الخنجر المقوس . وهذا كل ما يعرفونه من فنون القتال ، لكنهم بارعون فيه

— بوليموس .

وصاح المدرب .

بوليموس .

وكان هذا تراقيا صغير السن رشيقاً جميلا .

— سبارتاكوس .

فانضم هذا إلى الثلاثة الآخرين ووقف الرجال الأربعة يفصلهم عن الشابين الرومانيين ومتعهد المجالدين والعبيد حملة المحفات ، السور الحديدى الضخم المحيط بفناء التدريب . وأدرك كايوس وهو يتطلع إليهم أنهم شىء جديد ، شىء غريب وغير مألوف ورهيب على حد قوله ، ولم يكن الأمر مقصوراً على الرجولة الغاضبة الشاردة المتمثلة فيهم ـ وهى رجولة شبه معدومة فى محيط معارفه ـ بل يضاف إليها جهل كايوس بهم فهم رجال دربوا على القتال والقتل لا كما يحارب الجنود ، ولا كما يتقاتل الحيوان ، إنما كما يتقاتل المجالدون

وهو قتال يختلف عن غيره كل الاختلاف كأنه ينظر إلى أربعة أقدمة مخيفة .

وسأله بانياتوس .

— ما رأيك فيهم ؟

ولم يكن كايوس فى حال تسمح له بالإجابة أو الكلام على الإطلاق إلا أن براكوس قال فى برود .

— كلهم على مايرام ، عدا ذلك ذى الأنف المجدوع فإنه لا يبدو عليه مظهر المجالدين .

فذكره بانياتوس قائلا .

— قد تكون المظاهر خداعة . فهذا سبارتاكوس وهو بارع قوى جداً ، وسريع جداً . ولقد اخترته لغرض فهو سريع جداً

— ومن اخترت لمنازلته ؟

فأجاب بانياتوس قائلا .

— الرجل الأسود .

فقال براكوس .

— فليكن . أرجو أن يكون القتال مساوياً للثمن .

وكان هذا الزمان والمكان هما اللذين شاهد فيهما كايوس سبارتاكوس رغم أنه ، بعد مرور أربع سنوات ، كان قد نسى

أسماء المجالدين ولم يعد يذكر إلا حرارة الشمس وشكل المكان ورائحته ورائحة أجساد الرجال المتصببة عرقاً .

— ٢ —

هذه فارينيا ترقد مستيقظة فى الظلام ، لم تذق طعم النوم . فى تلك الليلة ولم يرجفنها حتى فى لحظات قصار. أما سبارتاكوس الراقد إلى جوارها فهو نائم . نائم نوماً عميقاً كاملا . وأنفاسه المترددة فى هدوء الشهيق والزفير اللذين هما وقود نار الحياة فى جسده منتظمة رتيبة كشكل الصعود والهبوط المنظمين فى عالم الحياة . وفارينيا تفكر فى ذلك ، وتعلم أن كل ماهو موجود فى سلام ، وكل ماهو فى صراع مع الحياة ، يسير بهذا الانتظام ، سواء كان ذلك حركة المد والجزر أو مد الفصول أو إخصاب البويضة فى المرأة .

ولكن كيف ينام رجل بهذه الطريقة وهو يعرف ما سيواجهه عند يقظته ؟ كيف ينام على حافة الموت ومن أين يأتيه هذا السلام؟

وتمسه فارينيا فى رقة ، رقة بالغة . وتتحسس بشرته ، لحمه وأطرافه ، وهو يرقد إلى جوارها فى الظلام . إن جلده مرن نضر حى ؛ وعضلاته مسترخية ، وأطرافه متراخية مستريحة إلا أن النوم ثمين ، لأن النوم هو الحياة بالنسبة له .

(نم ، نم ، نم ، ياحبيبي ياعزيزى ، يارجلى الرقيق ، يارجلى

الطيب ، يارجلى الرهيب — نم ، نم وارع قوتك يارجلى ، يارجلى »

وتلتصق به فارينيا فى رقة وحذر حتى تغدو حركاتها كلها كالهمس تلتصق به ويلامس وجهها فى النهاية وجهه ، وتلتصق وجنتها بوجنته فينسدل شعرها الذهبي فوقه كالتاج وتساعدها الذكريات والحب على التخفف من رعبها ، لأن الخوف والحب لا يعيشان معاً فى يسر .

ويمر الليل ويدخل أول شعاع ضئيل شاحب من أشعة الفجر إلى الحجرة الضيقة ولو أن فارينيا وقفت وشدت قامتها ، قامتها الرشيقة الطويلة لوصل رأسها إلى مستوى النافذة الوحيدة فى الحجرة ولو أنها مدت البصر إلى خارجها لرأت فناء التدريب المسور بالحديد وأبصرت من ورائه الجنود النيام القائمين بالحراسة ليل نهار . وهى تعرف ذلك جيداً لأن الحجرة الضيقة والقيد ليسا وطنها الطبيعى ولا موطن سبارتاكوس .

وملأت هذه المرأة بالذات باتياتوس رغبة وسروراً . وكان وكيله قد اشتراها من روما بثمن بخس هو خمسمائة دينار . وأدرك هو أن الصفقة رابحة ، فقد كان مجرد النظر إليها يملؤه رغبة وسروراً . لسبب . لقد كانت طويلة القامة ، جميلة التكوين كغالبية نساء قبائل الألمان ، وباتياتوس يعجب بالنساء الطويلات القامة ، الجميلات التكوين . هذا سبب ، أما السبب الآخر فهو أنها كانت صغيرة السن ، لا تتعدى العشرين أو الحادية والعشرين ..

وباتياتوس يحب صغيرات السن . ولسبب ثالث ، أنها كانت على قدر كبير من الجمال ، يزين رأسها شعر أصفر جميل ، وباتياتوس يفضل النساء الجميلات ذوات الشعر الجميل . وليس من العسير على الفهم إذن أن تدرك لماذا كانت فارينيا تملأ متعهد المجالدين بالرغبة والسرور .

إلا أنها لم تخل من العيب مع ذلك . وهو عيب اكتشفه يوم حاول أول مرة أن يجرها إلى مرقده . إذ انقلبت قطة متوحشة . استحالت إلى وحش يركل ويبصق ويخدش وينشب أظافره واضطر بسبب قوتهــا وضخامتها ، أن يقضى وقتاً قاسياً يضربها حتى غابت عن الوعى . وتهشمت أثناء الصراع كل الأدوات الثمينة التى كانت تزين غرفة نومه بما فيها وعاء للزهر يونانى جميل اضطر إلى استعماله فى ضربها به فوق رأسها حتى كفت عن المقاومة . وكان غضبه وخيبة أمله كبيرين إلى حد أنه شعر بأن له كل الحق فى قتلها ، إلا أنه حين أضاف ثمن أوعية الزهر الجميلة ، والمصابيح والتماثيل الصغيرة إلى ثمنها الأصلى رأى أن الثمن الجديد أعلى من أن يسمح لنفسه بالاستسلام لغضبه . كما أنه لا يستطيع أن يبيعها فى السوق لقاء ثمن يتناسب مع مظهرها . ولعل نشأته وهو زعيم للعصابات فى أزقة روما ، كانت السبب فى مراعاته الشديدة لأصول الأعمال التجارية . فقد كان يعهد لنفسه أنه لا يبيع شيئاً لتعلات

كاذبة . فقرر بدلا من ذلك أن يتركها لمجالدين يروضونها . وإذ كان قد بدأ بالفعل يحس كراهية بلا سبب معقول للتراقى الصامت الغريب المدعو سبارتاكوس — الذى يخفى مظهره الخارجى الشبيه بالأغنام لهيباً يحترمه كل مجالد فى المعهد — فقد اختاره لترويضها .

وشعر بالسرور وهو يراقب سبارتاكوس عندما سلمه فارينيا وقال له .. عليها طاعتك ، لكن لا تصبها بأذى أو تشوهها . هذا ما قاله لسبارتاكوس ، وسبارتاكوس صامت لا يريم ، ينظر فى هدوء إلى الفتاة الألمانية . ولم تكن فارينيا جميلة فى تلك اللحظة فقد كان فى وجهها جرحان طويلان ، وإحدى عينيها متورمة مقفلة ، لونها أصفر وبنفسجى ، وعلى جبهتها وعنقها وذراعيها كدمات خضراء وبنفسجية .

وقال باتياتوس .. أنظر إلى ما ستحصل عليه . ومزق الثوب الذى كان قد أعطاه لها ، والذى كان ممزقا بالفعل . فوقفت الفتاة أمام سبارتاكوس عارية وفى تلك اللحظة رآها سبارتاكوس وأحبها لأنها رغم تعريها الكلى من الثياب ، لم تكن عارية على الإطلاق ولم تنثن أو تحاول أن تستر نفسها بذراعيها ، بل وقفت فى بساطة وكبرياء ، لا تظهر ألماً أو تضرراً ، ولا تنظر إليه أو إلى باتياتوس ، مكتفية بنفسها ، مكتنية ببصرها وبروحها وبأحلامها ، مكتفية بكل هذا

لأنها كانت قد عقدت العزم على أن تبذل حياتها التى لم تعد ذات قيمة : تخفق قلبه لها ومال .

وانكمش فى تلك الليلة فى أقصى أركان الحجرة الضيقة ، وتركها وشأنها ، ولم يقترب منها إلا ليسألها بعد أن برد الجو : أتتكلمين اللاتينية يا فتاة ؟ فلم تجب . فعاد يقول : سأخاطبك باللاتينية لأننى لا أتكلم الألمانية ، وسيحل برد الليل عما قليل ، وأريدك أن تنامى على حشيتى يا فتاة — ومع ذلك لم يصدر عنها كلام . فدفع بالحشية إليها وتركها تفصل بينهما . لكنه وجد الحشية فى مكانها فى الصباح وتبين أن كليهما قد أمضى الليل نائماً فوق الحجر . إلا أن فعلته هذه كانت أول عمل رحيم صادر عن تفكير ، لقيته فارينيا منذ أن انتزعوها من غابات ألمانيا ، منذ عام ونصف عام .

وتعود إليها ذكرى تلك الليلة الأولى ، فى هذه الليلة الرطبة التى تقترب من صباحها ، ومع عودة الذكرى تنبعث منها إلى الرجل النائم إلى جوارها ، موجة حب قوية يجب أن يكون من حجر كى لا يحس بها . فيتقلب ، ويفتح عينيه فجأة ، فلا يراها فى وضوح وسط عتمة الفجر ، لكنه يراها كاملة ببصيرته الباطنة ، وهو لم يستيقظ بعد ، وتقول هى :

أين ستجد القوة لقتال اليوم يا حبيبى ؟

— دعيني .. أنا ملىء بالقوة .

فتنام ودموعها تفيض فى صمت .

— ٣ —

مع الصباح يبدأ القتال تحس ذلك فى الهواء وفى كل أنحاء المكان وكل واحد من المجالدين المائتين أو نحوهما يعرف هذا النبأ المكهرب ويستجيب له . سيقتتل زوجان من المجالدين كل منهما الآخر فوق الرمال ، لأن شابين جاءا من روما يحملان قدراً من المال وبهما رغبة فى الإثارة . سيقتتل تراقيان ويهودى وإفريقى ، وما دام الإفريقى مدربا على القتال بالشباك والمذراة فموقفه راجح وكثير من متعهدى المقاتلين المجالدين لا يسمحون بمثل هذا الموقف لأنك إذا كنت تربى كلباً ، لا تضعه فى مواجهة أسد ، لكن باتياتوس يقدم على أى شىء فى سبيل المال .

ويستيقظ درابا المجالد الأسود على هذا الصباح ويقول بلغة قومه . أنا أحبك يايوم الموت .

ويرقد فوق حشيته ويفكر فى حياته . ويتدبر تلك الحقيقة الغريبة وهى أن لكل الرجال ، حتى أكثرهم تعاسة ، ذكريات الحب ، والعناية ، واللهو ، والسرور ، والغنـــاء ، والرقص ، وأن الرجال كلهم يخافون الموت ويرهبونه . وأن الرجال يتشبثون

بالحياة حتى إذا لم تكن للحياة قيمة وحتى فى وحدتهم وعندما يبعد بهم المطاف عن وطنهم ، وعندما يفقدون كل أمل أيا كان نوعه فى العودة إلى الوطن،وعندما يتعرضون لكل أنواع المهانة والآلام والقسوة ، وعندما يغذونهم كالحيوانات الأليفة الملساء ويدربونهم على القتال لمتعة الآخرين حتى فى مثل هذه الظروف يظل الرجال على تشبثهم بالحياة .

وها هو ذا الرجل الذى كان ذات يوم مواطناً أميناً ، له بيته وزوجه وأطفاله،وله رأيه المسموع فى أيام السلم والمحترم فى أوقات الحروب .

— الرجل الذى كان كل هذا ، يعطونه اليوم شبكة صيد السمك ومذراة ويدخلونه إلى حلبة القتال ليضحك الناس منه ويصفقوا له .

ويهمس م. ددا الفلسفة الجوفاء التى يؤمن بها أمثاله من العبيد وأبناء مهنته . . يجب أن نعيش مادمنا أحياء .

إلا أنها فلسفة فارغة لاعزاء فيها ،وتولد عظامه وعضلاته ليبدأ يومه ويرغم جسده وذهنه على تقبل مهمة قتل سبارتاكوس الذى يحبه ويقدره أكثر من بقية الرجال البيض الذين يضمهم المكان . لكن . . ألا يقال : أيها المجالد — لاتتخذ من المجالدين لك أصدقاء .

- ٤ -

كان الشيء الذي فعلوه هو أن ذهب أربعتهم إلى الحمامات، يسيرون جنباً إلى جنب صامتين . ذلك أنه لا جدوى من الكلام وليس لديهم الآن ما يتكلمون عنه ، وماداموا سيجتمعون من الآن حتى يدخلوا إلى الساحة ، فالحديث لن يجدى شيئاً إلا زيادة الموقف سوءاً .

وكانت الحمامات ساخنة يتصاعد منها البخار ، وقفزوا إلى المياه المعتمة فى عجلة كأنهم يرغبون فى إنجاز كل شيء دون تفكير أو تدبر وكان بيت الحمامات شديد الإظلام ، يبلغ طوله أربعين قدما وعمقه عشرين قدما لا يضيؤه عند إغلاق الأبواب إلا طاقة عليا صغيرة من حجر الميكا الشفاف وتبدو مياه الحوض فى نورها الخافت رمادية كئيبة يغطيها البخار الساخن المتصاعد منها . وتتصاعد من المياه الأبخرة نتيجة لإلقاء الأحجار المتوهجة فيها فتملأ بيت الحمام بنسيج ثقيل من الهواء المشبع بالبخار . ونفذ البخار خلال مسام جسد سبارتاكوس كلها فألان عضلاته المتوترة وبعث فيه شعوراً غريباً بالراحة واليسر . فالمياه الساخنة تمثل له عجباً لا ينتهى ، فهى لم تغسل عنه الموت الجاف الذى عاناه فى بلاد النوبة غسلا كاملا ، وما من مرة دخل فيها الحمام، إلا فكر فى العناية التى يبدونها بأجساد

هؤلاء الذين يربونهم للموت ويدربونهم للموت ويدربونهم على إنتاج الموت وحده. لقد كان جسده وهو ينتج مواد الحياة كالقمح والشعير والذهب، شيئاً قذراً، لاقيمة له — بل كان هو العار والقذارة، يضرب، ويركل، ويساط، ويقتل جوعا — أما الآن بعد أن أصبح مخلوقاً للموت ـ فقد غدا جسده شيئاً ثميناً كالمعدن الأصفر الذى كان يخرجه من المناجم فى إفريقيا.

والغريب أن الكراهية ازدهرت فى نفسه فى تلك اللحظة لاغير، ولم يكن فى نفسه مكان للكراهية من قبل لأن الكراهية ترف نفسى يحتاج إلى غذاء وقوة ووقت لنوع خاص من التفكير والتدبر، وهو يملك هذه الآن. ولديه لنتولوس باتياتوس مادة حية لكراهيته. فباتياتوس هو روما، وروما هى باتياتوس. وهو يكره روما ويكره باتياتوس ويكره كل ما هو رومانى. ذلك أنه ولد ونشأ على قبول الكدح فى الحقول ورعاية الماشية والعمل فى المناجم، لكنه لم يعرف تربية الرجال وتدريبهم على أن يمزق الواحد منهم الآخر إربا ويسفك دماءه على الرمال ليضحك ويثير السادة رجالا ونساء إلا فى روما وحدها.

وخرجا من الحمامات إلى مناضد التدليك. وأغمض سبارتاكوس عينيه، كعادته، عندما صب زيت الزيتون المعطر

فوق جلده وعندما راحت أصابع المدلك الخبيرة اللينة تدلك كل عضلة فى جسده على حدة . وكان شعوره فى أول مرة رقد فيها للتدليك شعور الحيوان الذى يقع فى الشراك وما يصاحب ذلك من خوف ورعب . وأحس أن القدر الضئيل من الحرية الذى يملكه، ولا يملك سواه ، وهو جسده ، قد انتهك وغزته هذه الأصابع المتحسسة الملتوية .

غير أنه كان قد استطاع أن يسترخى ويستفيد بأقصى ما يمكن أن يناله من المدلك . لقد رقد هذه الرقدة إثنتى عشرة مرة ، قاتل فيها . ثمانى مرات منها فى المدرج الكبير فى كابوا والجماهير الحاشدة الصارخة التى أفقدتها رؤية الدماء صوابها تستحثه وتطلب إليه المزيد ، وأربع مرات فى ساحة باتياتوس الخاصة لمتعة خبراء الذبح الأثرياء الذين جاءوا من روما العظيمة والتى لم يرها هو فى حياته . لتمضية يوم مع نسائهم وأحبائهم من الغلمان فى مشاهدة رجال يتقاتلون .

وكان يعيش فى تلك اللحظة ، كما هى عادته كلما رقد فوق منضدة التدليك ، على تلك الذكريات ، فقد كانت كلها منقوشة فى ذهنه . لأن الرعب الذى ينتاب العبد فى الحقل أو المنجم لا يقارن بالرعب الذى ينتابه عندما يخطو على الرمال المتماسكة الصلدة فى

أرض الساحة لا خوف يدانى هذا النوع من الخوف ، ولا مهانة تعادل مهانة اختيارك لعملية القتل .

وهكذا تعلم أن ليس فى الحياة البشرية مستوى أحط من مستوى المجالد. فهو يكافأ أو يجزى على قربه الشديد من الحيوانات، بنفس العناية القلقة التى يضفونها على الجياد الأصيلة ، وإن كان لنتولوس باتياتوس أو أى رومانى آخر قد يثور لمجرد فكرة قتل حصان أصيل فى الساحة . وقد استولى عليه الشعور بالخوف والمهانة وأصابع المدلك تتبع آثار الجروح نسيجاً إثر نسيج وعضلة وراء عضلة .

كان سبارتاكوس حسن الحظ فهو لم يصب بقطع عصب أو كسر عظم ، أو فقأ عين، أو طعنة خنجر فى طبلة أذنه أو عنقه، أو غيرها من هذه الجراح الخاصة التى يخافها زملاؤه أشد الخوف ويحلمون بها ليلا فى بحر من الرعب والعذاب . وهو لم يجندل قط ولم يطعن فى بطنه . بل كانت كل جراحه بسيطة . وهو لا يستطيع إرجاع ذلك إلى براعته ولا يريده . . وهل ثمة براعة فى هذه الجزارة ! وهم يقولون إن العبد لا يصلح لأن يكون جندياً . لكنه كان سريع الحركة كالقط ، كان فى سرعة اليهودى ذى العينين الخضراوين المخلوق ذى الكراهية والصمت الذى يرقد إلى جواره فوق المنضدة.

وهو قوى جدا ، يعمل فكره كثيراً . وكان هذا أصعب شيء — لأنك فى هذه الحال تفكر ولا تغضب . فالغضب يعنى الموت . وقد مات بالفعل كل من تعرض للغضب فى ساحة القتال . أما الخوف فشيء آخر . لكن يجب البعد عن الغضب ، ولم يكن ذلك عسيراً عليه . فقد كانت أفكاره أدوات بقائه طيلة حياته . وقل من الناس من يدرك هذا . فهم يقولون إن العبد لا يفكر فى شيء على الإطلاق . وإن المجالد وحش . هذا بديهى إلا أنه يحمل نقيضه فى طياته . فالرجل الحر يعيش على التفكير مرة كل حين أما العبد فيجب أن يفكر من يوم إلى يوم ليعيش — وهو نوع آخر من التفكير حقاً ، لكنه تفكير مع ذلك . والتفكير رفيق الفيلسوف ، لكنه رفيق العبد ، وعندما فارق سبارتاكوس فارينيا هذا الصباح محا وجودها من حياته ، فهى يجب أن لا تكون موجودة بالنسبة له ، فستعيش إذا عاش هو ، لكنه ليس حياً أو ميتاً فى الوقت الحاضر .

وانتهى المدلكون من عملهم ، فنزل العبيد الأربعة من فوق المناضـــد ، ولفوا أجسادهم فى العباءات الصوفية الطويلة التى يسمونها بالأكفان وعبروا الفناء إلى قاعة الطعام . وكان بقية المجالدين قد بدءوا بالفعل فى تناول إفطارهم وجلس كل واحد منهم على الأرض مطوى الساقين يأكل من فوق

منضدة صغيرة أمامه ، ولكل منهم كوب من ابن المعز المختمر مليء بعصيد القمح المطبوخ بأجزاء من لحم الخنزير السمين ذلك أن متعهد المجالدين يحسن تغذيتهم ، فكان كثير من العبيد الذين جاءوا إلى معهده يأكلون كفايتهم لأول مرة فى حياتهم . . كالمحكوم عليهم بالإعدام يأكلون كفايتهم قبل دق المسامير فى أيديهم وأقدامهم فوق الصليب . أما الأربعة الذين سيقومون بالقتال فى الساحة فقد اقتصر فطورهم على قدر بسيط من النبيذ وشرائح قليلة من لحم الدجاج البارد لأن المرء لا يجيد القتال وهو ممتلىء المعدة .

ومهما يكن من شىء فإن سبارتاكوس لم يكن جائعاً ، وجلس الأربعة بمعزل عن الباقين ، يشتركون فى كراهية الطعام ، ويرشفون قطرات من النبيذ ، ويتناولون قضمة أو قضمتين من اللحم ويتبادلون النظر أحياناً . لكنهم لاذوا بالصمت ، وكان صمتهم كالجزيرة الصغيرة الساكنة فى خضم الحديث الذى يملأ القاعة . أما بقية المجالدين فقد غضوا عنهم النظر ولم يبدوا مزيداً من العناية بهم . وكانت هذه تحية الإفطار الأخير .

وكانت طريقة تقسيم المجالدين قد أصبحت الآن معروفة شائعة وعرف كل واحد منهم أن سبارتاكوس سيقاتل الرجل الأسود ، وأن الخنجر سيقارع الشبكة والمذراة . وعرف كل

واحد منهم أن اليهودى سيقاتل التراقى، وأن سبارتاكوس سيموت، وأن التراقى الشاب سيموت كذلك . وهذا خطأ وقع فيه سبارتاكوس، فهو لم يكتف بالحياة مع الفتاة الألمانية والتحدث عنها دائماً بوصفها زوجته — بل إنه جعل المجالدين يحبونه كذلك. وان لم يكن من المجالدين الجالسين فى القاعة من يستطيع التعبير عن هذا الحب فى صراحة ، وهم لايعرفون لماذا حدث ذلك على وجه الدقة . ذلك أن لكل رجل طريقته فى السلوك ، ولكل رجل آلاف من التعبيرات والتصرفات الصغيرة . وكان سلوك التراقى الرقيق، ووجهه الشبيه بوجه الحمل الوديع وشفتاه الممتلئتان وأنفه المكسور — كل ذلك كان ينبىء بصفات تجعل الرجال يقبلون أحكامه ويقصدونه بمخاوفهم وخلافاتهم ، ويقصدونه للراحة والرأى السديد . فإذا ما قرر أمراً عملوا بما يقول. وكانوا إذا ما خاطبهم أو تحدث إليهم بلغته اللاتينية الهادئة التى ينطقها بلكنة غريبة ، تقبلوا ووجدوا الراحة فى حديثه إليهم . وكان يبدو رجلا سعيدا ، وهو رافع الرأس على الدوام ، وذلك شىء غريب فى حياة العبد . فهو لم يطأطىء الرأس قط ، ولم يرفع صوته قط، ولم يغضب قط ، وكانت قناعته تميزه عن غيره ، وكانت هذه سيرته فى هذه الرفقة الدنسة من القتلة المدربين والرجال الضائعين .

وكان باتياتوس يقول دائماً .. إن المجالدين وحوش . ولو فكر فيهم إنسان على أنهم بشر لفقد القدرة على الحكم .

وكان أبسط ما فى الأمر أن سبارتاكوس يرفض أن يكون حيوانا . ولهذا كان خطراً . وبالرغم من مهارته فى استعمال الخنجر وماله من قيمة حين يؤجر للجلاد ، فإن باتياتوس كان يفضل أن يراه ميتاً وكان يجد فى ذلك خيراً له .

وانتهى طعام الإفطار ، وخرج الرجال الأربعة المختارون ، كما كانوا يسمونهم ، ساخرين ، فى لغتهم السوقية يسيرون وحدهم . فهم رجال محرمون هذا الصباح . لا يكلمهم أو يمسهم أحد . لكن جانيكوس ذهب إلى سبارتاكوس واحتضنه وقبل شفتيه . وكان ذلك عملا غريباً غالى الثمن جزاؤه ثلاثون جلدة ، لكن قلما كان واحد لم يشعر بما دفع جانيكوس إلى أن يفعل ما فعل .

— ٥ —

وظل لنتولوس باتياتوس يسترجع ذلك الصباح فى ذاكرته أكثر من مرة خلال السنوات التى تلته . وتعقله أكثر من مرة وحاول أن يفهم هل يستطاع إرجاع الهزات والأحداث التى جاءت بعد ذلك إليه ، إلا أنه لم يكن واثقاً من إمكان ذلك المستحيل .

ولم يكن يستطيع الاعتقاد بأن ما حدث بعد ذلك اليوم إنما حدث لأن شابين رومانيين متباهيين رغبا فى مشاهدة عرض خاص لقتال حتى الموت، ذلك أنه لم يكن يمضى أسبوع دون أن يقام عرض خاص لزوج أو زوجين أو ثلاثة أزواج من المجالدين فى ساحته الخاصة، ولم ير فى ذلك شيئاً يخالف كثيراً ما حدث فى ذلك اليوم. وحمله ذلك على التفكير فى مصير بعض المنازل التى يملكها فى روما. فقد كان المعروف أن هذه المنازل تعد من خير وسائل استغلال النقود لأى رجل أعمال. لأنها لم تكن معرضة لتقلبات الأعمال التجارية، ولأنها تدر دخلا ثابتاً ومتزايدا فى معظم الأحوال، وأن فى الإمكان زيادة هذا الدخل. غير أن خطراً من نوع ما كان يكمن فى هذه الزيادة. وقد اشترى بانيانوس أول الأمر منزلين، أحدهما من أربعة طوابق والآخر من خمسة، فى كل طابق منهما اثنا عشر مسكنا، وإيجار كل مسكن حوالى تسعمائة سستر سنويا.

ولم يمض على بانيانوس وقت طويل حتى أدرك أن كل ساع وراء الربح يجب أن يضيف طوابق جديدة، فالكناسون يمتلكون منازل منخفضة، أما الأغنياء فيملكون ناطحات. سحاب. فبادر متعهد المجالدين إلى تشييد طابقين فوق المنزل ذى الطوابق الخمسة. أما أول طابق أضافه إلى المنزل ذى الطوابق الأربعة، فقد ثقل

على البيت فانهار تحت ثقله وكبده خسارة هائلة ، ومات تحت الأنقاض أكثر من عشرين شخصاً من السكان — وكان معنى ذلك ثروة جديدة ينفقها فى الرشاوى . وقد أصابه شىء من هذا النوع فى شأن المجالدين ، فقد أدت زيادة عددهم إلى الهبوط بمستوى القتال . لكن باتياتوس كان يدرك أنه ليس أسوأ من كثير من متعهدى المجالدين فى هذا الميدان بل إنه هو خير من كثير منهم .

ولسنا ننكر أن ذلك الصباح كان مشئوماً . فقد بدأ أولا بجلد جانيكوس . وليس جلد المقاتلين بالعمل الجيد . لكن نظام المعهد يجب أن يكون فى نفس الوقت أكثر النظم فى العالم دقة وصرامة . وخرق المجالد لأى مظهر صغير من مظاهر هذا النظام ، يجب أن يقابل بالعقاب — العقاب السريع الذى لا يعرف الرحمة . وحدث بعد ذلك تذمر بين المجالدين من الجمع بين مجالد بالخنجر وآخر بالشبكة والمذراة ، ثم جاء بعدئذ القتال نفسه .

وكان باتياتوس فى المجتلد ينتظر وصول الأضياف . وإذا غضضنا النظر عن رأى باتياتوس الشخصى فى هؤلاء الرومانيين ، فهو شديد الحساسية لما للمال من احترام . فى أية مرة يلتقى بصاحب ملايين ولسنا نعنى بذلك الرجل الذى يمتلك الملايين فحسب بل نعنى به كذلك الرجل الذى يستطيع أن ينفق الملايين ، يسيطر عليه شعوره الخاص بالضآلة وبأنه كالضفدع الصغير فى البركة الصغيرة .

وحين كان زعيم عصابة فى شوارع المدينة كان حلمه الخاص أن يتمكن من أربعمائة ألف سسترس ، وهو القدر الذى يسمح له بالانخراط فى سلك الفرسان . ومع ذلك فإنه حين أصبح فارساً أدرك لأول مرة معنى الثروة، وأدرك أنه مازال أمامه ، رغم ماوصل إليه بمهارته وحكمته ، درجات لا نهائية من السلم عليه أن يصعدها .

والاحترام واجب حيث يجب الاحترام ، لهذا انتظر وصول كايوس وبراكوس وغيرهما ، ولهذا لم يعرف أن جانيكوس قد نال ثلاثين جلدة ، بل سار فى ركاب ضيوفه المبجلين إلى المقصورة التى أعدت لهم ، وهى مشيدة على ارتفاع كاف يسمح لهم بمشاهدة كل ركن من أركان الساحة الصغيرة دون حاجة إلى الحركة أو الانحناء . وسوى بنفسه الحشيات كى يمكن لهم الاسترخاء فى خير يسر وراحة وهم يشاهدون القتال، وجىء لهم بالنبيذ البارد وبأوعية صغيرة فيها الحرم مسكرة والخمام المغطى بالعسل كى يجدوا على الدوام ما يرضى شهيتهم ويشفع غليلهم ، وأظلتهم مظلة مخططة من شمس الصباح ووقف اثنان من عبيد المنزل يحملان مراوح الريش للترويح عنهم إذا ما تغير جو الصباح البارد إلى ضحى حار راكد الهواء . وكان باتياتوس يتيه كبرياء وهو يشرف على إعداد المكان — فمما لا شك فيه أنه قد زوده بكل ما يتطلبه إنسان مهما كان مرهف

الذوق ، وكيما يزيل عنهم السأم حتى يبدأ القتال، أخرج إلى الساحة موسيقيين وراقصة .

ولم يكن منشأ ذلك الاهتمام أنهم يبدون اهتماما كبيرا بالموسيقى أو الرقص ، فقد كانوا يطلبون شيئاً « أسمى من ذلك » وراح صديق براكوس المتزوج ـ وهو يدعى كورنيليوس لوسيوس — يثرثر في عصبية عما يحتاج إليه المرء كي يحيا حياة محترمة في روما في تلك الأيام ، وتلكأ بانياتوس وأصغى ، فقد شاقه أن يعرف ما يحتاج إليه المرء كي يحيا حياة محترمة في روما في تلك الأيام .وجذبه الحديث عندما علم أن لوسيوس دفع خمسه آلاف دينار ثمناً لعبد خباز أى ثروة ثمناً لرجل يصنع الفطائر .

وسأل لوسيوس قائلا :

ولكن لا يستطيع أن يحيا كما يحيا الخنزير ـ أليس كذلك؟ أو حتى بالطريقة التي عاش بها أبي ، فالمرء إذا أراد أن يأكل طعاماً محترماً يحتاج على الأقل إلى أربعة من العبيد .واحد لصنع الفطائر ، وواحد لتزويقها بالألوان ،ثم لا بد من عبد لطحن الغلال وواحد لتحليتها بالسكر ، وإلا اضطر المرء إلى أن يشترى الحلوى المطبوخة من الأسواق ، ومن الخير أن يستغنى الإنسان عن ذلك .

فقالت زوجته :

– لا أتصور كيف يمكن للمرء أن يستغنى عنها . أنت تستبدل حلاقك كل شهر . ولا يستطيع إلا الله أن يرضيك بحلاقته لك كما يجب : . وإذا ماطالبت أنا بمصفف لشعرى أو مدلك إضافى –

فقال لها براكوس فى رقة

– ليس الأمر محتاجاً إلى مائة عبد – بل الذى يحتاج إليه هو – وحتى بعد تدريبها – أعتقد أحياناً أن الأمر لايستحق كل هذا العناء . وعندى عبد خاص لملابسى، وهو لاتانى من قبرص، يستطيع أن يروى أشعار هومر ساعات طوالا فى التو ، لكنه لاينظف البيت ولايغسل ، بل كل ما أتطلبه منه هو أن يرتب ثيابى ، فعندى صيوان للعباءات ، وكل مطلبى أن توضع كل عباءة أفرغ منها فى هذا الصيوان ، وأن يوضع كل ثوب فى الصيوان الذى أحفظ فيه أثوابى . وفى وسع المرء أن يمرن كاباً على القيام بهذا العمل ، أليس كذلك ؟ وأنا إذا قلت يازاكيدس أعطنى ثوبى الأصفر ، جاءنى به ، أما العبد فلا يستطيع ، ويستغرق تعليمه أداء ذلك كما يجب وقتاً أطول مما لوقمت بذلك بنفسى .

فاحتج كايوس قائلا

– إنك لاتستطيع أن تعمل ذلك بنفسك .

ــ لا طبعاً لا يابنى . انظر أى نوع من النبيذ أحضره لنا متعهد المجالدين .

وكان باتياتوس أسرع إلى الرد ، فقد قال مفاخراً وهو يرفع القنينة أمام أعينهم .

ــ إنه من سفوح جبال الألب الإيطالية .

فبصق براكوس فى رشاقة وهو يضع أصبعاً إلى جانب أنفه وقال

ــ كيف فكرت فى الحشيات مع أنى لم أقل لك إننا نريد حشيات ؟ ألديك نبيذ من نبيذ يهوذا يا متعهد المجالدين ؟

ــ طبعاً .. خير أنواعه . وردية اللون .. أرق ألوان الورد .

وصاح بواحد من عبيده ليحضر نبيذ يهوذا على الفور ، وقال لوسيوس لزوجته التى كانت تهمس له :

ــ قولى له .

ــ لا .

فتمدد براكوس مقتربا منها ، وأخذيدها وألصقها بشفتيه وقال

ــ أيوجد مالا تستطيعين قوله لى يا عزيزتى ؟

ــ سأهمس به لك .

وهمست فى أذنه فأجابها براكوس قائلا :

ــ طبعاً . طبعاً .

ثم قال لباتياتوس :

— أحضر اليهودى هنا قبل أن يقاتل .

وكان خيط التفكير الذى يربط بين تصرفات السادة يحير باتياتوس دائماً . فهو يعلم أن هذا الخيط موجود ، لكنه يعجز عن وصفه وصفاً متناسقاً ، ولا يستطيع أن يحدد له نظاماً فيه تعقل أو إيقاع يساعده على أن يخفى أصله الوضيع باصطناع أسلوب للسلوك . ذلك أن كل جماعة تستأجر ساحته لإقامة عرض خاص تسلك سلوكا مخالفاً لسلوك غيرها .. وكيف إذن يستطيع الإنسان تحديد هذا الأسلوب ؟

وبعث باتياتوس يطلب اليهودى .

وجاء هـــذا محاطا باثنين من المدربين ، ومشى إلى المقصورة ووقف أمامها ينتظر . وكان ما زال ملتفاً بعباءته الصوفية الخشنة الطويلة ، وعيناه الخضراوان الشاحبتان كالحجرين الباردين لا يرى بهما شيئاً . بل كل ما فعله أنه وقف .

وابتسمت المرأة ابتسامة بلهاء ، وفزع كايوس فقد كانت هذه أول مرة يقف فيها بجالد على هذا البعد الصغير منه لا يفصله عنه جدار أو قضبان ، ولم يكن المدربان بكافيين لطمأنته . وقال فى نفسه : ليس هذا بشراً ، هذا اليهودى ذو العينين الخضراوين ، والفم الرفيع والأنف الأقنى الوحشى ، والرأس الحليق .

وقال براكوس

— مره أن يخلع عباءته يا متعهد المجالدين .

فهمس باتياتوس قائلا :

— اخلع ثيابك .

فتردد اليهودى لحظة قصيرة ، ثم أسقط عباءته فجأة ووقف أمامهم كما ولدته أمه ، وقد سكنت الحركة فى جسده الضامر البارز العضلات كما لو كان تمثالا من البرنز . وحدق إليه كايوس مسحوراً وتظاهر لوسيوس بالضجر ، أما زوجته فقد راحت تحدق إليه مبهورة فاغرة الفم بعض الشيء وقد ازداد تنفسها سرعة واضطراباً .

وقال برياكوس فى ملل

— حيوان منتزف الريش يقف على قدمين .

وانحنى اليهودى واسترجع عباءته واستدار يتبعه المدربان ثم قال براكرس

— فليقاتل أولا .

— ٦ —

لم يكن القانون قد نص حتى ذلك الوقت ، على ضرورة تزويد المجالد التراقى بترس خشبى للدفاع عن نفسه وقت القتال فى الساحة بالخنجر التقليدى ، وهو اسم خير منه أن يقاتل بالسكين المستدير

بعض الشيء المعروف باسم السيكا . وحتى بعد أن نص القانون على ذلك ، كان كثيراً ما يخرق ، لأن الترس ، كالخوذة ودروع الساقين النحاسية التقليدية ، يحول دون ظهور روعة القتال بالسكين وهى الشيء الأساسى فى القتال الغريب الذى يعتمد على الحركة والسرعة التى يتبارى فيها المجالدون . وكان المجالدون يرتدون فى أثناء القتال الدروع الثقيلة ويحملون الدرع البيضاوى الكبير . وكانت الأدوات فى المجتلد كما كانت منذ أربعين عاما ـ أى فى الوقت الذى لم يكن الصراع بين كل اثنين كثير الحدوث ـ تسمى الشمينات Somnites التى يحملها جنود الفرق والسيف الأسبانى القصير . ولم يكن هذا اللون من القتال مثيراً ، أو تراق فيه الدماء إلى حد كبير ، لأن اصطدام الدرع بالدرع ، ومقارعة السيف بالسيف كانا يستمران ساعات دون أن يصاب أحـــد الاثنين بأذى كبير . وكان متعهد المجالدين فى ذلك الوقت يحتقرا احتقار القواد ـ فقد كان غالباً زعيم عصابة حقير يشترى عدداً من العبيد المستهلكين ويطلقهم يتقاتلون حتى يسقطوا صرعى من جراء نزف دمائهم أو من فرط الإعياء . وكثيراً ما كان متعهد المجالدين يتعامل فى المجالدين بيد وفى النساء باليد الأخرى .

ثم أدخل تجديدان على القتال الذى يدور بين اثنين من الأزواج فأحدثا ثورة فيه ـ إذ أحالا المشهد الممل إلى مشهد جنت

به روما أشد جذرن ، وصعدا بأكثر من متعهد للمجالدين إلى مقاعد مجلس الشيوخ . واقتنى المتعهدون من ورائهما البيوت فى الريف وثروات تقدر بالملايين . وجاء التجديد الأول نتيجة تغلغل الرومان عسكرياً وتجارياً فى إفريقيا . فظهر فى أسواق العبيد الرجل الأسود ، الزنجى بقامته المديدة وقوته الفائقة . وكان نادراً ما يرى قبل ذلك . وفكر متعهد المجالدين فى إعطاء الزنجى شبكة لصيد الأسماك ومذراة ، أى حربة ذات ثلاث شعب من التى تستعمل فى صيد الأسماك ، وأن يدفع به إلى الساحة فى مواجهة السيف والدرع . فما لبث هذا أن أسر خيال الرومانيين ، ولم تعد مشاهدة القتال مجرد متعة عابرة . وجاء التجديد الثانى فأكمل هذا التطور - وكان نتيجة تغلغل الرومان فى تراقيا ويهوذا ، واكتشاف سلالتين مستقلتين من الفلاحين الأشداء يسكنون الجبال ، وسلاحهم الرئيسى فى الحرب سكين مقوس قصير حاد كالشفرة . وكان التغيير الذى أحدثه هؤلاء فى قتال المجالدين يفوق التغيير الذى أحدثه السود . فقلما كان "ترس ودروع الجسم يستعملان بعدئذ حلت المبارزة بالخناجر ، السريعة كالبرق الخاطف ، والجروح الطويلة الرهيبة ، وإراقة الدماء ، وبروز الأحشاء وسقوطها إلى الأرض ، والبراعة والألم ، والحركة السريعة الخاطفة محل صدام الدروع الرتيب .

وقد لخص براكوس ذلك كله عندما قال لرفيقه الصغير - حسبك أن تشاهد التراقيين ، فلا تحتاج لمشاهدة شيء بعد ذلك . فكل ما عداهم ثقيل عقيم ممل لا معنى له . أما القتال التراقى البارع فهو أكثر الأشياء إثارة فى العالم .

وحان الوقت لبدء القتال ، فانسحبت الراقصة وانسحب الموسيقيان وخلت الساحة الصغيرة ، وتعرت لأشعة شمس الصباح الدافئة . وخيم على المكان كله صمت مؤلم مرتعش . وتمدد الرومانيون الأربعة : السيدة والرجال الثلاثة على الحشيات تحت المظلة المخططة وهم يرشفون نبيذهم ذا الوردى فى انتظار بدء القتال .

- ٧ -

وفى غرفة الانتظار ، وهى حظيرة صغيرة تفتح على الساحة ، جلس المجالدون الثلاثة . التراقيان والزنجى الأسود فى انتظار عودة اليهودى . جلسوا على دكة وقد خلت نفوسهم من السعادة بعد أن ودعوا الحياة . وكان العار وحده رفيقهم ، لا المجد ، ولا الحب ، ولا الشرف . قال الزنجى فى النهاية قولا حطم به الصمت الذى فرضوه على أنفسهم .

إذا كانت الآلهة تحبك ، مت فى طفولتك .

فقال سبارتاكوس

ـ لا .

فسأله الزنجى الأسود

ـ وهل تؤمن بالآلهة ؟

ـ لا .

ـ وهل تؤمن بوجود عالم آخر بعد الموت فى هذه الحياة .

ـ لا .

فسأله الرجل الأسود

ـ بماذا تؤمن إذن يا سبارتا كوس ؟

ـ أؤمن بك وبنفسى .

فقال بوليموس التراقى الشاب الجميل :

ـ أنت وأنا ! ما نحن إلا لحم على وضمة القصاب متعهد المجالدين .

وسأل الزنجى قائلا

ـ وبماذا تؤمن أيضاً ياسبارتاكوس ؟

ـ ماذا أيضاً ؟ ـ بماذا يحلم البشر ؟ عندما يوشك أن يموت بماذا يحلم ؟

فقال الزنجى فى رقة وفى صوته العميق أسف يدوى فى صدره .

— سأقول لك ماقلته قبل . سأقول لك هذا . إنى أحس بوحدة شديدة ، وقد بعدت بى الشقة عن وطنى وأصبحت حقوداً لا أصلح له . ولا أريد أن أعيش بعد اليوم . ولست أريد أن أقتلك يارفيق .

— أهذا مكان للرحمة ؟

— إنه مكان للعناء . وقد تعبت .

فقال سبارتاكوس .

— لقد كان أبى عبداً ، وقد علمنى فضيلة واحدة . وفضيلة العبد الوحيدة هى أن يعيش .

— لكننا لانستطيع الحياة كلانا .

— والمنة الوحيدة التى تقدمها الحياة للعبد هى أنه ، كبقية الناس ، لايعرف متى يموت .

وسمع الحراس حديثهم ، فراحوا يدقون حائط الحظيرة بحرابهم يطالبونهم بالصمت . وعاد اليهودى ، وهو لم يكن ليشاركهم الحديث على أية حال ، فهو لايتكلم قط . ووقف وراء الباب فى عباءته ، منكس الرأس أسفاً وخجلا وعاراً . ودوى نفير ، فوقف التراقى الشاب وشفته السفلى ترتعد من فرط التوتر ، وألقى هو واليهودى بعباءتيهما ، وفتح الباب وسارا إلى الساحة جنباً إلى جنب عاريين.

لم يهتم الزنجى . فقد كان معتاداً على الموت ، قاتل اثنين وخمسين مرة بالشبكة والمدراة وخرج من المعمعة حياً سليما . أما الآن فقد تقطع الحبل الذى يربطه بالحياة . وجلس على الدكة مع ذكرياته مقوس الظهر يحمل رأسه بين يديه ، بينما قفز سبارتاكوس إلى الباب ، وألصق عينه بشق منه ليرى ويعرف . ولم يكن لينحاز إلى أحد الجانبين ؛ أهله وعشيرته ، أما اليهودى فقد كان شيئاً يمزق قلبه تمزيقاً غريباً شاذاً . وعندما يتقاتل اثنان حتى الموت ، فلابد أن يموت أحدهما ، لكن الحياة هى جوهر الموقف ، مادام للحياة وجود ، وكان جوهر سبارتاكوس هو الحياة . وقد عرف الناس ذلك فيه . عرفوا فيه البقاء ولو صعد إلى مدار النجوم . وها هو ذا الآن يلصق عينه بالشق الذى سمح له بمجال من الرؤية فى منتصف الساحة .

وحال جسد الاثنين دون الرؤية أول الأمر . إلا أن حجمهما أخذ يتضاءل وهما يتقدمان إلى مركز الساحة ويواجهان من اشتروا لحمهما ودمهما . وتبعهما ظل جسديهما القاتمين الملتمعين من الزيت . ثم افترقا عشر خطوات ووقف كل منهما عند طرفى مدى الرؤية المتاح له ، تفصله الرمال وأشعة الشمس . واستطاع سبارتاكوس أن يرى الشرفة التى جلس فيها الرومانيون ، فقد كانت تحد مجال رؤيته . . وهى ديوان عريض مشرق من الألوان القرمزية

والصفراء والأرجوانية ذات أستار مخططة .. وكان يبصر أيضاً حركة مراوح الريش البطيئة التى يحملها العبيد. هكذا كانوا يجلسون، هؤلاء الذين ابتاعوا الحياة والموت، القلة القوية. وحضرته كل الأفكار التى يجب أن تحضر رجلا واحداً على الأقل فى كل عصر من عصور الزمن، كل هذه الأفكار حضرت سبارتاكوس ...

ودخل المدرب، سيد الساحة، وهو يحمل صينية من الخشب المصقول فوقها سكينان. وقدمها تقديماً رمزياً لمن دفعوا ثمن القتال. وفيما هو يمد الصينية إليهم، انعكست أشعة الشمس على معدن الحدين المصقول على اثنتى عشرة بوصة من الصلب الحاد كالشفرة، جميلى الصنع، لهما مقبضان من خشب الجوز الداكن. وكان السكين مقوساً بعض الشىء، تكفى اللمسة الخفيفة كالريشة من السلاح لشق الجلد.

وأومأ براكوس برأسه، فسيطرت الكراهية الحادة القاطعة كلمسة من هذين السكينين على سبارتاكوس من قمة رأسه إلى أخمص قدمه — إلا أنه سيطر على نفسه وكبح جماح عواطفه وهو يرقب المجالدين يختاران السلاح، ثم يتحركان خارجين من مجال رؤيته. لكنه كان يعرف كنه حركاتهما، يعرف كل حركة منها. إن كلا منهما يرقب الآخر فى رعب وحذر ويقظة المحكوم عليه بالإعدام، وكل منهما يقيس بعينيه الخطوات العشرين المقدرة لها. إنهما الآن

ينحنيان ويمسحان بالرمل المقبضين وراحتى يديهما . إنهما الآن يتحفزان وكل عضلة فى جسديهما ترتعد كالزنبرك المشدود وقلباهما يدقان كالمطارق .

ونفخ المدرب فى صفارته الفضية ، فعاد المقاتلان إلى مجال رؤية سبارتاكوس . . عاريين ، متحفزين ، وكل يمسك بالسكين اللامع فى راحة يده اليمنى ، وقد أراقا رجولتيهما وأصبحا حيوانين ، وأخذا يدوران كالحيوانات ، وينقلان أقدامهما فى خطوات قصيرة فوق الرمال الساخنة . ثم التحما وانفصلا فى حركة واحدة متشنجة صفق لها الرومانيون ، وخط صدر اليهودى خيط من الدم التف حوله كالحزام

إلا أنه لم يبد على الاثنين أنهما أحسا بالإصابة التى حدثت . فقد كان تركيز انتباه كل منهما على الآخر عظيماً مطلقاً ملحاً حتى بدا الوجود بأسره كأنه قد تركز عليهما ، وتوقف الزمن ، وتركزت حياة كل منهما وتجاربه فى الآخر ، حتى غدا التوتر الذى راح كل منهما يدرس به الآخر شيئاً مؤلماً . ثم التحما من جديد فيما خيل للرائى أنه انتفاضة واحدة متداخلة من القوة والعزم . وتماسكا ، اليد اليسرى تقبض على اليمنى ، ووقفا متقابلين ملتصقين ، جسداً بجسد ، ووجهاً لوجه . واليدان المتماسكتان تناضلان وتصيحان فى صمت بالرغبة فى التمزيق والقتل . والآن قد استحالا وحشين

استحالة كاملة ، وأصبح كل منهما يكره الآخر ، ولا يعرفان إلا هدفاً واحداً هو الموت ، مادام القتل وحده هو الذى يتيح لواحد منهما أن يعيش . وظلا على تماسكهما وتلاصقهما ، وعضلاتهما متوترة مشدودة ، حتى تداخلا وأصبحا كياناً واحداً يتمزق من الداخل .

وظلا على تماسكهما ما دام فى اللحم والدم قوة ومقدرة ، ثم انفصم التماسك وانفصلا ، لكن شريطاً من الدم القانى كان يمتد على طول ذراع التراق . ووقفا تفصل بينهما اثنتا عشرة خطوة يلهثان ويكره كل منهما الآخر ، ويرتعدان ، وقد اصطبغ جسد كل منهما كاملا بالدم الأحمر والزيت والعرق ، والدم يتساقط ويصبغ الرمال عند أقدامهما .

ثم هجم التراق . . وسكينه يمتد أمامه ، وألقى بنفسه على اليهودى ، فركع اليهودى على ركبة واحدة وراغ من السكين بأن دفع برسغ التراق إلى أعلى ثم ألقى به فوق ظهره عالياً فى الهواء . وقبل أن يصطدم جسد التراق بالأرض كان اليهودى قد انقض عليه . وكانت هذه لحظة الرعب الهائل وأشد لحظات الهياج فى القتال . وكان الموت يمزق التراق الذى راح يتثنى ويتدحرج ويتلوى ويستعمل قدمه العارية ليدرأ عن نفسه السكين الرهيب ، لكن اليهودى كان قد تمكن منه يمزق ويطعن — ومع ذلك فقد

كانت مقاومة التراقى الشاب يائسة متشنجة إلى حد عجز معه اليهودى عن أن يطعن الطعنة القاتلة المميتة .

وأخيرا استطاع التراقى أن يقف على قدميه . وقد قفز جسده الدامى الممزق بكل ما فى هذه الكلمة من معان فى الهواء ، ووقف على قدميه من جديد ، لكن الحياة والقوة كانتا تتسربان منه . فقد نزح الانفجار الذى أوقفه على قدميه معين قوته وراح يحفظ توازنه بيد ، وقد أمسك السكين باليد الأخرى وهو يترنح إلى الأمام والخلف يتحسس الهواء بسلاحه ليدفع عنه اليهودى . لكن هذا كان يقف فى المؤخرة بعيداً عنه دون حراك أو محاولة للالتحام من جديد — والواقع أنه لم تكن ثمة حاجة إلى الالتحام ، لأن التراقى كان مشرحا ، تمزق وجهه ويداه وجسده وساقاه وحياته تنزف فى بركة الدماء الآخذة فى الاتساع على الرمال المنثورة تحت قدميه .

ومع ذلك فإن ذروة صراع الحياة والموت لم تنته بعد . فلقد أفاق الرومانيون من غشيتهم وبدءوا يصيحون باليهودى فى أصوات مبحوحة مجلجلة يأمرونه

— اضرب ... اطعن .

لكن اليهودى لم يتحرك . نعم إنه لم يكن قد أصابه شىء سوى الجرح الوحيد الرفيع فى صدره ، لكن القتال كان قد صبغ

جسده كاملا بالدماء . وفجأة ، ألقى بسكينه إلى الرمال ، فانغرس فيها وراح يهتز ، وظل هو على وقفته منكس الرأس .

وبعد لحظة واحدة سقط سكين التراقى من يده. لقد كان يموت بسرعة. وصرخ الرومانيون ودار مدرب حول الساحة وهو يلوح بسوط طويل ثقيل مجدول من جلد الثيران ، وتبعه جنديان .

وزأر المدرب صائحاً

— قاتل يا قذر .

ثم التف السوط حول ظهر اليهودى وحول بطنه

— قاتل .

وهبط عليه السوط مرات ومرات لكنه لم يتحرك ثم انكفأ التراقى على وجهه ، وانتفض قليلا ثم بدأ يتأوه من الألم فى صرخات خافتة أول الأمر ، ثم أخذت ترتفع صاعدة من جسده المنتفض . ثم توقفت صرخات الألم ورقد بلا حراك ، فتوقف المدرب عن جلد اليهودى .

وكان الزنجى قد شارك سبارتاكوس النظر خلال شق الباب . وراحا يرقبان مايدور فى صمت .

واقترب الجنديان من التراقى يخزانه بحرابهما . فتحرك حركة يسيرة . فخلع واحد منهما مطرقة صغيرة ، لكنها ثقيلة ، معلقة فى حزامه ، وأدخل الثانى حربته تحت جسد التراقى وقلبه على ظهره .

وعند ذلك أهوى الجندى الأول بالمطرقة فى قوة هائلة على صدغ التراقى ، أهوى عليه بضربة سحقت عظام الجمجمة اللعينة . ثم حيا الجندى المتفرجين بمطرقته التى تجمد فوقها مخ التراقى المهشم . وقاد مدرب آخر فى هذا الوقت عينه حمارا إلى داخل الساحة، وكان الحمار يحمل فوق رأسه رداء مزيناً بالريش الملون ويجر وراءه سلسلة مثبتة بسرجه الجلدى . وثبتت السلسلة فى قدم التراقى بسرعة ثم وخز الجنديان الحمار بحرابهما . فدار الحمار حول الساحة يعدو بسرعة كبيرة وهو يجر وراءه الجثة الدامية والمخ يقطر منها. وهلل الرومانيون وصفقوا لهذا المشهد ، ولوحت السيدة بمنديلها الرقيق فى حبور وبهجة .

ثم قلبوا الرمال الدامية وسووها استعداداً للموسيق والرقص قبل قتال الاثنين الآخرين .

- ٨ -

وهرع باتياتوس إلى المقصورة حيث يجلس أضيافه ، ليقدم لهم اعتذاراته ، وليشرح لهم السبب ، رغم سخائهم فى الدفع ، فى إحجام اليهودى فى النهاية الأخيرة ، عن انتزاع الحياة من جسد التراقى ، وقطع شريان فى حلقه أو ذراعه كى يرسم الدم القانى الغالى النهاية الصحيحة للقتال . لكن ماريوس براكوس كان ممسكا بقنينة النبيذ فى إحدى يديه ، فلوح له بالأخرى ليسكته قائلا

– لا تنطق بكلمة واحدة يامتعهد المجالدين ، فلقد كان القتال رائعاً وفيه الكفاية .

– لكن لى صيتاً وشهرة .

– ليذهب الشيطان بشهرتك . لكن انتظر – سأقول لك شيئاً . احضر اليهودى إلى هنا ، ولا تنزل به عقاباً آخر ، فحسب الرجل أنه أحسن القتال . أليس كذلك ؟ أحضره إلى هنا .

فبدأ لوسيوس يقول .

– هنا ؟ حسن.. الواقع . .

– طبعاً . ولا تحاول أن تنظفه . ليأت كما هو .

وذهب باتياتوس ليحضر اليهودى ، فانثنى براكوس محاولا ، كما يحاول الخبير عادة ، وبنفس التظاهر بالنزول من مستواه إلى مستوى التفاهة ، أن يشرح دقة الجمال والبراعة فيما شاهدوه توا ، فقـــال :

– إذا شاهد المرء هذا مرة واحدة بين كل مائة زوج من المجالدين فهو سعيد الحظ ، فلحظة واحدة من المجد خير من ساعة مملة من المبارزة . هذا هو القتال الشهير.. إرسال العصفور إلى الموت . طائراً إلى الموت – وأية ميتة للمجالد خير من هذه ؟ تصوروا الظروف . . إن التراقى يقيس اليهودى ، ويعلم أنه متفوق عليه – فاحتج لوسيوس قائلا .

ـ لكنه أراق دمه أولا .

ـ لا قيمة لذلك فأكبر الظن أنهما لم يتقاتلا معا من قبل ولقد كان ذلك سبر الغور . إذ يجب أن يقدم كل منهما على مجموعة من الحركات ليعرف مواطن الضعف فى الآخر . فلو تساويا وتعادلا لتبارزا ، وهذا يتطلب براعة وقدرة على الاحتمال لكنهما عندما التحما ، تخلص اليهودى من الالتحام ومزق ذراع التراقى ، ولو كان الذراع هو الأيمن بدلا من الأيسر ، لا نتهى الأمر عند ذاك ، لكن التراقى كان يعلم أن غريمه يتفوق عليه ، كما حدث فعلا ، فركز كل جهوده فى طعنة .. طعنة فى الجسم . وفى وسع تسعة من كل عشرة مجالدين أن يصدوها ثم يحاولوا الالتحام ، أجل ، بل وقد يتعرضون لجرح غائر ، فى صدهم إياها . أتعرفون ما معنى صد هذا السكين وثقل جسد المقاتل كله من ورائه ؟ أتعرفون لم أرسلت فى طلب اليهودى سأريكم ..

وكان اليهودى قد ظهر فى أثناء حديثه وهو مازال عاريا تفوح رائحة العرق والدم منه ، وقد أصبح صورة رهيبة متوحشة لرجل يقف أمامهم منكس الرأس ومازالت عضلات جسده ترتعد .

وأمره براكوس قائلا .

ـ انحن .

فلم يتحرك اليهودى . فصرخ بانياتوس يقول .

— انحن .

فأمسك به المدربان اللذان كانا فى رفقته ، وأرغماه على الركوع على ركبتيه امام الرومانيين. وصاح براكوس فى انتصار وهو يشير إلى ظهر اليهودى قائلا !

— انظروا هنا — هنا ، لا تنظروا إلى آثار السوط بل انظروا حيث تمزق الجلد ، كما لو كان ظفر سيدة قد خدشه. هنا مسه سكين التراق عندما راغ من الطعنة نازلا وألقى به من فوق ظهره ، هذا هو « إرسال العصفور إلى الموت » .

ثم قال براكوس لباتياتوس .

— دعه يعش يامتعهد الجالدين ولا تجلده بالسوط بعد الآن دعه يعش تجن ثروة من ورائه وسأقوم بالدعاية له بنفسى .

ثم صاح براكوس قائلا .

— أنا أشرب نخبك أيها الجالد .

لكن اليهودى ظل على وقفته الخرساء ورأسه مدلى على صدره

— ٩ —

قال الزنجى الأسود .

— قد تبكى الحجارة وتنوح الرمال التى تخطو فوقها وتعول ألما أما نحن فلا نبكى .

فأجابه سبارتاكوس قائلا .

– نحن مجالدون .

– هل قد قلبك من صخر ؟

– أنا عبد ، وأظن أن قلب العبد يجب أن يكون حجراً او أن لا يكون له قلب على الإطلاق . إن لديك من الأشياء الجميلة ما تذكره أما أنا فكورو ، عبد تناسل من عبد ، وليس لدى أى شىء طيب أذكره . .

ولهذا تستطيع مشاهدة ماحدث دون أى تأثر ؟

فأجابه سبارتاكوس فى كآبة .

– لن يجدينى التأثر .

– أنا لا أفهمك ياسبارتاكوس ، فأنت رجل أبيض وأنا زنجى أسود ، فنحن إذن مختلفان . والرجل عندما يمتلىء قلبه حزنا فى بلادنا يبكى ، أما أنتم أيها التراقيون فقد جفت الدموع فى مآقيكم. انظر إلى ، ماذا ترى ؟

فقال سبارتاكوس .

– أرى رجلا يبكى .

– وهل ينقص هذا من رجولتى ؟ اسمع ياسبارتاكوس ، لن أقاتلك . ليذهبوا إلى الجحيم ، ولتحل عليهم اللعنة إلى أبد الآبدية . لن أقاتلك كما قلت لك .

فقال سبارتاكوس فى هدوء .

— إذا لم نتقاتل متنا معاً

— إذن فاقتلنى ياصديق . فلقد تعبت من الحياة وضقت ذرعاً بالبقاء فيها .

فطرق الجنود حائط الحظيرة صائحين :

— صمتاً هناك .

إلا أن الزنجى استدار وراح يدق الحائط بقبضتيه الضخمتين حتى اهتزت الحظيرة بأسرها . ثم توقف فجأة وجلس على الدكة وأخفى وجهه بين يديه . ومشى إليه سبارتاكوس ورفع رأسه وأخذ يجفف قطرات العرق من فوق جبينه فى حنان .

— أيها المجالد لاتصادق المجالد .

فهمس الزنجى الأسود وهو يتعذب

— ياسبارتاكوس ، لماذا يولد الإنسان ؟

— ليعيش .

— أهذا كل الجواب ؟

— إنه الجواب الوحيد .

— أنا لا أفهم جوابك ياتراقى .

فسأله سبارتاكوس فيما يشبه الضراعة :

— لماذا . . لماذا ياصديق ؟ إن الطفل يعرف هذه الإجابة

فى اللحظة التى يخرج فيها إلى النور . إنها إجابة مهلة للغاية .

فقال الزنجى الأسود :

— لكنها ليست إجابة بالنسبة لى ، وإن قلبى ليتفطر حزنا على كل من كان يحبنى .

— وسيحبك غيرهم .

فقال الزنجى

— لا أحد غيرهم . لا أحد غيرهم .

— ١٠ —

لم يعد كايوس فيما تلا من السنين يذكر فى وضوح ذلك الصباح الذى تقاتل فيه زوجان من المجادلين فى كابوا . فقد تعددت الأحداث المثيرة فى حياته ، وكانت أحداثاً مثيرة اشتراها وأدى ثمنها ، ولم يعد سبارتاكوس بالنسبة له أكثر من اسم تراقى . فقد كان الرومانيون يرون أن الأسماء التراقية متشابهة فى جرسها : جانيكوس ، سبارتاكوس ، منكوس ، فلوراكوس ، لياكوس . وكان يسع كايوس ، أن يقول وهو يروى القصة ، إن اليهودى كان هو الآخر تراقياً ، ذلك لأن انتشار الذهاب إلى المجتلد وإدمان الشعب بأسره على الساحة إدماناً شبيهاً بإدمان المخدرات ،

أكسب لفظ التراقى معنيين : الأول هو الذى يطلق على أى فرد من أفراد القبائل المائة التى تعيش فى الجزء الجنوبى من البلقان . وكان الرومانيون يكثرون من استعماله استعمالا غير دقيق لوصف أى شعب بربرى يقيم فى شرق البلقان وراء السهوب تجاه البحر الأسود . وكان المجاورون منهم لمقدونيا يتكلمون اللغة اليونانية ، إلا أن اليونانية لم تكن لغة كل من أطلق عليهم اسم تراقيين - كما لم يكن السكين المقوس السلاح الرئيسى لكل هذه القبائل .

لكن لفظ تراقى فى لغة الرياضة المستعملة فى مدينة روما ، وفى اللغة السوقية المستعملة فى الساحة ، كان يطلق على أى مجالد يستعمل السيكا وهى السكين المقوس . وعلى هذا كان اليهودى تراقيا ، لأن كابوس لم يكن يعرف أو يهمه أن يعرف أنه انحدر من سلالة الزيالوت ، الفلاحين المتوحشين ذوى الأعناق الصلبة الذين يقطنون تلال يهوذا ، والذين حملوا لواء الثورة التى لا تهمد ، وكراهية المستعمر منذ أيام المكابيين القديمة وحرب تحرير الأرض الأولى ، ولم يكن كابوس ليعرف الكثير عن يهوذا أو يهتم بها ، فاليهودى عنده تراقى اختتن ، ولقد شاهد اثنين يتقاتلان وسيتلوهما اثنان آخران عما قليل ، وهذان أكثر من الأولين غرابة وطرافة ، إلا أنه ، فيما يذكره عما أصاب الزنجى الأسود ، نسى كل شىء

عن خصم ذلك الزنجى . ومع ذلك فهو يذكر جيداً دخولهما إلى الساحة ، ومشيتهما خارجين من قفصهما ومن الظل إلى ضوء الشمس الساطع الدامى ، وخطوهما فوق الرمل الأصفر الملوث بالدماء . وطارت الطيور ، طيور الدماء ، الطيور الصغيرة الجميلة الصفراء المنقطة التى تنكت الرمل الملوث فى نهم كبير وتملأ به حويصلاتها . وهذه الطيور صفراء منقطة كالرمال ، فلما طارت بدت كحفنات من الرمال تنثر فى الهواء . ثم وقف الرجلان فى المكان المحدد . هنا .. أديا التحية لمن اشتروا لحمكما ودماءكما . هذه هى اللحظة التى تفقد فيها الحياة قيمتها ، عندما يغير العار والمهانة معنى الحياة . هذا ما وصلت إليه الحياة . إن روما سيدة العالم تتسلى بالدماء

ويستطيع كايوس أن يتذكر كيف بدا التراقى ضئيلا إلى جانب عملاق إفريقيا الأسود ، فقد نقش ذلك المنظر فى ذهنه صورة الاثنين يمتد من ورائهما الرمل الأصفر الذى يضيؤه نور الشمس ، وألواح الخشب غير المدهون التى تكون جوانب المدرج . ولكنه لايذكر ما قاله براكوس . فقد كانت كلماته قليلة ، عديمة القيمة ، محاها مر الزمن . لأن الروايات التافهة لأمثاله لاتصبح أسباباً قط ، إنما هى تبدو فى مظهر الأسباب ليس إلا ، وحتى سبارتاكوس نفسه لم يكن سبباً ، بل كان نتيجة لما كان كايوس يراه أمراً عادياً . ولم ير كايوس النزوة التى دفعت براكوس إلى تنظيم هذا العالم الوحشى الصغير

القائم على الموت لبعث البهجة فى رفيقه ، الفارغ الرأس ، العديم القيمة. لم يرها نزوة، بل رأى فيها شيئا فيه أصالة عميقة وإثارة كبيرة.

وأدى الجالدان التحية للرومانيين وهم يرشفون النبيذ ويقضمون الحلوى. ثم جاء حامل الأسلحة .. السكين لسبارتاكوس والمذراة الطويله الثقيلة ذات الأطراف الثلاثة . وشبكة صيد الأسماك للزنجى الأسود . وبدا الاثنان كالمهرجين فى عارهما وانحطاطهما الدموى . فهاهو ذا العالم بأسره قد استعبد ليتمكن هؤلاء الرومانيون من الجلوس هناك وقضم الحلوى ، وارتشاف النبيذ ، ناعمين براحتهم الظليلة فى المقصورة .

وأخذ الجالدان السلاحين ، ثم جن جنون الزنجى الأسود حينما رأى كايوس . لقد كان الجنون هو التفسير الذى استطاع كايوس أن يضفيه عليه . وذلك أنه لم يكن هو أو براكوس أو لوسيوس قد قام برحلة إلى مسقط رأس الزنجى الأسود . ولو أنهم قاموا بهذه الرحلة لأدركوا أن الزنجى الأسود لم يجن على الإطلاق . وما كانوا بمستطيعين حتى أن يدركوا بعين الخيال البيت الذى كان يملكه إلى جانب النهر ، والأطفال الذين أنجبتهم زوجته له ، والأرض التى فلحها ، وثمار تلك الأرض ، قبل أن يأتى الجنود وفى رفقتهم النخاسون ليحصدوا محصول الحياة الإنسانية ، الذى استحال بسحر ساحر إلى ذهب نضار .

وكان كل ما رأوه هو الزنجى وقد جن . رأوه يرمى بشبكته ، ويطلق صرخة حرب وحشية . ثم شاهدوه يندفع فى قوة ووحشية إلى المقعد العظيم . فحاول مدرب ممسك بسيف مجرد أن يوقفه ، لكنهم شاهدوا المدرب بعد ذلك وهو يتلوى كالسمكة فوق أسنان المذراة الثلاث الممددة ثم يقذف به فى الهواء كالسمكة ، فيدور ويدور ويصرخ فى الهواء قبل أن يصطدم بالأرض . وكان سياج يرتفع عن الأرض ست أقدام يعترض طريق الجبار الأسود ، إلا أنه مزق ألواح السياج الخشبية كأنها من ورق . لقد تبدل فى قوته ، بدلته قوته إلى سلاح نافذ يندفع إلى المقصورة التى يجلس فيها الرومانيون .

إلا أن الجنود كانوا قد بدأوا يهرعون من كل جوانب المجتلد وثبت أولهم فى مكانه ، وباعد ما بين ساقيه فوق الرمال ، ثم قذف بحربته ، الحربة الخشبية الكبيرة ذات الطرف الحديدى ، التى لا يقف فى طريقها شىء فى العالم ، والتى سوت جيوش مئات الشعوب بالأرض لكنها لم تسو الزنجى الأسود بالأرض ، فقد أصابته فى ظهره ، وغاص طرفها الحديدى فيه نافذاً من صدره حتى برز أمام جسده ، لكنها لم توقفه . وظل على اندفاعه نحو الرومانيين والقائم الخشبى الفظيع مثبت فى ظهره . ومزقت حربة ثانية جنبه ، ومع

ذلك فقد تقدم مجاهداً واخترقت حربة ثالثة ظهره ، ونفذت حربة رابعة فى عنقه . والآن ، والآن فقط وأخيراً توقف وانتهى .. ومع ذلك فقد لامست المذراة فى يده الممدودة قضبان المقصورة حيث انكمش الرومانيون فى رعب .. وهناك سقط والدماء تتفجر من جسده . وهناك مات .

لكننا يجب أن نعرف أن سبارتاكوس لم يتحرك فى أثناء ذلك كله ، فلو أنه تحرك لقتلوه ومات . فقد ألقى بسكينه إلى الرمل وظل ساكناً دون حراك . لأن الحياة نفسها هى الإجابة عن الرغبة فى الحياة .

الجـــزء الرابع

ويدور حول ماركوس تليوس شيشرون واهتمامه بأصل حرب العبيد الكبرى.

إذا كان بيت سلاريا قد ضم لفيفاً من السيدات والسادة الرومانيين ذوى الأصل النبيل ليلة ينعمون فيها بكرم سيد رومانى يملك ضيعة ، ويفكر فيها الحاضرون فى سبارتا كوس والثورة الكبرى التى قادها ، فقد كان ذلك أمراً متوقعاً . فقد جاءوا جميعاً عن الطريق الأبيوسى ، لأن غالبيتهم جاءت من الجنوب ، من روما ، وقد اتجه شيشرون شمالا فى طريقه إلى روما قادماً من صقلية حيث كان يشغل منصباً حكومياً هاماً بوصفه أحد القضاة . ولهذا حفل سفرهم من ساعة إلى أخرى بوجود رموز العقاب ، أو دلائل الآلام الصارمة التى لا ترحم ، والتى تحدث العالم بأسره أن القانون فى روما عادل ولا يعرف الرحمة .

إلا أن أقل المخلوقات البشرية إحساسا ، لم يكن ليستطيع أن يسافر على الطريق دون أن يعمل الفكر فى سلسلة المعارك الرهيبة التى دارت بين العبيد والأحرار ، والتى هزت الجمهورية الرومانية من قواعدها ، بل هزت العالم الذى كانت تحكمه الجمهورية الرومانية بأسره . ولم يعد أى عبد فى أية مزرعة ليستطيع النوم هادئاً مرتاحا وهو يفكر فى ذلك العدد الهائل من زملائه العبيد المعلقين فوق الصلبان التى لا حصر لها . وأصبح هذا الصلب بالذات مصدراً لثورة قوية اجتاحت الريف بأسره هى الشعور بآلام ستة آلاف عبد ماتوا فى بطء شديد وقسوة بالغة . وكان ذلك طبيعياً متوقعاً ،

وكان طبيعياً ومتوقعاً كذلك أن يتأثر به شاب مفكر مثل ماركوس تليوس شيشرون .

ويجدر بنا أن نلحظ ، فيما يختص بشيشرون ، أن رجالا من شاكلة أنطونيوس كايوس قدحادوا عن خطتهم فى الحياة ، ليقدموا له من التبجيل فوق ما يليق بأعوامه الاثنين والثلاثين .

ولم يكن السر فى ذلك هو نسبه أو مقام أسرته ، أو حتى سحره الشخصى ، أوصفة تدفع إلى التقرب منه أو التودد إليه. ذلك أن أصدقاء شيشرون أنفسهم لم يكونوا يرونه رجلا ساحر الشخصية بنوع خاص . نعم إن شيشرون كان ماهراً حقاً ، لكن كثيراً غيره كانوا فى مثل مهارته . بل كان شيشرون بنوع خاص ، من أولئك الشباب ـ الموجودين فى كل عصر ـ القادرين على الإطاحة بكل مبدأ وتحطيم كل قاعدة أخلاقية ، وكل ما فى الأخلاق السائدة ومتئذ من اضطراب ، وتحطيم كل دافع إلى تحرير الضمير أو تخفيف الجرم ، وكل دافع إلى الرحمة أو العدالة إذا كان ذلك يعترض طريقه إلى النجاح . ولم يكن يفهم من هذا أنه لا يهتم بالعدالة والأخلاق والرحمة ، فقد كان يهتم بها ، ولكن اهتمامه كان ينصب على استغلالها لتقدمه الشخصى ، ولم يكن شيشرون مجرد شخص طموح ، لأن الطموح المجرد يحوى عناصر عاطفية . إنما كان شيشرون معنيا بالنجاح المصحوب بالدهاء والمجرد من العاطفة ـ وإذا ما أخطأ

فى تقديره أحيانا . فلم يكن ذلك أيضاً من الأمور غير المعتادة . . فى أمثاله من الرجال .

لكنه لم يكن قد أخطأ فى تقديره حتى ذلك . فقد كان أعجوبة الشباب : اشتغل بالقانون وهو فى الثامنة عشرة . واشترك وهو فى سن العشرين فى حملة عسكرية كبيرة - لا لشىء إلا سعياً وراء المنزلة الرفيعة ودون أن يعرض نفسه للخطر - وخطا وهو فى الثلاثين إلى منصب إدارى هام فى الحكومة . وكان الكل يقرأ رسالاته وأبحاثه فى الفلسفة والحكم ، وخطبه ويعجبون بها . وإذا كان قد استعار مادتها الجزيلة من سواه ، فقد كان الناس أجهل من أن يعرفوا المصدر الذى سرقها منه . وكان يعرف أكثر الناس فائدة له ، ويعنى بتقديرهم حق قدرهم . ولا عجب فى هذا فقد كان معظم الناس فى روما حينذاك يجرون وراء توطيد العلاقات بذوى النفوذ . وكانت فضيلة شيشرون الأولى ، أنه لم يكن ليسمح لأى شىء بأن يؤثر فى علاقاته بأكثر الناس فائدة له .

وقد كشف شيشرون منذ زمن بعيد ما بين العدالة والأخلاق من فرق كبير . فقد تبين أن العدالة أداة فى يد الأقوياء يستغلونها وفق هواهم . أما الأخلاق فهى أداة وهم الضعيف ، فالرق مثلا عدل ، والحمق وحدهم - كما يرى شيشرون - هم الذين يجادلون فى أنه يتفق مع الأخلاق الطيبة . وكان فى مقدوره خلال

سفره شمالا على طول الطريق أن يقدر الآلام الرهيبة التى عاناها المصلوبون الذين لا حصر لهم . لكنه لم يكن يسمح لنفسه بأن تتأثر بذلك . وكان يعمل حينذاك - وكنت تجده على الدوام يكتب شيئاً - فى كتابة رسالة قصيرة عن سلسلة حروب العبيد التى هزت العالم بأسره . فكان لذلك كبير الاهتمام بالأمثلة المختلفة من العبيد المعلقين على طول الطريق الأبيومى ، وهو قد علم نفسه أن تجيد الاهتمام بالشىء دون التورط فيه أو الارتباط به . ولذلك استطاع ، دون أن يحس باشمئزاز أو شفقة ، دراسة النماذج المختلفة من العبيد الغاليين ، والإفريقيين ، والتراقيين ، واليهود ، والألمان ، أو اليونان الذين كانوا يمثلون جماعة المصلوبين ، وخطر له أن الشعور القوى بالعطف على هؤلاء العبيد ، وهو الشعور الذى انتشر حينذاك ، إنما هو انعكاس لتيار جديد عارم ظهر إلى الوجود فى هذا العالم - تيار له فروع ستمتد إلى أجيال لم تولد بعد . لكنه دار بخلده كذلك أن من يستطيع - فى عصره هذا بالذات - أن يتأمل ويحلل ويفسر فى هدوء هذا المظهر الجديد المتمثل فى ثورات العبيد ، يصبح فى موقف فريد فى قوته . وشيشرون لا يكن إلا الاحتقار لكل من يكره ، دون فهم الحاجات الموضوعية لمن ينصب عليهم ذلك الكره .

كانت هذه بعض صفات شيشرون ، رآها البعض ولم يرها

البعض الآخر ، ولم ترها كاوديا عندما وصلت إلى بيت سالاريا الريفى فى ذلك المساء ، ذلك أن أكثر ما تفهمه كاوديا من أنواع القوة هو أقلها تعقيداً أما هيلينا فقد أدركت صفات شيشرون هذه وأدت لها حقها من الإجلال والتعظيم ، وكأن عينيها كانتا تقولان لشيشرون . . أنا ملك . فهل تتابع هذا؟

وبينما كان أخوها يرقد فى سريره فى انتظار وصول قائد كبير ، سعت هى بنفسها إلى غرفة شيشرون . وكانت مليئة بالكبرياء الماكر المرأة التى تحتقر نفسها لغريزتها الجنسية ، ومع ذلك فهى تجد راحة فيها . لكنها عجزت عن تفسير شعورها بالضآلة أمام هذا الرجل المنحدر من أسرة من الطبقة الوسطى العالية المرتقبة عن طريق المال . ولم تكن لتستطيع الاعتراف ، حتى بينها وبين نفسها ، بأنها ستقدم على طائفة من الأعمال ، ستكره نفسها من أجلها ، قبل انقضاء المساء .

ومع ذلك فقد كانت هيلينا تمثل لشيشرون نوعا من النساء هو كثير الرغبة فيه . فقامتها الطويلة القوية ، وملامحها المستقيمة الجميلة ، وعيناها الحالكتا السواد ، كانت تمثل له كل الصفات المميزة للدم النبيل ، وفيها يتركز الهدف الذى عملت طبقته جاهدة خلال أجيال وأجيال للوصول إليه ووجدته مع ذلك على الدوام مستحيل المنال ، وأرضاه بصفة خاصة ، أن يجد وراء هذا المظهر

الخارجي ، الصفات التي تدفع بامرأة إلى غرفة رجل في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل لهدف محدد واضح .

وكان من النادر في ذلك الوقت ، أن تجد رومانياً يواصل العمل بالليل . فقد كان التطور الغريب في عدم توازنه لذلك المجتمع ، يتمثل في أكثر مظاهر ضعفه في الإضاءة الصناعية . فكانت المصابيح الرومانية ضعيفة واهنة ، ترهق أعصاب العينين ، وكان أقوى ما يصدر عنها وهج أصفر حائل . لذلك كان العمل ليلا ، وخاصة بعد شرب الكثير من الخمر وتناول الكثير من الطعام ، مظهراً خاصاً من مظاهر الشذوذ المثير للإعجاب أو الشكوك ـ حسب حالة الشخص القائم بالعمل . وكان ما يثيره في حالة شيشرون هو الإعجاب به . فهو الشاب المدهش العجيب . وعندما دخلت هيلينا إلى غرفته ، وجدت هذا الشاب المدهش يجلس مطوى الساقين فوق مرقده وفي حجره لفافة طويلة من الورق مبسوطة يخط فيها ويصحح . وكان من الجائز أن تشك امرأة أكثر منها سناً في أنه قد اتخذ هذه الجلسة عن تكلف ، لكن هيلينا كانت في الثالثة والعشرين ليس إلا ، وكان المنظر تأثيره المطلوب فيها . فالزعيم في السلم والقائد في الحرب ، كان لا يزال معتبراً امتدادا للقصص القديمة التي ورد فيها ذكر الرومانيين الذين قيل إنهم لا ينامون إلا ساعتين أو ثلاث ساعات من الليل ، ويكرسون بقية وقتهم

للشعب . وكانت تحيط بهم هالة من القداسة ، فأعجبتها فكرة أن ينظر إليها رجل مقدس كما ينظر إليها شيشرون .

وقبل أن تفرغ حتى من إغلاق الباب ، كان شيشرون قد أومأ إليها برأسه أن تجلس على طرف المرقد البعيد ـ وكان ذلك ضروريا إذ لم يكن بالغرفة مكان آخر مريح للجلوس ـ ثم تابع عمله . فأغلقت هي الباب وجلست على طرف المرقد .

وبعد ؟ فقد كان مما يثير العجب بالنسبة لهيلينا الشابة أنه لا يوجد رجلان يتحدان فى طريقة سعيهما إلى المرأة . لكن شيشرون لم يسع إليها على الإطلاق . فسألته بعد أن طالت جلستها هناك إلى ربع الساعة أو ما يقرب من ذلك قائلة :

ــ ماذا تكتب ؟

فنظر إليها نظرة المستفسر . فقد ألقت بسؤالها فى عجلة كأنها تقوم بواجب بغيض لكنها تقصد به فتح باب الحديث . وكان شيشرون يرغب فى الحديث ، فهو كمعظم الشباب من شاكلته ـ ينتظر على الدوام المرأة التى تفهمه ـ وهذا يعنى المرأة التى تستطيع أن تغذى نزعته الفردية كما يجب . وسأل هيلينا قائلا

ــ لم تسألين ؟

ــ لأننى أريد أن أعرف .

فقال فى تواضع

ــ أكتب رسالة عن حروب العبيد .

— أتعنى تاريخا لها ؟

وكان تدوين التاريخ فى ذلك الوقت على أيدى السادة الأرستقراطيين ذوى الفراغ آخذاً فى الانتشار . فكنت كثيراً ما تجد شخصاً حديث الأرستقراطية يعمل فى همة على تلفيق التاريخ القديم للجمهورية ليربط بين الأحداث الكبيرة وبين أسلافه وأجداده . فأجابها شيشرون جاداً .

— ليس تاريخاً .

ونظر إلى الفتاة فى جد وثبات ، وهى طريقة خاصة به يستطيع بها أن ينقل إلى محدثه شعوراً بصدقه ونزاهته يناقض حقيقة ادعائه وتظاهره . ومضى يقول :

— فالتاريخ يقوم على سرد الأحداث حسب تاريخ وقوعها . لكننى أكثر اهتماما بالظاهرة نفسها ، والتطور فى حد ذاته . فلو أن أحدا تطلع إلى هذه الصلبان ، رموز العقاب هذه التى تقوم على جانبي الطريق الأبيوسى ، فلن يستطيع إلا رؤية أجساد ميتة لستة آلاف رجل . وقد ينتهى المرء إلى أننا نحن الرومانيين شعب محب للانتقام . ولا يكفى أن نقول إننا شعب عادل نتوسل بضرورة إقرار العدالة . بل يجب أن نشرح ونفسر ، حتى لأنفسنا ، منطق هذه العدالة ويجب أن نفهمها ولم يكن كافياً أن يقول القائد أو الزعيم : يجب تحطيم قرطاجنة فهذا تحزب منا لزعيمنا . لأنى أنا نفسى

أطالب بأن أفهم لماذا يجب تحطيم قرطاجنة ، ولماذا يجب إعدام ستة آلاف عبد بهذه الطريقة .

فابتسمت هيلينا وقالت

— يقول البعض إنهم لو عرضوا فى الأسواق دفعة واحدة لضاعت ثروات طائلة .

وأجابها شيشرون قائلا

— هذا قول فيه قليل من الصدق وكثير من البعد عن الصدق ، وأنا أريد أن أنفذ إلى ماوراء السطحيات . أريد أن أعرف معنى ثورة العبيد . فلقد أصبح الضلال هواية رومانية كبيرة ، ولست أريد أن أضلل نفسى بنفسى فنحن نتحدث عن هذه الحرب وعن الحملات الكبيرة ، وعن القادة العظام ، لكن ليس فينا من يريد حتى أن يهمس بكلمة عن الحرب الدائمة فى عصرنا والتى تحجب ما عداها من الحروب ، ألا وهى حرب العبيد ، أو ثورة العبيد . وحتى القادة المسئولون عنها يعملون على كتمان أنبائها وإسكات كل متحدث عنها . لأن حرب العبيد لا مجد فيها ، ولا مجد فى هزيمة العبيد .

— لكنها ، بكل تأكيد ، ليست أمرا له كل هذه الخطورة .

— لا ؟ ألم تكن الصلبان أمراً خطيرا لديك وأنت قادمة على الطريق الأبيومى ؟

— لقد كانت أمراً يبعث على الغثيان فأنا لا أحب النظر إلى مثل هذه الأشياء ، وإن كانت صديقتى كوديا تحب ذلك .

— ومعنى هذا بعبارة أخرى أن لها خطرها

— لكن كل إنسان يعلم بأمر سبارتا كوس وحروبه .

— أحق هذا ؟ إنى أشك فى ذلك . بل وأشك أيضاً فى أن كراسوس نفسه يعرف عنها الكثير . فسبارتا كوس سر غامض بالنسبة لنا والتقارير الرسمية تقول إنه كان جنديا تراقيا ماجوراً وقاطع طريق . بينما يقول كراسوس إنه عبد ابن عبد جاء من مناجم الذهب فى بلاد النوبة . فأيهما نصدق ؟ وقد مات باتياتوس ، الخنزير الذى كان يملك معهد المجالدين فى كابوا ـ ذبحه عبد يونانى كان يعمل كاتباً للحسابات عنده ـ كذلك مات أو رحل كل من كانت له صلة بسبارتا كوس . فمن يكتب عنه إذن ؟ أفراد مثلى ؟

فسألته هيلينا قائلة

— ولم لا يكتب عنه أفراد مثلك ؟

— شكراً لك يا عزيزتى . لكنى لا أعرف شيئاً عن سبارتا كوس . وكل ما فى الأمر أنى أكرهه .

— إن أخى يكرهه هو الآخر .

— وأنت ألا تكرهينه ؟

فقالت هيلينا

— لا أحس نحوه شيئاً بالذات . فما هو إلا عبد .

— وهل حق أنه لم يكن إلا عبدا ؟ وكيف يتسنى لعبد أن يصبح ما أصبحه سبارتاكوس ؟ هذا هو السر الذى يجب أن أصل إلى تفسير له . وأن أكتشف أين بدأ . لكنى أخشى أن أكون قد بعثت الملل إلى نفسك .

وكان يحيط بشيشرون جو من الإخلاص يحسه الناس ويؤمنون به ويحملهم على الدفاع عنه ضد كل التهم التى وجهت إليه فيما بعد .

وقالت هيلينا

— أرجو أن تواصل حديثك .

فقد كان الشبان الذين عرفتهم فى روما ، والذين كانوا فى مثل سن شيشرون ، يتحدثون عن أحدث أنواع العطور ، وعن المجالد الذى يراهنون عليه ، أو الجواد الذى يمتطونه ، أو أحدث محظية . فقالت

— أرجوك ، تابع حديثك .

فقال شيشرون

— أنا لا أثق ثقة كاملة بالخطابة . بل أفضل أن أدون الأشياء لتأخذ مكانها الطبيعى . وأخشى أن يكون رأى معظم الناس مثل رأيك وهو أن ثورة العبيد ليست بذات خطر كبير . لكن حياتنا

كما ترين وثيقة الاتصال بالعبيد ، وثورة يقوم بها العبيد تتسبب في حروب أكثر مما تسببه جميع فتوحنا ، فهل تصدقين ذلك ؟

فهزت رأسها :

— أستطيع أن أثبت ذلك كما تعلمين لقد بدأت ثورة العبيد منذ مائة وعشرين عاما عندما ثار العبيد الذين أسرناهم في قرطاجنة ثم حدثت بعد جيلين، ثورة العبيد الكبرى في مناجم لوريام في بلاد اليونان ثم قامت الثورة الضخمة في مناجم أسبانيا . وبعد سنوات قليلة حدثت ثورة العبيد في صقلية، وهي الثورة التي هزت الجمهورية من قواعدها. ومرت سنوات عشرون ، نشبت بعدها حرب العبيد التي قادها العبد سالفيوس . وليست هذه إلا الحروب الكبرى . وقد تخللتها مئات من الثورات أقل منها شأنا ـ وهكذا تصبح المسألة كلها حربا واحدة متصلة لانهاية لها بيننا وبين عبيدنا، حربا صامتة، حربا مخزية لا فخر فيها ، ولا يتكلم عنها إنسان ،ويرفض المؤرخون تسجيلها. نحن نخاف تسجيلها ، ونخاف النظر إليها لأنها شيء جديد على هذا العالم . فالحروب تقع بين الشعوب ، وبين المدن ، وبين الأحزاب ، وحتى بين الإخوة ـ لكن هذا وحش جديد يعيش فينا من الداخل ، في داخل أحشائنا ويحارب كل الأحزاب ، وكل الشعوب ، وكل المدن .

فقالت هيلينا

– أنت تفزعني. أتدرى أية صورة أنت ترسمها؟

فأحنى شيشرون رأسه موافقاً وراح يتأملها متفحصاً وكان التأثر قد بلغ بها حداً دفعها إلى أن تضع يدها فوق يده. وأحست شعوراً دافقاً غنياً بالحرارة يدفعها إليه. فهاهو ذا أمامها شاب، لايكبرها كثيراً، شديد الاهتمام بأمور تتصل بمصير الشعب ومستقبله. وذكرها ذلك بالقصص التى سمعتها عن العصور القديمة. قصص طفولتها التى غامت ذكراها. ووضع شيشرون مخطوطه جانبا، وبدأ يربت على يدها فى رقة. ثم انحنى وقبلها. وفى هذه اللحظة استرجعت صور رموز العقاب واضحة جلية ولحم الرجال المصلوبين المتعفن الذى نهشته الطيور وجففته الشمس على طول الطريق الأبيوسى. فى تلك اللحظة وحدها فقدت هذه الصلبان عنصر الرعب فيها، فقد برر شيشرون وجودها، لكنها وللأسف، لم تستطع استرجاع مضمون ذلك التبرير.

– ٣ –

نامت هيلينا أخيراً نتيجة للإعياء الشديد والاضطراب العاطفى وتحول كابوس اليقظة الذى يتمثل دائماً فى علاقاتها بالرجل إلى حلم غريب مزعج. جمع بين الواقع والخيال بطريقة تجعل من العسير الفصل بينهما. فقد استرجعت فى حلمها يوم كانت تسير فى شوارع

روما مع أخيها كايوس ، وأشار إلى انتولوس باتياتوس متعهد المجالدين ، وكان ذلك منذ سبعة أشهر تقريباً وقبل أن يذبح كاتب الحسابات اليونانى باتياتوس بأيام قليلة - فى عراك حول امرأة اشتراها اليونانى بنقود سرقها المتعهد ، كما جاء فى أقاويل الناس . وكان باتياتوس قد ذاع صيته بعض الذيوع نتيجة صلته بسبارتاكوس ، وكان يومئذاك فى روما ليدافع عن نفسه فى قضية خاصة بأحد سكان منازله . وكان قد انهار فقاضته أسرة ستة ممن ماتوا تحت الأنقاض .

استرجعته فى حلمها واضحاً وفى صورة عادية ، ضخماً ، مترهلاً نتيجة للإفراط فى الأكل والإسراف فى الملاذ ، يرفض استئجار محفة ويسير فى الطريق ملتفعاً بعباءة كبيرة ، يتمخط فى صوت مرتفع ، ويبصق بلا انقطاع ، ويدفع عنه أبناء الشوارع ممن يسألون المارة بعصا يحملها . وفى وقت متأخر من نفس اليوم ، وقفت هى وكايوس فى السوق العامة ، وتصادف أن ذهبت إلى المحكمة التى كان باتياتوس يدافع أمامها عن نفسه . حدث هذا فى الحلم كما حدث فى الحياة تماماً . فقد كانت المحكمة منعقدة فى الهواء الطلق ، مزدحمة بالمشاهدين والمتسكعين والنساء اللواتى لا شىء يشغلهن ، وشباب المدينة ، والأطفال ، وأغراب من أقطار أجنبية لا يستطيعون مبارحة المدينة قبل مشاهدة العدالة الرومانية الشهيرة

وعبيد فى طريقهم من أعمالهم وإليها - وكانت معجزة فى الحقيقة أن يمكن استخلاص أى شىء معقول . ولا أقول عدالة فى مثل هذا الحشد ، لكن هذه هى الطريقة التى كانت تعمل بها المحاكم أسبوعا بعد أسبوع . وكانت المحكمة تستجوب باتياتوس ، وكان هذا يجيب عن الأسئلة فى صوت هادر كخوار الثور . وكانت ترى كل ذلك فى الحلم كأنها تمر بها فى اليقظة .

ثم وجدت نفسها ، كما يحدث فى الأحلام ، تقف دون سبب تعلمه فى غرفة نوم متعهد المجالدين ترقب كاتب الحسابات اليونانى وهو يقترب منها وفى يده سكين مسلول . وكان السكين هو السلاح المقدس الذى يستعمله التراقيون فى القتال . وكانت أرض الغرفة ساحة قتال أورمال لأن الكلمة تؤدى المعنيين فى اللغــة اللاتينية . وعبر اليونانى الرمال فى خطوات قصيرة فيها كل تحفز التراقى الحذر ، بينما راح متعهد المجالدين الذى كان قد استيقظ وجلس فى مرقده يرقبه فى رعب ، لكن الاثنين لم يصدرا صوتاً أو كلمة . وفجأة ظهر عملاق هائل إلى جانب اليونانى وهو رجل ضخم الجثة ، برنزى اللون ، كامل السلاح وعرفت هيلينا على الفور أن هذا هو سبارتاكوس ، وقبضت يده على رسغ كاتب الحسابات وضغطت قليلا فسقطت السكين على الرمال ثم أومأ العملاق البرنزى الجميل الذى كان سبارتاكوس ، برأسه لهيلينا والتقطت هى السكين

وذبحت المتعهد . وعندئذ اختفى اليونانى ومتعهد المجالدين ووجدت نفسها وحيدة مع المجالد لكنه بصق فى وجهها عندما فتحت ذراعيها له ، واستدار على عقبيه وابتعد عنها ، فجرت خلفه وهى تنتحب وتستحلفه أن ينتظرها ، لكنه كان قد اختفى . وتركها وحيدة فى مساحة لا حدود لها من الرمال .

— ٣ —

كانت ميتة باتياتوس ، متعهد المجالدين ميتة فظيعة رخيصة ، فقد قتله عبد من عبيده ولعله كان ينجو منها ومن كثير من غيرها من الأشياء ، لو أنه أعدم المجالدين اللذين بقيا بعد العرض الفاشل لقتال زوجين يوم أعده لبراكوس . ولو أنه فعل ذلك ، لكان يستعمل حقاً من حقوقه فقد كان إعدام المجالدين ومثيرى الشغب أمراً معترفا به . لكن الأمر الذى هو موضع للشك هو هل كان إعدام سبارتاكوس يغير وجه التاريخ كثيراً ؟ ، ذلك أن القوى التى حفزته للثورة كانت ستتجه وجهة أخرى . ولم تكن أحلام باتياتوس أثناء نومه لتدور كلها حول شخصه بقدر ما كانت ذكريات تخضبها الدماء وآمال يشاركه فيها الكثير من أبناء مهنته ، المجالدين رجال السيف ، كما حدث فى حلم هيلينا ، الفتاة الرومانية فى أثناء نومها المعذب بالخطيئة فى بيت سالاريا الريفى بعد ذلك بزمن طويل . ذلك أن حلمها

لم يدر كله حول باتياتوس بالذات . بل دار حول العبد الذى يشهر السيف فى وجه سيده . ولعل فى هذا الجواب عن كل من لم يستطع فهم كيف أفرخت خطة سبارتاكوس لأنها لم تفرخ على يد فرد واحد بل على أيدى الكثيرين .

وجلست فارينيا ، الفتاة الألمانية ، زوجته ، إلى جواره وهو نائم وقد أيقظتها أناته وحديثه المتفزع فى أثناء نومه . كان يتحدث عن كثير من الأشياء العظيمة : فهو الآن طفل ، وهو الآن فى مناجم الذهب ، وهو الآن فى المجتلد ، وهذا هو السكين المقوس وقد شق لحمه ، فيصرخ هو من الألم .

فإذا حدث ذلك أيقظته ، لأنه لم يعد فى استطاعتها تحمل المزيد من الكابوس الذى كان يعيش فيه خلال نومه . أيقظته وهى تربت على جبهته ، وتقبل جسمه المبلل بالعرق . وكانت فارينيا ترى وهى فتاة صغيرة ما يحدث للرجال والنساء فى قبيلتها عندما يتبين الواحد منهم حبه للآخر وكان ذلك يسمى الانتصار على الخوف . حتى الشياطين والأرواح الشريرة التى تعمر الغابات الكبيرة حيث يعيش شعبها ، كانت لا تعرف أن المحبين يعرف الخوف سبيله إليهم . وكنت تستطيع أن ترى ذلك فى أعين المحبين ، وفى مشيتهم ، وفى الطريقة التى تتشابك بها أصابعهم لكنها نسيت هذه الذكريات بعد الوقوع فى الأسر ، وأصبحت الغريزة الأولى لوجودها هى الكراهية .

أما الآن فقد استحال وجودها بأسره ، والحياة الكامنة فيها وكيانها وحياتها ووظائفها العضوية ، وحركة الدم فيها ودقات قلبها استحالت كلها حبا لهذا العبد التراقى . فهى الآن تدرك أن تجارب الرجال والنساء فى قبيلتها كانت صادقة كل الصدق . قديمة كل القدم ، معبرة كل التعبير ، فهى بعد لم تعد تخاف أى شىء على ظهر الأرض . وهى تؤمن بالسحر ، وقد تحقق سحر حياتها وأثبت وجوده . وأدركت فى نفس الوقت أن من اليسير الوقوع فى هوى رجلها ، فهو من المخلوقات البشرية النادرة المنسوجة من نسيج واحد . وكان هذا أول ما رآه الإنسان فى سبارتاكوس : كماله بنفسه فهو كل لا يتجزأ وهو إنسان قد راض قانع لا بيئته بل بنفسه من حيث هو كائن آدمى حتى فى هذا العش الذى يضم رجالا رهيبين ، يائسين ، مقضيا عليهم — حتى فى معهد القتل هذا الذى يضم القتلة المحكوم عليهم بالإعدام - والفارين من الجيش ، والأرواح الضالة ، وعبيد المناجم الذين عجزت المناجم عن تحطيم روحهم حتى هنا كان سبارتاكوس محبوباً ومكرماً ومحترماً . لكن حبها له كان شيئاً آخر . كان هو جوهر الرجال ، وكيان الرجال بالنسبة للنساء . لو أنها كانت مثالا وأرادت أن تصنع تمثالا لرجل ، لكان كل ما فيه هو الطراز الخاص الذى يجب أن يكون عليه الرجال . فأنفه المكسور وعيناه الواسعتان الداكنتان ، وفمه الممتلئ المتحرك غير ما عرفت من وجوه الرجال

فى طفولتها . ومع ذلك فهى لا يمكن أن تتصور نفسها تقع فى حب رجل ليس كسبارتاكوس .

ولم تكن تدرى لم كان كما هو لقد أمضت وقتاً طويلا فى خدمة الأرستقراطية الرومانية المثقفة المهذبة مكنها من معرفة حقيقة رجالها ، أما لم يصبح عبد على ما عليه سبارتاكوس ، فهذا ما لا تعرفه .

إن يديها الآن تطمئنانه وهى تسأله .

— بماذا كنت تحلم ؟

فهز رأسه .

— ضمنى إليك فلا تعود إلى الحلم من جديد .

فقربها إليه وهمس يسألها .

— ألا تفكرين أبداً فى أننا قد نفترق ؟

— بلى .

فسألها قائلا .

— وماذا تفعلين عندئذ ياعزيزتى ؟

فأجابته فى بساطة وصراحة .

أموت .

فقال وقد أفاق نهائياً من حلمه وعاد إليه هدوءه .

— أريد أن أحدثك عن ذلك .

ـ ولماذا تفكر فى ذلك أو تتكلم عنه ؟

ـ لأنك إذا كنت تحبيننى حقا فلن ترغبى فى الموت إذا مت أنا أو فرقوا بيننا .

ـ أهذا رأيك ؟

ـ أجل .

فسألته قائلة .

ـ وإذا مت أنا ألن ترغب فى الموت ؟

ـ بل سأرغب فى الحياة .

ـ لماذا ؟

ـ لأنه لا وجود لشىء بدون الحياة .

فقالت .

ـ ولا وجود للحياة بدونك .

ـ أريد أن تعدينى وعدا تحافظين عليه .

ـ إذا وعدت حافظت على وعدى وإلا فلا أعد .

فقال سبارتاكوس .

ـ أريدك أن تعدى بأنك لن تضعى حدا لحياتك بنفسك

فلم تجب وظلت صامتة بعض الوقت

هل تعدين ؟

وفى النهاية قالت .

أعدك .

وبعد قليل كان ينام فى هدوء ورقة .

- ٤ -

ودعاهم قرع الطبول فى الصباح إلى التدريب . فقد كانت أربعون دقيقة من التدريب البسيط المزدوج فى فناء التمرين تسبق وجبة الصباح . وكانوا يعطون كل رجل بعد استيقاظه قدحا من الماء البارد : يفتحون باب حجرته الصغيرة ، فإذا كانت معه امرأة سمحوا لها بتنظيف الحجرة قبل ذهابها للعمل ضمن عبيد المعهد، لأن مؤسسة لنتولوس باتياتوس لا تعرف التبذير . فنساء المجالدين يغسلن الأرض ، وينظفنها ، ويطبخن ، ويفلحن حدائق المطبخ ، ويعملن فى الحمامات ، ويرعين المعز . وكان باتياتوس يقسو على هؤلاء النسوة كأى سيد أومالك لضيعة ، يستعمل السوط فى حرية ووفرة ، ويطعمهن العصيدالرخيص. لكنه كان يخاف سبارتا كوس وفارينيا خوفا فيه حب استطلاع ، ولو أنه كان يعجز عن تفسير ما يخافه فيهما ولماذا يخافه .

بيد أنه قد سادت المدرسة فى هذا الصباح الذى لا ينسى روح من نفاد الصبر والكراهية تمثلت فى طبول الإيقاظ ، وفى الطريقة

التى أخرج بها المدربون الرجال من غرفهم إلى فناء التمرين ، وفى صفهم فى مواجهة السور الحديدى حيث صلبوا الإفريقى الأسود بعد موته . وساقوا النساء إلى أعمالهن بالسوط وبنفس الكراهية العصبية التى ساقوا بها الرجال . ولم يخافوا فارينيا فى ذلك الصباح ، ولم يخف وقع السوط عليها عنه على غيرها . واختصها الملاحظ بتعليقات خاصة . وهوى عليها السوط مرات أكثر من غيرها وهى تعمل فى المطبخ حيث ساقوها .

وكان غضب باتيانيوس هو الذى ساد المكان ، وهو غضب عميق مرتعد نتج عن الشىء الوحيد الذى ينجح إلى حد كبير فى إغضاب متعهد المجالدين ، وهو الخسارة المالية . ذلك أن براكوس قد امتنع عن دفع نصف الأجر المتفق عليه . وبالرغم من أن ذلك سيؤدى إلى مقاضاته ، فقد كان باتيانوس يعرف ماهى الفرص التى تتاح له لكسب قضية ضد أسرة رومانية كبيرة وأمام محكمة رومانية . وظهرت نتائج غضبه فى كل ناحية من المكان . ففى المطبخ لعن الطباخ النساء واستغل ماله من سلطان فانهال عليهن ضربا فى أثناء العمل بعصاه الخشبية الطويلة . وانهال المدربون بالسياط على المجالدين كما انهال عليهم سيدهم بسوط من قبل ، ومددوا الزنجى الأسود فى موته على سياج الفناء ليواجه المجالدين وهم ينتظمون لتمرين الصباح .

وأخذ سبارتاكوس مكانه وجانيكوس إلى جانبه . وفى الجانب الآخر عبد من غاله يدعى كريكوس . انتظموا فى صفين عموديين على واجهة بيت العبيد . وكان المدربون الواقفون أمامهم مسلحين هذا الصباح بأسلحة ثقيلة ولهذا الغرض خاصة وهى السكين والسيف وفتحت أبواب الفناء ودخلت أربع جماعات من القوات النظامية أربعون من الرجال ، ووقفوا وقفة الانتباه ، وهراواتهم الخشبية الضخمة تتأرجح فى قبضاتهم إلى جانب أجسادهم . وأغرقت شمس الصباح الرمال الصفراء ومست الرجال بحرارتها ، لكن سبارتاكوس كان خالياً من كل حرارة . وعندما همس جانيكوس يسأله هل يعرف معنى كل ما يدور حولهم هز رأسه فى صمت .

وسأله الفتى الغالى قائلا

— هل قاتلت ؟

— لا . .

— لكنه لم يقتل أحدا منهم . وإذا كان لا بد للإنسان أن يموت ، ففى وسعه أن يختار ميتة خيرا من هذه .

فسأله سبارتاكوس قائلا

— وهل تطمع فى ميتة خير من هذه ؟

فقال كريكوس الغالى

— إنه سيموت ميتة الكلاب وكذلك أنت . ستموت فوق

الرمال مفتوح البطن . وكذلك أنت .

وكانت هذه هى اللحظة التى بدأ فيها سبارتا كوس يدرك ما يجب عليه عمله . أو لعل الأفضل أن نقول إن الإدراك الذى عاش فيه منذ زمن طويل بدأ يتجسد ويتحول إلى حقيقة . والحقيقة بداية ليس إلا ؛ فالحقيقة بالنسبة له لن تصبح أكثر من بداية ، أما نهايتها أو لا نهايتها ، فتمتد إلى المستقبل الذى لم يولد بعد لكن الحقيقة كانت تتصل بكل ما أصابه وأصاب الرجال المحيطين به ، وبكل ما سيحدث فيما بعد . وأخذ يحدق إلى جسد الزنجى الضخم المعلق فى الشمس والجلد واللحم ممزقان حيث اخترقتهما الحراب والدم متجمد جاف ، ورأسه بين كتفيه العريضتين .

وقال سبارتا كوس فى نفسه . . ألا ما أشد احتقار هؤلاء الرومانيين للحياة ، وما أسهل القتل عندهم ، وما أعظم ابتهاجهم الخبيث بالموت . ثم سأل نفسه قائلا . . وأى شىء يمنعهم من هذا مادامت حياتهم كلها تقوم على دماء أمثاله وعظامهم ؟ إن للصلب سحراً خاصا لديهم . فقد جاء إليهم من قرطاجنة حيث اتخذ القرطاجنيون الصلب ليكون الميتة الوحيدة الملائمة للعبد . ثم أصبح شيئاً محبوباً حيثما امتد سلطان روما .

ثم دخل باتياتوس إلى فناء التمرين . وسأل سبارتا كوس الغالى الواقف بجواره وهو لا يكاد يحرك شفتيه قائلا :

— وكيف تموت أنت ؟

— نفس ميتتك يا تراقى .

فقال سبارتاكوس متحدثاً عن الزنجى الميت

— لقد كان صديقا لى . وكان يحبنى .

— وهذه نقمتك .

وأخذ باتيانوس مكانه أمام الصف الطويل من المجالدين ، وتجمع الجنود وراءه . ثم قال متعهد المجالدين :

— أنا أطعمكم ، أطعمكم خير ألوان الطعام ؛ المشويات والدجاج والسمك الطازج . أطعمكم حتى تنتفخ بطونكم ، وأزودكم بالحمامات والتدليك . لقد انتشلت غالبيتكم من المناجم والمشانق وأصبحتم تعيشون هنا كالملوك على ثمار الأرض لا تعملون شيئاً . ولم يكن هناك درك أحط مما كنتم فيه قبل مجيئكم إلى هنا ، لكنكم الآن تحيون فى راحة وتأكلون خير الأطعمة .

وهمس سبارتاكوس يقول

— هل أنت صديق لى ؟

فأجابه الغالى وهو لا يكاد يحرك شفتيه قائلا :

— أيها المجالد - لا تصادق المجالدين .

فقال سبارتاكوس

— إننى أدعوك صديق .

وقال باتياتوس

— لم يكن فى القلب الأسود لذلك الكلب الأسود عرفان أو فهم . كم منكم مثله ؟

ووقف المجالدون فى صمت فقال باتياتوس للمدربين

— اختاروا لى رجلا أسود .

فذهبوا إلى حيث يقف الإفريقيون ، وجروا واحدا منهم إلى وسط الفناء . وكان الأمر مرتباً من قبل . وبدأ قرع الطبول . وانفصل جنديان عن سائر الجنود ورفعا حربتيهما الخشبيتين الثقيلتين ، واستمر قرع الطبول . وراح الزنجى يصارع فى تشنج والجنديان يغرسان حربتيهما فى صدره واحدة بعد الأخرى ، ثم رقد على ظهره فوق الرمال والحربتان تكونان زاوية غريبة فى صدره . واستدار باتياتوس إلى الضابط الواقف إلى جواره وقال

— لن تحدث متاعب جديدة بعد الآن . فلن يجرأ الكلاب نفسها حتى على النباح .

وقال جانيكوس لسبارتاكوس

— أنا أدعوك صديق .

ولم يقل الغالى الواقف إلى جانبه الآخر شيئا ، بل راح يتنفس فى ثقل وخشونة .

ثم بدأت تمرينات الصباح .

زعم باتيانوس فيما بعد، وهو صادق فيما زعم، أمام مجلس التحقيق شكل من أعضاء مجلس الشيوخ، أنه لم يكن يعلم أن ثمة مؤامرة قد أفرخت، بل إنه فوق ذلك لم يكن يعتقد بإمكان إفراخ أية مؤامرة. وتأييداً لهذا القول، أوضح للمجلس أنه كان يدس دائما بين المجالدين اثنين على الأقل من ماجوريه على وعد منه لهم بعتقهم. وكان يختار هذين الاثنين في فترات متقطعة للقتال بالأجر ثم يعتق واحدا منهما ويعيد الآخر وعلى جسده دلائل بسيطة للقتال، ثم يختار مرشداً آخر ليكمل الاثنين وأصر باتيانوس على أنه لم يكن في الإمكان تدبير مؤامرة دون أن يعلم بها.

هكذا كان الموقف على الدوام، فنحن إذا غضضنا النظر عن كثرة نشوب الثورات بين العبيد، لوجدنا أنه كان من المستحيل تحديد مكانها، أو معرفة أسبابها، أو العثور على جذورها الدائمة الشبيهة بجذور الشليك الخفية الضاربة في الأرض على الدوام ولا يبدو منها إلا النبات المزدهر. وكانت محاولة مجلس الشيوخ انتزاع جذور الثورة تفشل دائما، سواء كانت الثورة على نطاق واسع في صقلية، أو محاولة فاشلة للثورة في إحدى الضياع تنتهي بصلب بضع مئات من التعساء المنكودين. ومع ذلك فقد كان من

الضرورى استئصال جذور الثورة ، فقد خلق الرومان هنا رونقاً للحياة والترف والوفرة لم يعرف العالم مثيلا له من قبل ، وانتهى غزو روما للشعوب بالسلام الرومانى ، وربطت الطرق الرومانية بين هذه الشعوب التى كانت من قبل متفرقة ، ولم يعد فى مركز الحضارة فى العالم من يحتاج إلى طعام أو متعة . هذه هى الحضارة كما يجب أن تكون ، وكما أرادها الأرباب ، مجتمعين ومتفرقين ، أن تكون . إلا أنه مع ازدهار الجسد ، أنشبت فيه هذه العلة أظافرها ولم يعد فى الإمكان انتزاعها .

وعندما سأل مجلس الشيوخ بانيانوس

– ألم تكن هناك دلائل على مؤامرة ؛ أو تذمر أو تدبير للثورة ؟

أصر على قوله

– لم يكن .

– وعندما أعدمت الإفريق – ولا تنس أننا نرى ذلك عملا مشروعا – ألم يصدر احتجاج ؟

– لا .

– نحن يهمنا بالذات أن نعرف هل كان لأى نوع من المساعدة الخارجية أو لأى عوامل إثارة أجنبية دخل فى هذا الموضوع ؟

فقال باتياتوس

– ذلك مستحيل .

– ألم يحصل الثلاثة الزعماء سبارتاكوس وجانيكوس وكريكوس على مساعدة خارجية أو أموال ؟

فقال باتياتوس

– أستطيع أن أقسم بكل الآلهة أن ذلك لم يحدث .

– ٦ –

لكن ذلك لم يكن صحيحاً كل الصحة ، فلا وجود للرجل الذى يعيش بمفرده . وقد كان سر قوة سبارتاكوس الخارقة ، أنه لم ير نفسه وحيداً أبداً ، ولم يعرف الانطواء على نفسه طيلة حياته . فقد حدث قبل قتال الزوجين الفاشل الذى تعاقد عليه الرومانى الشاب الثرى ، ماريوس براكوس ، بوقت قصير ، أن ثار العبيد فى ثلاث مزارع كبيرة فى صقلية . واشترك فى هذه الثورة تسعة آلاف من العبيد أعدموا جميعاً عدا حفنة قليلة . ولم يدرك أسيادهم ومالكوهم ضخامة الثروة التى تسربت إلى المجارى إلا فى نهاية المذبحة . ومن ثم باعوا بثمن بخس حوالى مائة تبقوا إلى أصحاب السفن للتجديف فيها . وحدث أن شاهد واحد من وكلاء باتياتوس فى إحدى هذه السفن الغالى الضخم الجثة ، العريض المنكبين ،

الأحمر الشعر المدعو كريسوس ولما كان عبيد التجديف فى السفن يعتبرون غير قابلين للإصلاح فقد كانت أثمانهم رخيصة وحتى الرشاوى التى كانت تدفع لإتمام صفقات بيعهم كانت ضئيلة ،وإذ كان العبيد المسيطرون على الأرصفة البحرية فى أوستيا يتجنبون المتاعب فإنهم لم يقولوا شيئا عن أصل كريكوس. وبذلك لم يكن سبارتا كوس وحيدا ، ولم يكن بمعزل عن كثير من الخيوط التى يتكون منها نسيج خاص فقد كان كريكوس يقيم فى الحجرة الضيقة المجاورة لحجرته وكم من أمسية تمدد فيها سبارتا كوس على أرض حجرته الضيقة ورأسه وراء الباب ، يصغى إلى كريكوس وهو يروى له قصة الحروب اللانهائية التى يشنها عبيد صقلية ، والتى بدأت منذ أكثر من نصف قرن. وسبارتا كوس عبد تناسل من عبيد ، لكن بنى جنسه ضموا أبطالا من أبطال الأساطير ، فى عظمة أخيل وهكتور وأوديسيوس الحكيم ، وفى مثل عظمتهم وإن فاقوهم كبرياء ، وإن كانت الأغانى لم تتغن بهم ولم يصبحوا آلهة يقدسها الناس وكان الخير كل الخير فى هذا لأن الآلهة كانوا كأغنياء الرومان وكانوا مثلهم لايبالون بحياة العبيد كان هؤلاء الأبطال رجالا ، بل أقل من الرجال .كانوا عبيداً ،عبيداً عراة يباعون فى الأسواق بأسعار دون أسعار الحمير ، ويسرجون حول أكتافهم ويجرون المحاريث فى حقول المزارع ومع ذلك فأى عمالقة كانوا . إن منهم

إيونوس الذى حرر كل عبد فى الجزيرة وحطم ثلاثة جيوش رومانية قبل أن يوقعوا به ، وأثينيون اليونانى ، وسالفيوس التراقى أو ندرات الألمانى ، واليهودى الغريب ابن جوا الذى فر من قرطاجنة على ظهر سفينة وانضم إلى أثينيون ومعه كل بحارتها .

وكان سبارتاكوس يشعر وهو يصغى بأن قلبه يفيض كبرياء وسرورا ، ويسيطر عليه شعور رائع مطهر بالأخوة والمشاركة الوجدانية نحو هؤلاء الأبطال الموتى . وهفا قلبه إلى رفاقه هؤلاء فهو خير من يعرفهم : يعرف مشاعرهم وأحلامهم وما يتوقعون إليه فالجنس ، والمدنية ، والدولة أشياء لا معنى لها عنده أما العبودية فحقيقة عالمية . لكنهم كانوا يفشلون دائماً ، على الرغم مما فى ثوراتهم من روعة مثيرة للأسى ، وكان الرومان دائمـــاً هم الذين يدقونهم بالمسامير فى الصلبان ، هذه الأشجار الجديدة ذات الثمار الجديدة كما يرى الجميع جزاء العبد الذى يرفض أن يكون عبداً .

وقال كريكوس

ـــ وتنتهى القصة كما تنتهى دائماً .

وكان حديث كريكوس عن الماضى يقل كلما طالت به الأيام بين المجالدين ، فلا الماضى ، ولا المستقبل بمستطيعين مساعدة المجالد ، إذ ليس له إلا الحاضر وأقام كريكوس حول نفسه جداراً من السخرية وعدم المبالاة بالعالم ولم يجرؤ إنسان عدا سبارتاكوس

على النفاذ إلى داخل القوقعة المرة التي يعيش فيها الغالى العملاق .
وقال له كريكوس يوماً .

— إنك تكثر من الأصدقاء فوق مايجب ياسبارتاكوس .
وعسير عليك أن تقتل صديقاً فإليك عنى .

وجمعهم فناء التدريب معنا فترة من الزمن فى ذلك الصباح بعد الفراغ من التمرينات وقبل الذهاب لتناول وجبة الصباح ووقف المجالدون أو جلسوا على الأرض فى جماعات صغيرة تنبعث الحرارة والعرق من أجسادهم ، وقد خفض من أصواتهم وجود الإفريقين المصلوبين فوق السور وكان الدم يتجمع فى بركة ندية تحت الزنجى الذى اختير رمزاً للعقاب على ما اقترفه الآخر ، وكانت طيور الدماء تنهش وتزدرد اللطخ الحلوة المذاق وكان المجالدون مكتئبين مغلوبين على أمرهم يشعرون بأن هذه ليست سوى البداية فباتياتوس منذ اليوم سيوقع العقود ويدفع بهم إلى القتال فى أقرب وقت ممكن وإن الوقت لرهيب .

وكان الجنود قد ذهبوا لتناول طعامهم فى ظل مجموعة قليلة من الأشجار وراء الجدول الذى يجرى إلى جانب المعهد . واستطاع سبارتاكوس أن يراهم وهو واقف فى الفناء ممددين على الأرض هناك ، وقد خلعوا خوذاتهم وكوموا أسلحتهم ولم ينزع عينيه عنهم لحظة واحدة .

وسأله جانيكوس .

— ماذا ترى ؟

وكانا قد أمضيا فى العبودية زمنا طويلا معا : فقد اجتمعا معاً فى المناجم وكانا طفلين معاً .

— لا أدرى .

وكان كريكوس مكتئبا ، فقد طال الكبت بالعنف فى داخله وسأل هو الآخر .

— ماذا ترى ياسبارتاكوس ؟

— لا أدرى ،

— لكنك تعرف كل شىء أليس كذلك ، ولهذا يناديك التراقيون ياأبتاه .

— من تكره ياكريكوس ؟

— وهل كان الرجل الأسود هو الآخر يناديك ياأبتاه ياسبارتاكوس ؟

لماذا لم تقاتله؟ وهل تقاتلنى عندما يجىء دورنا ياسبارتاكوس فقال سبارتاكوس فى هدوء .

— لن أقاتل مجالدين بعد اليوم أنا أعرف هذا وماكنت أعرفه منذ وقت قصير ، لكننى أعرفه الآن .

وكان ستة منهم قد سمعوا كلماته فتجمعوا حوله ولم يعد ينظر إلى الجنود بل أخذ ينظر إلى المجالدين بدلا منهم وينقل بصره من وجه إلى وجه . وأصبح الستة ثمانية ، وعشرة ، واثنى عشر ومع ذلك فقد ظل على صمته لكن أكتئابهم تبدد واختفى وبدا فى أعينهم هياج آمر ونظر هو إلى أعينهم .

وسأله جانيكوس قائلا .

ـ ماذا نفعل يا أبتاه ؟

ـ ستعرف ما نفعل عندما يحين وقته . أما الآن فتفرقوا .

ثم تقارب الزمن ، وعادت ألف سنة إلى العبـــد التراقى . كل مالم يحدث خلال ألف سنة ، سيحدث خلال الساعات القليلة القادمة أما الآن فهم عبيد وإلى حين، بل حثالة العبودية ، أو جزاروا العبيد وتحركوا نحو أبواب فناء التدريب ثم مشوا إلى قاعة الطعام لتناول وجبة الصباح .

ومروا فى أثناء ذلك بباتياتوس وهو يجلس فى محفته وكان يجلس فى المحفة الكبيرة التى يحملها ثمانية من العبيد مع كاتب حساباته النحيل المثقف فى طريقهما إلى السوق فى كابوا لابتياع المؤن . وعندما مرا بصفوف المجالدين لحظ باتياتوس انتظام صفوفهم والنظام الذى يسودهم فى أثناء مسيرهم فرأى أن للتضحية بزنجى ما يبررها كلها رغم ما فيها من نفقة غير عادية .

وهكذا عاش باتياتوس وعاش كاتب حساباته ليذبح سيده فيما يلي من الزمان .

- ٧ -

أما ما حدث فى قاعة الطعام ، حيث اجتمع المجالدون لتناول وجبتهم فلن يوجد من يعرفه أو يرويه كما حدث بالضبط ذلك أنه لم يكن قد وجد بعد مؤرخون لتسجيل مغامرات العبيد كما أن حياتهم لم تكن تعد جديرة بالتسجيل . وعندما أصبح ما أقدم عليه عبد جزءاً من التاريخ كتب هذا التاريخ ودونه فرد ممن يملكون العبيد ويخافون العبيد ويكرهون العبيد .

لكن فارينيا رأت ماحدث بعينيها وهى تعمل فى المطبخ ، وروت ما حدث بعد زمن طويل لشخص آخر — كما سنرى فيما بعد - وحتى إذا كان الدوى الكبير لمثل هذا الشيء يخفت حتى يصبح همسا فهو لا يضيع أبداً وكان المطبخ فى أحد أطراف قاعة الطعام والأبواب الداخلة إليها فى الطرف الأول .

وكان بناء قاعة الطعام نفسها ارتجالا من باتياتوس . ذلك أن الكثير من المبانى الرومانية كان يشيد على طراز تقليدى . لكن تدريب المجالدين وتأجيرهم على نطاق واسع كان ثمرة لهذا الجيل ، كالولع بقتال أزواج المجالدين تماماً ، فكان جمع هذا العدد

منهم فى معهد والسيطرة عليهم موضوعاً جديداً وجد باتياتوس حائطاً حجرياً قديماً فأضاف إليه حوائط ثلاثة ثم سقف المربع الناتج على الطريقة القديمـــة فأقام سقيفة خشبية إلى الداخل على الجوانب الأربعة بعرض ثمانى أقدام أما الجزء الأوسط فقد تركه عارياً مفتوحاً إلى السماء. ورصف أرض المكان بحيث تنصرف مياه الأمطار إلى مجارى رئيسية وكانت طريقة البناء هذه شائعة منذ قرن مضى ، لكنها كانت كافية بالنسبة لجو كابوا المعتدل ، وإن كان المكان رطباً بارداً فى الشتاء . وتناول المجالدون طعامهم وهم جلوس مطويو الساقين على الأرض تحت السقيفة بينما راح المدربون يذرعون الفناء المتوسط العارى حيث يستطيعون مراقبة كل شىء بسهولة . أما المطبخ وفيه فرن من قوالب الطوب الطويله والآجر ومنضدة طويلة فقد كان فى أحد أطراف المربع ويفتح عليه . وفى الطرف الآخر من المربع بابان من الأبواب الخشبية الثقيلة يحكم رتاجهما بعد دخول المجالدين

وفى هذا اليوم أخذ كل شىء يجرى فى مجراه الطبيعى ، وأخذ المجالدون أماكنهم ، وقدم لهم الطعام عبيد المطبخ وغالبيتهم من النساء . وراح أربعة من المدربين يذرعون الفناء المتوسط وهم يحملون الخناجر وسياطا قصيرة من الجلد المجدول . وكانت الأبواب قد أحكم إغلاقها بالعوارض الحديدية من الخارج بوساطة جنديان

انتزعا من الفصيلة لهذا الغرض . أما بقية الجنود فكانوا يلتهمون وجبة الصباح فى ظل مجموعة جميلة من الأشجار على بعد حوالى مائة ياردة .

وشاهد سبارتاكوس هذا كله ولحظه . ولم يأكل إلا قليلا . وكان حلقه جافا وقلبه يدق فى عنف داخل صدره . ولم ير فيما حوله شيئاً عظيما فى طور التكوين ، ولم يعد المزيد من المستقبل يتكشف له ، مثله فى ذلك مثل أى رجل آخر . إلا أن بعض الرجال يصلون إلى حد يقولون لأنفسهم عنده . . إذا لم أعمل كذا وكذا من الأشياء فلا حاجة بى إلى البقاء إذن ولا سبب يدعونى إليه بعد اليوم . وعندما يصل الرجال إلى مثل هذا الحد تميد الأرض .

وكان قد قدر عليها أن تميد قبل انقضاء اليوم بقليل ، وقبل أن يتنحى الصباح عن مكانه للظهر ثم الليل . لكن سبارتاكوس لم يكن يعرف ذلك بل كان يعرف الخطوة التالية لا غير ، وهى أن يتحدث إلى المجالدين وبينما هو يحدث كريكسوس العالى بذلك رأى زوجته فارينيا ترقبه وهى تقف أمام الفرن . وكان بقية المجالدين يرقبونه كذلك . وقرأ اليهودى دافيد حركة شفتيه ، وقرب جانيكوس أذنه إليه ، وانحنى إفريق يدعى فراكوس مقترباً ليسمع .

قال سبارتاكوس

— أريد أن أقف وأتكلم . أريد أن أفتح قلبي . لكنني إذا تكلمت فلن يكون هناك تراجع ، وسيحاول المدربون منعي .

وقال كريكسوس العملاق الغالى الأحمر الشعر

— لن يمنعوك .

وسرى التيار ، حتى فى الجانب الآخر من المربع ، فاستدار مدربان نحو سبارتاكوس والرجال القابعين من حوله وفرقعوا سياطهم واستلوا خناجرهم وصاح جانيكوس قائلا :

— تكلم الآن .

وقال الزنجى الإفريقى

— أنحن كلاب لتلوحوا لنا بسياطكم ؟

ونهض سبارتاكوس واقفاً على قدميه فنهض معه عشرات من المجالدين وأهوى المدربون بسياطهم وخناجرهم ، لكن المجالدين تكاثروا عليهم وقتلوهم فى الحال وقتلت النسوة الطباخ . حدث كل هذا دون ضجيج كبير ، عدا زمجرة المجالدين الخافتة فى أثناء المعركة . ثم أصدر سبارتاكوس أول أمر له فى رقة وهدوء دون عجلة إذ قال لكريكسوس وجانيكوس ودافيد وفراكوس

— اذهبوا إلى الباب واحرسوه كى أتكلم .

تأرجح الأمر الذى أصدره لحظة خاطفة فلم ينكشف مصيره

ثم أطاعوه ، وعندما قاد صفوفهم بعد ذلك ، كانوا يعملون فى معظم الأحوال بما يقول ، لأنهم كانوا يحبونه . وكان كريكسوس يعلم أن مصيرهم إلى الموت ، لكنه لم يبال . وشعر دافيد اليهودى الذى لم يكن يشعر بشىء منذ زمن طويل بتدفق الحرارة والحب فى نفسه لهذا التراقى ، الغريب ، الوديع ، القبيح بأنفه المكسور ، ووجهه الشبيه بالأغنام .

- ٨ -

قال سبارتاكوس

- تجمعوا حولى .

فتجمعوا حوله فى سرعة كبيرة . وحتى تلك اللحظة لم يكن قد صدر عن الجنود المرابطين فى الخارج أى صوت . وتزاحم حوله المجالدون والعبيد من المطبخ - وكانوا ثلاثين امرأة ، ورجلين . وراحت فارينيا تحدق إليه فى خوف وأمل وقلق ورهبة ثم زاحمت فى طريقها إليه ، فأوسعوا لها طريقاً حتى وصلت إليه ، فأحاطها بذراعيه ، وضمها إلى جانبه فى قوة وهو يفكر لنفسه قائلا . وقد غدوت حراً ولم تسنح لأبى أو جدى لحظة واحدة من الحرية . أما أنا فأقف فى هذه اللحظة وقد غدوت رجلا حراً . وكان هذا الشعور كفيلا بأن يسكره ، وأحس به يندفع دافقاً فى جسده كالخمر .

لكن شعوراً آخر كان يصحبه ، هو الخوف . فليس بالأمر البسيط أن تصبح حراً ، وليس بالأمر اليسير أن تغدوا حراً بعد أن ظللت عبداً زمناً طويلا جداً ، طيلة حياتك ، وطيلة حياة أبيك . وكان سبارتاكوس يشعر كذلك بالرعب العنيد المكبوت الذى يحسه الرجل عندما يتخذ قرارا لا رجعة فيه ، وعندما يعلم أن الموت ينتظره فى كل خطوة يخطوها فى الطريق الذى اختاره . وأخذ سبارتاكوس يسائل نفسه عن مصير هؤلاء الرجال الذين امتهنوا القتل وقتلوا أسيادهم واستبد بهم الشك الرهيب الذى يعترى العبد عند ما يقتل سيده . وكانت عيونهم تتركز عليه ، وكان هو عبد المناجم التراقى الرقيق الذى عرف ما فى قلوبهم وأحبهم ، وإذ كانوا يؤمنون بالخرافات ، وكانوا جهلة ، كغالبية أفراد الشعب فى ذلك الوقت ، فقد أحسوا أن شيطانا ما فى قلبه قليل من الشفقة ـ قد مسه واحتواه . لذلك كان من واجبه أن يتكهن بالمستقبل ويقرأه كما يقرأ الرجل الكتاب المفتوح ، وأن يقودهم إليه ، وأن يشق لهم الطرق إن لم تكن هناك طرق يسافرون عليها . كل هذا قالته له عيونهم . وكل هذا قرأه هو فى عيونهم .

وعندما تم التفاهم حوله سألهم

ـ هل أنتم معى ؟ لن أعود مجالداً من جديد . سأموت قبل ذلك فهل أنتم معى ؟

وامتلأت عيون بعضهم بالدموع وازداد التفافهم والتصاقهم به وكان بعضهم كبير الخوف ، والبعض الآخر أقل خوفا ، لكنه بعث فيهم قدراً ضئيلا من المجد - وكانت قدرته على ذلك أمراً مدهشاً . ثم قال :

— يجب أن نصبح رفاقا من الآن . كلنا معاً كشخص واحد لقد كان قومى إذا ما خرجوا للقتال فى الأزمنة القديمة ، كما سمعت يخرجون بمحض إرادتهم ، لا كما يفعل الرومانيون ، بل بمحض إرادتهم . وإذا لم يرغب واحد فى القتال ، ذهب عنهم دون أن يهتم به أحد .

وصاح واحد يسأل

— ماذا سنفعل ؟

— سنخرج ونقاتل . وسنقاتل خير قتال لأننا خير المقاتلين فى العالم بأسره .

ودوى صوته فجأة ، فاستولى على المقاتلين هذا التبدل المناقض لسلوكه الرقيق السابق . فقد توحش صوته وارتفع حتى لم يعد هناك مجال للشك فى أن الجنود فى الخارج قد سمعوا صيحته .

— سنقاتل رجلا لرجل كى لا ينسى الرومانيون فى مختلف عصورهم مقاتلى كاپوا .

ويأتى الوقت الذى يتحتم فيه على الرجال أن يقوموا بما يجب

عليهم عمله . وفاريذيا تعرف ذلك وتشعر بالفخر ممزوجا بلون من السعادة لم تعرفه من قبل : فخورة تفيض بسرور غريب لأن لها رجلا ليس له مثيل بين رجال العالم ، وهي تعرف سبارتا كوس ، وسيعرفه العالم بأسره عندما يحين الوقت . لكن العالم لن يعرفه كما عرفته هي . وأدركت بطريقة ما ، أن هذه اللحظة بداية شيء جليل لا نهاية له ، وأن رجلها رقيق نقي لا مثيل له بين الرجال .

— ٩ —

وقال سبارتا كوس

— الجنود أولا .

— نحن خمسة لواحد وقد يفرون

فأجابه غاضباً

— لن يفروا . يجب أن تعرفوا هـــذا عن الجنود . هم لن يفروا ، فإما قتلونا وإما قتلناهم . وإذا ما قتلناهم فسنجد غيرهم فلا نهاية للجنود الرومانيين .

وعندما نظروا إليه نظرتهم قال لهم

— ولا نهاية للعبيد كذلك .

وأعدوا عدتهم في سرعة فائقة . واستولوا على المدى من مدربيهم القتلى ، وانتزعوا من المطبخ كل ما يمكن استعماله سلاحا

المدى، وسكاكين الذبح، والأسياخ، وأدوات الشي، والمدقات، المدقات بالذات التى تستعمل فى طحن الحبوب للعصيد. وكان الموجود منها لا يقل عن عشرين، وهى قضبان خشبية فى أطرافها كتل ثقيلة من الخشب تصلح كهراوت أو قذائف. وأخذوا أخشاب الوقود كذلك، وكان الواحد منهم يتسلح بأى شىء حتى عظام اللحم إذا لم يجد غيرها وانتزعوا أغطية الأوانى لاستعمالها دروعا. ووجد كل منهم لنفسه سلاحا، أى نوع من السلاح، واحتشدت النساء وراءهم ثم فتحوا أبواب قاعة الطعام الكبيرة وخرجوا للقتال.

وتمت تحركاتهم فى سرعة كبيرة، لكنها لم تكن بالسرعة الكافية لمباغتة الجنود. فقد حذرهم الاثنان المنوطان بحراسة الأبواب فوجدوا من الوقت ما يكفى لارتداء دروعهم والاصطفاف فى أربع فصائل كل منها عشرة جنود. ووقفوا فى تشكيلاتهم على الجانب الآخر للجدول أربعون جندياً وضابطان واثنا عشر مدرباً مسلحين ككل الجنود تسليحاً كاملا بالسيوف والدروع والحراب. وهكذا واجه أربعة وخمسون رجلا كاملو التسليح، مائتين من المجالدين العراة الذين لا يحملون سلاحا يذكر. فكانت الكفتان غير متساويتين، فكفة الجنود هى الراجحة لأنهم الجنود الرومانيون الذين لا يقف فى طريقهم شىء على ظهر الأرض. ورفع

الجنود حرابهم وتقدموا فى صفين فصيلة وراء الأخرى . وتعالت أصوات الضباط وهم يصدرون أوامرهم فوق نسيم الصباح وتقدم الجنود كالمكنسة لإزالة هذه القذارة من طريقهم . وتناثرت مياه الجدول تحت أقدامهم ذات الأحذية الطويلة ، وانثنت الأزهار البرية وهم يصعدون على جانب الجدول ، وخرج بقية العبيد من كل مكان وتجمعوا جماعات صغيرة ليشاهدوا هذا الشىء الذى لا يصدق وهو يحدث أمام أعينهم . واهتزت الحراب الرهيبة فوق الأذرع المثنية فالتمعت أطرافها الحديدية المستدقة فى ضوء الشمس . وكان من الضرورى حينذاك أن يفزع العبيد ويتفرقوا ويجروا فى كل صوب ، كأنهم رماد يعود إلى رماد ، وقذارة إلى القذارة أمام كل ما تعنيه القوة الرومانية ، وأمام هذا الامتداد المتواضع للقوة الرومانية المتمثل فى هذه الفصائل الأربع .

لكن قوة روما كانت فى تلك اللحظة الحاسمة قد وقعت فى المحظور ، فقد أصبح سبارتاكوس قائداً . ليس فى اللغة تعريف واضح للرجل الذى يقود صفوف غيره من الرجال . فالزعامة أو القيادة شىء نادر غير ملموس ويزداد ذلك إن لم تسانده القوة والمجد . فى وسع أى رجل أن يصدر الأوامر ، لكن إصدار أوامر يطيعها غيره ، ميزة نادرة . . وكانت هذه إحدى ميزات سبارتاكوس . لقد أصدر أمره للمجالدين بأن ينتشروا ، فانتشروا .

وأمرهم بأن يحيطوا بالفصائل فى دائرة واسعة غير متماسكة ، فانتشروا فى هذه الدائرة المطلوبة. وعند ذاك أبطأت الفصائل الأربع المهاجمة خطوها وسيطر عليها التردد فتوقفت . إذ لا يوجد على ظهر الأرض جندى فى مثل سرعة الجالدين حيث الحياة عندهم هى السرعة والسرعة هى الحياة . كما أن هؤلاء المجالدين كانوا عراة ، لو أغفلنا الخرق التى كانت تستر عوراتهم ، بينما الجنود المشاة الرومانيون كانوا يحملون ما ثقل من السيوف والرماح والدروع والخوذ والزرد . وانتشر المجالدون وكونوا دائرة كبيرة يبلغ قطرها مائة وخمسين ياردة وقبعت الفصائل فى مركزها وهى تستدير هنا وهناك وقد رفع الجنود حرابهم - التى تفقد كل قيمتها على بعد أكبر من ثلاثين أو أربعين ياردة . والحربة الرومانية لا تقذف إلا مرة واحدة ، رمية واحدة يطبق بعدها الجنود بسيوفهم . لكن على أى شيء يقذفون حرابهم هنا ؟

فى تلك اللحظة شاهد سبارتاكوس فى وضوح قيمة خططه الحربية ، المثال الكامل لكل خططه الحربية فيما يلى من السنين ، ورأى بعين خياله فى قوة واختصار صدق ما يروى من أقاصيص عن جيوش ألقت بنفسها على هذه الحراب الرومانية المسنونة ، وتحطمت تحت وطأة الحربة الرومانية الثقيلة ، ثم مزقتها إربا السيوف الرومانية القصيرة الحادة كالموسى . ومع ذلك فهذا هو نظام روما

وقوةروما عاجزين حائرين وسط حلقة من مقاتلين عراة يتصايحون ويلعنون متحدين .

وصاح سبارتاكوس يقول .

– عليكم بالأحجار – الأحجار ستتروب الأحجار غدا فى القتال . ودار يعدو حول الدائرة على أطراف أصابعه خفيفاً رشيقاً فى حركاته وهو يصيح .

ارموهم بالحجارة .

وانهار الجنود تحت وطأة العار المتمثل فى الأحجار . فقد امتلأ الجو بالصخور المتطايرة وانضمت النساء إلى الدائرة – وكذلك فعل عبيد البيت وجاء عبيد الحقل يجرون لينضموا هم أيضاً إلى الدائرة . وأتى الجنود القذائف الضخمة بتروسهم ، فأتاح ذلك للمقاتلين فرصة الانقضاض عليهم: الانقضاض ثم التراجع السريع . وهاجمت فصيلة من الجنود الدائرة وقذفوا بحرابهم فلم تصب الأسلحه الرهيبة إلا مجالداً واحدا . أما الباقون فقد انقضوا على الفصيله وألقوا بأفرادها أرضاً وذبحوا الجنود بأيديهم العارية تقريباً . وكر الجنودعليهم . وتحلق جنود فصيلتين فى دائرة وظلوا يقاتلون حتى بعد أن لم يبق منهم إلا حفنة تقف على أقدامها تحت وابل الأحجار المنهمر ؛ وحتى بعد أن انقض عليهم المجالدون كقطيع من الذئاب ، ظلوا يقاتلون حتى ماتوا . وحاولت الفصيلة

الرابعة أن تشق طريقها خارجة من الدائرة وتفر ، لكن عشرة من الجنود كانوا أقل من أن ينفذوا مثل هذه الخطة فسقطوا أرضاً وذبحوا ، كما ذبح المدربون من قبلهم — وصاح اثنان من المدربين يطلبان الرحمة فقتلتهما النساء إذ رحن يضربنهما بالأحجار حتى ماتا .

ودوت أصداء المعركة الغريبة الصغيرة العنيفة التي بدأت بالقرب من قاعة الطعام في أرجاء أرض المعهد وعلى طريق كابوا حيث ألقوا بالجندي الأخير أرضاً وقتلوه . وتناثرت في كل أنحاء تلك المنطقة وأرجائها جثث القتلى والجرحى ... جثث أربعة وخمسين من القتلى كانوا رومانيين ومدربين ، أما عدد المجالدين فكان أكثر من هذا .

لكن ذلك لم يكن سوى البداية واستطاع سبارتاكوس وهو يقف على الطريق العام مليئاً بحمية النصر ، متدفق الدم ، نشوان به ، بالرغم من أنها لم تكن سوى البداية — استطاع أن يرى جدران مدينة كابوا على بعد ، مدينة تلفها غلالة من ذهب في الوهج الذهبي للظهيرة . واستطاع أن يسمع الحراس وهم يقرعون الطبول وأدرك أنه بعد الآن لن تكون هناك راحة ، فالأحداث تقع ، وأنباؤها تتطاير . وكابوا يحرسها عدد كبير من الجنود . لقد انفجر العالم بأسره وأحس وهو يلهث

واقفا على الطريق العام والدم والموت يتناثران من حوله ، أنه يمتطى تيارات عارمة صاخبة وشاهد كريكسوس الغالى ذا الشعر الأحمر يضحك ، وجانيكوس متهللا ، ودافيد اليهودى والدماء تقطر من سكينه وقد عادت الحياة إلى عينيه ، والإفريقيين العمالقة هادئين هدوءا متعمدا يتمتعون بأغنية الحرب فى بلادهم . عند ذاك أخذ فارينيا بين ذراعيه ، وكان بقية المجالدين يقبلون نساءهم : يديرونهن بين أذرعتهم ويضاحكونهن ، بينما جاء عبيد البيت يجرون حاملين قرب نبيذ باتيانوس .. حتى الجرحى هونوا من شأن جراحهم وخنقوا صرخات الألم فى نفوسهم ، وتطلعت الفتاة إلى سبارتاكوس وهى تضحك وتبكى فى وقت واحد ، وراحت تتحسس وجهه وذراعيه ويده الممسكة بالخنجر . وكانوا قد رفعوا قراب النبيذ إلى أفواههم عندما أعادهم سبارتاكوس إلى صوابهم . كان من الممكن أن يخرجوا من التاريخ عند ذاك سكارى متهللين ، لأن الجنود كانوا قد بدأوا يتقدمون بالفعل خارجين من أبواب كابوا ، لكن سبارتاكوس أمسك بهم وكبح جماحهم . وأمر جانيكوس أن ينزع من الجنود القتلى أسلحتهم ، وبعث نوردو ، وهو إفريقى ، ليرى هل من الممكن اقتحام مخزن الأسلحة . وكانت رقته قد ذهبت عنه الآن ، واشتعل فيه تصميمه على هربهم كاللهب المضىء وبدله لقد أمضى حياته فى انتظار هذه اللحظة ، وكان كل صبره

إعدادا لها. لقد انتظر قرونا طويلة .. انتظرها منذ غلل أول عبد وضرب بالسياط ليحطب الخشب ويرفع الماء . ولن يسمح لانسان أن يصرفه عنها بعد الآن ،

وكان قبل هذه اللحظة يطلب إليهم ، لكنه الآن يأمرهم . من يستطيع استعمال الأسلحة الرومانية ، من حارب بالحربة ؟ وشكل منهم أربع فصائل .

وقال .

— أريد النساء فى الداخل . يجب أن لا يتعرض للخطر ولن يحارب فأدهشته غضبة النساء فقد كانت حميتهم تفوق حمية الرجال وكن يردن أن تحاربن وبكين له ضارعات ارغبتهن فى القتال . وضرعن طلبا لبعض الخناجر الثمينة ، فلما أنكر عليهن ذلك تمنطقن على أرديتهن وملأنها بالأحجار ليقذفن بها .

وكانت المزارع القريبة من المعهد حقولا على سفوح تلال منحدرة ولما شاهد عبيد الحقول شيئاً مخالفا للعادة ، رهيباً ، وحشيا جروا من كل صوب لمشاهدة مايدور وتجمعوا فوق الجدران الحجرية فى جماعات صغيره هنا وهناك وعندما شاهدهم سبارتاكوس اتضحت له خطة مستقبله بكل بساطتها . ونادى دافيد اليهودى وأصدر إليه أمراً ، فجرى اليهودى قاصدا عبيد الحقول ولم يكن

سبارتاكوس قد أخطأ الظن فقد جاء ثلاثة أرباع عبيد الحقول مع دافيد، جاءوا يجرون وحيوا المجالدين وقبلوا أيديهم، وحملوا معهم مناجلهم التى استحالت بقدرة قادر من آلات إلى أسلحة. وعاد الإفريقيون عنـــد ذاك لأنهم لم يتمكنوا من اقتحام مخزن الأسلحة الرئيسى فقد كان ذلك يستغرق نصف ساعة على الأقل لكنهم استطاعوا أن يحطموا صندوقاً وصل حديثا كان يحوى مجموعة من المذارى ذات الأطراف الثلاثة. وكان عدد ماوجدوه من هذه الحراب المثلثة الأطراف ثلاثين وزعها سبارتاكوس بين الإفريقيين الذين قبلوا الأسلحة وربتوا عليها وأقسموا عليها أقسامهم الغريبة بلغتهم الأصلية الغريبة.

ولم يستغرق كل هذا وقتا طويلا ومع ذلك فقد كانت الحاجة إلى الإسراع ثقيلة الوطأة على سبارتاكوس لأنه كان يريد أن يبتعد عن المكان وعن المعهد، وعن كايوا، فصاح بهم يقول.

— اتبعونى . اتبعونى.

وظلت فارينيا إلى جانبه. وتركوا الطريق واخترقوا الحقول صاعدين التلال المنحدرة وقالت فارينيا.

— لاتتركنى فى المؤخرة .. لاتتركنى فى المؤخرة انا قادرة على القتال كالرجل.

عند ذاك شاهدوا الجنود قادمين على الطريق من كابوا وكان عددهم يبلغ المائتين . وكانوا يسيرون فى صفين ، حتى شاهدوا المجالدين وهم يلجئون إلى التلال فأمرهم ضباطهم بالانتشار فى نصف دائرة ليقطعوا الطريق عليهم وهجم الجنود داخلين إلى الحقول وسكان كابوا يتدفقون خلفهم خارجين من أبواب المدينة لمشاهدة إخماد فتنة العبيد ، ولمشاهدة قتال أزواج المجالدين دون مقابل أو نقود .

وكان من الممكن أن ينتهى الأمر عند ذاك ، أو قبل ذلك بساعة أو بعد ذلك بشهر . كان من الممكن أن ينتهى الأمر فى أية لحظة من اللحظات فقد فر عبيد من قبل ، ولو كان هؤلاء العبيد يفرون هم أيضاً لكانوا قد احتموا بالحقول والغابات ولعاشوا فيها عيشة الحيوانات على ما يستطيعون سرقته ، وعلى ثمار البلوط المتساقطة ولكانوا قد اصطيدوا الواحد بعد الآخر ، وصلبوا الواحد بعد الآخر . فلا حماية لعبد لأن هذه هى الدنيا . وأدرك سبارتاكوس هذه الحقيقة البسيطة وهو ينظر إلى الجنود ، حراس المدينة ، وهم يتسابقون قادمين إليهم ولم ير من حوله مكاناً صالحاً للاختباء فيه ولا حجراً للزحف إليه .

إذن يجب تغيير العالم .

فتوقف عن الجرى . وقال .

– سنقاتل الجنود .

– ١٠ –

سأل سبارتاكوس نفسه بعد ذلك بوقت طويل من سيكتب عن معاركنا ، وعما كسبنا منها وعما خسرنا ؟ ومن سيروى الحقيقة فقد كانت حقيقة العبيد تناقض كل حقائق العصر الذى عاشوا فيه لأنها كانت مستحيلة – مستحيلة فى كل ظروفها ، لا لأنها لم تحدث بل لأنه لم يوجد تفسير لها فى ظروف تلك الأيام لقد كان الجنود يفوقون العبيد عدداً وكانوا مسلحين بالدروع والأسلحة الثقيلة لكنهم لم يتوقعوا أن يقاتلهم العبيد بينما عرف العبيد أن الجنود سيقاتلونهم . وتدفق العبيد هابطين عليهم من المنحدرات ، فلم يستطع الجنود الذين كانوا يتقدمون فى نظام وترتيب ؛ شأن الرجال عندما يطاردون أرنبا ، أن يقابلوا الصدمة فقذفوا بحرابهم فى وحشية وجبنوا تحت وابل الأحجار التى أمطرتهم بها النساء .

كانت الحقيقة إذن أن الجنود انكسروا على أيدى العبيد وفروا أمامهم وطاردهم العبيد حتى منتصف المسافة فى طريق العودة إلى

كابوا وقتلوهم . وأصيب العبيد فى المعركة الأولى بخسائر فادحة . أما فى المعركة الثانية فلم يمت منهم إلا حفنة وفر الجنود الرومانيون أمامهم . هذه هى حقيقة الأمر ، إلا أن القصة رويت فى مائة صورة مختلفة . وكان أول تقرير عنها هو ما كتبه قائد القوات فى كابوا إذ كتب يقول .

« حدث تمرد بين العبيد فى معهد التدريب التابع للنتولوس باتياتوس وهرب عدد منهم وفروا متجهين إلى الجنوب على طول الطريق الأبيوسى ، فأرسلنا نصف كتيبة من قوات الحراسة لملاقاتهم . إلا أن بعضهم نجح فى اختراق الحصار والفرار وليس من المعروف بعد من يكون قادتهم أو ماهى نواياهم . لكنهم تسببوا مع ذلك فى تمرد العبيد فى الريف ، ويأمل المواطنون هنا فى أن مجلس الشيوخ الموقر لن يدخر جهدا فى تعزيز قوات الحراسة فى كابوا حتى يمكن إخماد الثورة فى التو » .

ثم أضاف القائد يقول ولعل ذلك كان بعد تدبر وتفكير :
« وقد وقعت بالفعل سلسلة من حوادث العنف . ويخشى أن يتعرض الريف إلى أعمال السلب والنهب » .

وقد روى باتياتوس قصته بالطبع للجماهير من سكان كابوا الذين تشوقوا لسماعها والحقيقة أن أحدا لم ينزعج ـ عدا باتياتوس الذى شاهد ثمرة سنوات من العمل تضيع هباء ـ لكن الجميع

أدركوا أن الريف سيصبح مكاناً غير مستقر حتى يقتل آخر واحد من هؤلاء الرجال المرعبين المجالدين أو يذبح ، أو يدق بالمسامير فوق أحد الصلبان كى يرعوى غيره بما أصابه . وتطورت الروايات ، ورويت القصة ، وأعيدت روايتها على ألسنة المئات من الناس الذين تقوم حياتهم كلها على أساس العبيد غير المستقر . ورووا القصة تبعاً لخوفهم وحاجاتهم . هكذا كانت الحياة دائماً ، وستظل كذلك فيما يأتى من السنين :

— « أجل . حدث أن كنت أنقل الماء إلى كابوا عندما حطم سبارتاكوس قيوده . لقد شاهدته . أجل حقاً شاهدته . إنه رجل عملاق . شاهدته يحمل طفلا صغيراً على سنان حربته . وكان ذلك منظراً رهيباً .

أو أية رواية أخرى من آلاف الروايات . لكن الحقيقة نفسها كانت شيئاً لم ير منه سبارتاكوس نفسه فى ذلك الوقت سوى لمحات خاطفة فقد تحرر بصره من قيود عصره . إذ هزم العبيد تحت قيادته الجنود الرومانيين فى التحامين صغيرين . ولسنا ننكر فقط أن هؤلاء الجنود لم يكونوا إلا حفنة من قوات الحراسة التى تعد فى المرتبة الثانية ، اللينة الرخوة نتيجة الحياة الرغدة فى مدينة نائية ، وأنهم واجهوا خير رجال السيف المحترفين فى طول إيطاليا وعرضها ، ومع ذلك — حتى مع وضع هذا العامل موضع الاعتبار — فقد

كانت هزيمة العبد لسيده مرتين فى يوم واحد حقيقة تهز الأرض . كما أن العبيد لم يغفلوا عن هذه الحقيقة عندما فر الجنود أمامهم ، فتراجعوا عندما دعاهم سبارتاكوس إلى العودة — فقد كانوا قوم نظام ، كما أن سبارتاكوس أصبح بالفعل خلال ساعات قليلة شخصية مسيطرة . وكان الفخر يفيض بهم وتبددت مخاوفهم ، وظلوا يتحسسون بعضهم البعض كما لو كان الواحد منهم يداعب الآخر . وكما لو كانت الحكمة القاسية القائلة : أيها المجالد لا تصادق مجالدا ، قد انقلبت إلى نقيضها فجأة ، ولهذا أدرك كل منهم صاحبه أتم الإدراك . وهم وإن لم يفكروا فى ذلك أو يتعقلوه - كانت غالبيتهم قوماً بسطاء جهلة - إلا أنهم ارتقوا وتطهروا فجأة . فراح الواحد منهم يتطلع إلى الآخر كأنه لم يره من قبل ، وربما كان فى ذلك بعض الحقيقة ، فما كانوا ليجرءون على النظر بعضهم إلى بعض من قبل ، وهل يستطيع الجلاد أن ينظر إلى ضحيته ؟ أما الآن فلم يعودوا ضحية وجلادا فى رفقة لا مفر منها ، بل هم الآن أخوة فى النصر . وأدرك سبارتاكوس فى تلك اللحظة حقيقة ما حدث فى صقلية وفى كثير غيرها من الأماكن ، وأحس بقوتهم ، لأن جزءا منها كان يتوهج فى داخله ، وهذا التيار الذى يتدفق داخله ؛ هو الذى يطهره من جميع الآلام التى كونت ماضيه ، وكل المخاوف والمعرات والمهانات . لقد

تشبث بالحياة طويلا وجعل من المحافظة على حياته أطول وقت ممكن عملا دقيقاً إلى حد يدفع المرء إلى الاعتقاد بأن الحياة ستصبح بالنسبة له شيئا جديرا بالعناية والحرص . وهذه هي ثمرة ما ادخر . وفجأة لم يعد يخاف الموت أو فكرة الموت بعد ، لأن الموت لم تعد له أهمية عنده .

وتجمع المجالدون ونساؤهم ، والعبيد الذين انضموا إليهم على سفح تل يبعد حوالى خمسة أميال من كابوا ؛ وعلى مسافة قصيرة من الطريق الأبيوسى ؛ وعلى مرأى من منازل كبار الملاك التى دلت على وجود مزرعة لأحد السادة الرومانيين . وكان اليوم قد تقدم حتى كاد النهار أن ينتصف ؛ وأضحى المجالدون بعد المعركتين ، وما أعقب ذلك من تقدمهم جنوبا جيشا صغيرا . وكان من المحتمل أن يتصورهم المشاهد من بعيد فيلقا من الجيش الرومانى لولا وجود الرجال السود فيما بينهم . وكانوا قد تقاسموا الأسلحة ، كما فعلوا نفس الشيء بالخوذات والدروع الواقية والحراب والتروس التى غنموها من الجنود . ولم يبق واحد منهم غير مسلح . وأصبح من المشكوك فيه أن تستطيع أية قوة عسكرية أقرب من قوة روما نفسها ، أن تتحداهم وهم على ما هم عليه من التسلح والتجربة . وخاصة بعد أن وصل عددهم مع من انضم إليهم من عبيد البيوت وعبيد الحقول ؛

وباستثناء نسائهم إلى مائتين وخمسين رجلا . وسارت كل جماعة من الجماعات الثلاث الرئيسية الغاليين . والإفريقيين ، والتراقيين ، مستقلة منفصلة وعلى رأس كل منها ضباطها الذين اختيروا من بين قادتها . ونظرا لطول مشاهدتهم للفصيلة الرومانية المكونة من عشرة رجال بوصفها وحدة عسكرية ، كان من الطبيعي أن يقسموا أنفسهم عشرات . وقادهم سبارتاكوس . ولم يكن هذا محلا للنقاش فقد كانوا على استعداد للموت فى سبيله ، وكانوا مشبعين بالأساطير التى تدور حول الرجال الذين مستهم الآلهة . وكان هــذا الإيمان ينطق فى وجوههم عندما يتطلعون إلى سبارتاكوس .

وكان هو فى مقدمتهم فى أثناء سيرهم ، وفارينيا ، الفتاة الألمانية تسير إلى جواره وذراعها حول وسطه ، تنظر إليه من وقت لآخر . ولم يكن ما تراه جديداً عليها ، فهى قد تزوجت من هذا الرجل منذ زمن بعيد ، هذا الرجل الذى هو خير الرجال وأكثرهم شجاعة . ألم تعرف هى ذلك يومئذ ـ كما تعرفه الآن ؟ وكانت تبتسم له عندما تلتقى عيناهما ، لقد قاتلت الجنود . ولم تكن لتدرى هل كان قتالها للجنود قد ساءه أو سره ، لكنه لم يبد اعتراضا على السكين الذى تمسك به فى يدها ، فهما الآن ندان ؛ والعالم ملىء بخرافات الأمزونيات القديمة ، النساء اللاتى ذهبن إلى ساحة القتال فى الأزمان الغابرة كما يفعل الرجال ـ وما زال الكثير غيرها من

الأساطير يتردد فى عصر سبار تاكوس عن ماض من الزمان تساوى فيه الرجال والنساء ، ولم يكن فيه سيد ولا عبد ، وكان كل شيء ملكا للجميع . لقد غلفت غمامة الزمن هذا الماضى السحيق وحجبته، وكان ذلك هو العصر الذهبى ، وسيعود العصر الذهبى من جديد .

هذا هو العصر الذهبى يعود ، والشمس تكسو الريف الجميل ، ورجال الساحة المتوحشون ، رجال الرمال ، يتزاحمون من حوله ، والأمة الألمانية تضج بالأسئلة . وكان العشب ندياً أخضر فى المرج الذى تجمعوا فيه ، والزهور الصفراء تقف على قمم عيدان العشب كالزبد الأصفر ، والفراشات والنحل تحوم جماعات فى كل مكان فيمتلىء الهواء بغنائها . وناداه الجميع يا أبتاه كما يفعل التراقيون

— ماذا نعمل الآن ، وأين نذهب ؟

ووقف وسط حلقتهم . وجلست فارينيا على العشب وقد ألصقت خدها بساقه ، بينما جلس الجميع أو ربضوا على العشب من حوله ، السود بأطرافهم الطويلة ، والغاليون بوجوههم الحمراء وعيونهم الزرقاء ، والتراقيون بشعورهم السوداء وأجسادهم الضامرة . وقال :

— نحن قبيلة واحدة . أهذه رغبتكم ؟

وأومئوا برءوسهم موافقين ، فليس فى القبيلة عبيد . وللجميع حق القول ولم يكن الأمر كذلك باعث فى الماضى البعيد ، ولكنهم

يحتفظون منه على الأقل بالذكرى . ثم سألهم

— من يريد الكلام ؟ من يريد أن يتقدم لقيادتنا ؟ ليقف من يريد أن يقودنا فنحن اليوم أحرار .

وظل الجميع على جلستهم . لم يقف منهم أحد . وبدأ التراقيون يقرعون تروسهم بمقابض خناجرهم ، فأفزع ذلك سرباً من طير السمان كان جاثماً فى المرج . وظهر على بعد جماعة من الناس حول منزل صاحب الضيعة ، لكنهم كانوا أبعد من أن يمكن القول من هم أو ماذا يفعلون . وحيا الزنوج سبارتاكوس بالتصفيق بأيديهم أمام وجوههم . وكان الكل راضين رضاء غريبا يعيشون فى تلك اللحظة فى حلم . وظلت فارينيا تضغط خدها إلى ساق رجلها . وصاح جانيكوس قائلا :

— سلام عليك أيها المجالد .

ووقف رجل يوشك أن يموت وهو يتخاذل فى وقفته بعد أن كان ممددا فوق العشب . وكان ذراعه مشقوقا بطوله حتى العظام ، والدماء تقطر منه . وكان غالياً رفض أن يتركوه وراءهم وسار معهم ، فتذوق بذلك قدراً من الحرية . وكان ذراعه المشقوق مضمداً بخرقة مشربة بالدماء . ومشى إلى سبارتاكوس الذى ساعده على الاعتدال فى وقفته . وقال الرجل المجالدين :

— لست خائفا من الموت ، فالموت خير من الحياة للقتال

فى الساحة . لكنى أفضل السير وراء هـذا الرجل على الموت وأفضل أن أسير وراءه لأشهد ما سيقودنا إليه . وإذا مت فاذكرونى ولا تسيئوا إليه ، أطيعوه فالتراقيون ينادونه يا أبتاه ، ونحن كالأطفال الصغار ، لكنه سينتزع الشر من نفوسنا . فأنا قد خلوت من كل شر بعد أن قمت بعمل جليل وتطهرت ، ولهذا فلست أخاف الموت . سأنام فى هدوء ولن أحلم أى أحلام بعد موتى .

وكان بعض المجالدين يبكى الآن جهراً وقبل الغالى سبارتاكوس فقبله سبارتاكوس بدوره وقال :

— ابق إلى جانبى .

فرقد الرجل على العشب إلى جواره ، وراح عبيد الحقول الذين انضموا إليهم يحدقون فاغرى الأفواه إلى هؤلاء المجالدين الذين تربطهم بالموت مثل العلاقة السهلة الوطيدة . وقال له سبارتاكوس

— ستموت أنت ونحيا نحن . وسنذكر اسمك ونردده عاليا وسنجعل منه صوتا مدويا يلف العالم بأسره .

فاستحلفه الغالى قائلا

— ولن تسلموا أبداً ؟

— وهل سلمنا عندما هاجمنا الجنود ؟ لقد قاتلنا الجنود مرتين وقهرناهم .

واستدار سبارتاكوس إلى المجالدين يسألهم

— أتعرفون ما يتعين علينا عمله الآن ؟

فتطلعوا إليه منتظرين

— هل نستطيع الهرب ؟

فسأل كريكوس قائلا

— وأين نهرب ؟ فالحال واحدة فى كل مكان . فى كل مكان يوجد سيد وعبد .

فقال سبارتاكوس

— لن نسلم أو نفر .

وكان سبارتاكوس قد أدرك ذلك الآن وتأكد منه ووثق به كما لو كان الشك فى ذلك لم يطف بذهنه من قبل .

— سنتقدم من ضيعة إلى ضيعة ، ومن بيت إلى بيت ، وسنحرر العبيد حيثما حللنا ونضمهم إلينا . وعندما يرسلون الجنود لقتالنا مرة ثانية سنقاتلهم ، وستقرر الآلهة هل تريد بقاء الرومان أو بقاءنا .

وسأل واحد منهم

— والأسلحة ؟ أين سنجد الأسلحة .

— سنأخذها من الجنود ، وسنصنعها كذلك . وماذا تكون روما سوى دم العبيد وعرقهم وعذابهم ؟ أيوجد ما لانستطيع عمله؟

— ستشن روما علينا الحرب إذن

فقال سبارتاكوس فى هدوء

ـ إذن نخوض غمار الحرب ضد روما . وستكون نهاية روما على أيدينا ، ثم نشيد عالما لا عبيد فيه ولا سادة .

كان ذلك حلما . لكنهم كانوا جميعاً فى حالة نفسية تؤهلهم للحلم . لقد صعدوا إلى السموات العلى ، ولو أن هذا التراقى الغريب ذا العينين السوداوين والأنف المكسور قال لهم إنه ينوى أن يقودهم لقتال الآلهة نفسها ، لصدقوه فى تلك اللحظة وتبعوه حينذاك .

ثم قال سبارتاكوس يخاطبهم فى هدوء وصراحة وقصد ، كأنه يوجه الخطاب إلى كل منهم على حدة وبصراحة .

ـ لن نشين أنفسنا . لن نفعل ما يفعله الرومانيون ، ولن نطيع القانون الرومانى . وسنسن لأنفسنا قانوننا الخاص .

ـ وما قانوننا ؟

ـ قانوننا سهل بسيط . كل ما نستولى عليه ملك للجميع ؛ ولن يملك واحد منا شيئاً إلا سلاحه وملابسه . سنفعل ما كانوا يفعلونه فيما مضى .

فقال تراقى

ـ يوجد ما يكفى ليصبح الجميع أغنياء .

فقال سبارتاكوس

ـ ضعوا أنتم القانون ، فأنا لن أضعه .

فبدءوا يتحدثون . وكان من بينهم رجال طامعون يحلمون بأن يصبحوا سادة عظاماً كالرومان . وكان من بينهم من يحلم بأن يتخذ من الرومان عبيداً له ، فتحدثوا وتحدثوا ، لكن الأمر انتهى بما قاله سبارتاكوس نفسه

قال سبارتاكوس

— ولن نستولى على امرأة إلا لتكون كزوجة . ولن يتزوج رجل بأكثر من امرأة واحدة . وستسوى العدالة بينهما ، فإذا عجزا عن الحياة معا فى سلام ، فيجب أن يفترقا . ومحظور على الرجال مضاجعة أى امرأة ، رومانية كانت أوغير رومانية ، ما لم تكن زوجته الشرعية .

وكانت قوانينهم قليلة العدد لكنهم وافقوا على بكرة أبيهم على هذه القوانين . ثم انتضوا أسلحتهم وهاجموا منزل سيد الضيعة فلم يجدوا فيه إلا العبيد ، لأن الرومانيين كانوا قد فروا إلى كابوا .. وانضم العبيد إلى المقاتلين .

— ١١ —

وشاهدوا فى كابوا الدخان وهو يتصاعد من منزل سيد الضيعة وهو يحترق ، فقالوا إن العبيد قساة منتقمون ، وكأنما كانوا يريدون من العبيد أن يكونوا وديعين فاهمين ؛ أو إن شئت فقل قولا أكثر

وضوحا ، وهو أنهم كانوا يريدون من العبيد أن يفروا إلى قمم الجبال الموحشة حيث يختفون زرافات ووحدانا فى الكهوف ، ويعيشون كالحيوانات حتى يتصيدوهم الواحد تلو الآخر كما يصاد الحيوان . ولم يجد سكان كاپوا ما يدعوهم إلى الانزعاج ، حتى بعد أن شاهدوا الدخان يتصاعد من أول منزل يحترق . فقد كانوا يتوقعون أن يعمد المجالدون إلى التنفيس عن مرارة نفوسهم فى كل ما يلقون فى طريقهم . وكان رسول يذهب بالفعل الطريق الإبيوسى فى طريقه إلى روما لينهى إلى مجلس الشيوخ نبأ الثورة فى كاپوا . وكان ذلك يعنى أن السيطرة على الموقف ستتحقق خلال أيام قليلة جدا ، وأن العبيد سيتلقون درساً لن يكون من السهل عليهم نسيانه .

وكان إقطاعى كبير يدعى ماريوس أكانوس قد تلقى تحذيراً من قبل ، فجمع عبيده الذين يبلغ عددهم سبعمائة ، وقادهم كالقطيع إلى حيث السلامة بين جدران كاپوا ، لكن المجالدين قابلوه على الطريق ووقفوا فى صمت كئيب يشاهدون عبيده وهم يذبحونه هو وزوجته وأخت زوجته وابنته وزوج ابنته . لقد كان عملا فظيعاً رهيباً ، لكن سپارتاكوس كان يعلم أنه لا يستطيع وقفه . فقد كان السادة يحصدون ما غرسوا . وقام عبيد الحانات أنفسهم بالمهمة بمجرد أن أدركوا أن هؤلاء ليسوا جنوداً رومانيين ، بل هم المجالدون الذين كانت شهرتهم قد طبقت أنحاء المنطقة بالفعل

وأصبحوا صيحة وأغنية يحملها النسيم ويرددها . وكان الوقت قد قارب المساء حينذاك ، لكن الأنباء طارت أسرع من الزمن . وكانت المئات القليلة الأولى قد تضخمت حتى زادت على الألف ، وتدفق العبيد خلال الوديان . وهبطوا من التلال لينضموا إليهم وهم يتجهون جنوباً . وجاء عبيد الحقول يحملون أدوات العمل ، وساق الرعاة قطعان المعز والماشية أمامهم . وكانوا عند اقترابهم من منزل متدفقين تجاهه فى كتلة بشرية لاشكل لها - لأن المجالدين وحدهم هم الذين احتفظوا حتى تلك اللحظة بالتشكيلات العسكرية المختلفة - كانت الأنباء تسبقهم فيخرج عبيد المطابخ لتحيتهم حاملين المدى والسكاكين ، ويخرج عبيد المنزل جرياً ليقدموا لهم هدايا الحرير والقماش الرقيق . وكان الرومانيون يفرون فى غالبية الأحوال أما حيث تصدى الملاحظون والرومانيون لقتالهم فقد قام الدليل المروع على بشاعة ما حدث .

ولم يعد فى وسعهم أن يتقدموا فى سرعة ، فقد تضخم عددهم حتى أصبحوا مجموعة هائلة من الرجال والنساء والأطفال ، يضحكون وينشدون ، وقد أسكرتهم خمر الحرية جميعاً وهبط الظلام قبل أن يبعدوا عن كابوا عشرين ميلا ، فعسكروا فى واد إلى جانب جدول رقراق ، وأشعلوا النيران وأكلوا كفايتهم من اللحم الطازج .

وكنت تشاهد عنزات وخرافا كاملة وثورا هنا وهناك معلقة فوق أعمدة الشواء . وعطرت الهواء رائحة الشواء الجميلة المغرية فكان ذلك عيداً رائعاً لقوم يمضون العام بعد العام يقتاتون على الكراث واللفت وثريد الشعير . وابتلعوا اللحم بالنبيذ ، وزادت أغانيهم وضحكاتهم من نكهة الطعام . لقد كانوا جماعة من نوع غريب .. أبناء الغال ، واليهود ، وأبناء اليونان ، والمصريين ، والتراقيين ، والنوبيين ، والسودانيين ، والليبيين ، وأبناء فارس ، وسوريا ، وسمرقند ، وألمانيا ، والصقالبة ، والبلغار ، ومقدونيا ، وأسبانيا ، وكثيرين من الإيطاليين من سلالة أجيال بيعت فى سوق الرقيق لهذا السبب أو ذاك ، وأبناء سبأ ، وطشقند ، وصقلية ، وأقواماً من قبائل أخرى امحت أسماؤها إلى الأبد . جماعة لا يربط بينها رباط الدم أو الوطن ، بل جمع الرق بينها أول الأمر ، وتجمعها الحرية الآن .

لقد عرف العالم فى الأزمان السابقة الأسرة ومجتمع القبيلة ـ ثم عرف العالم فى ذروة تقدمه الوطن بما فيه من مزايا وفخر ، لكن العالم الآن يواجه شيئاً جديداً يتمثل فى هذه الزمالة الغريبة التى جمعت بين المضطهدين . ولم يرتفع فى هذا الحشد الضخم الذى ضم فى تلك الليلة الكثير من الشعوب والأجناس صوت واحد غاضب أو متذمر . فقد جمع بينهم حب صغير ومجد صغير .

ولم يكن الكثير منهم قد رأى سبارتا كوس ، أو أشار لهم إنسان من بعد إلى سبارتا كوس ، لكنهم كانوا ممتلئين بسبارتا كوس . فهو زعيمهم وملهمهم - إذ لم يكن قد اتضح فى أذهانهم أن الآلهة لا تمشي على الأرض أحياناً . ألم يسرق بروميثيوس بنفسه النار المقدسة من السماء وأعطاها للبشر كأغلى هدية ؟ وما حدث مرة يحدث مرات . وكانت القصص قد بدأت تروى حول نيرانهم ، وبدأت هالة كاملة تحيط بسبارتا كوس وتبرز إلى الوجود . ولم يكن فيهم - أو حتى فى الأطفال الصغار - من يحلم بعالم ليس فيه عبيد .

وجلس سبارتا كوس فى أثناء ذلك بين المجالدين ، وتكلموا ووزنوا ما وقع من أحداث . فقد استحال الجدول الصغير بالفعل إلى نهر فى طريقه إلى أن يصبح سيلا . قالها جانيكوس . وكانت عيناه تشرقان كلما تطلع إلى سبارتا كوس . وقال

— نستطيع أن نحارب العالم ونقلبه حجراً حجراً .

لكن سبارتا كوس كان أوسع منه علماً . ورقد ورأسه فى حجر فارينيا ، وراحت هى تتخلل خصلات شعره البنى المتماسكة بأصابعها وتتحسس جذور الشعر فوق خــده ، ونفسها تفيض فى الداخل بالثراء والرضا فقد آن لها أن ترضى . لكن النار كانت تشتعل فى داخله هو ، فقد كان أكثر رضا فى العبودية منه الآن . وتطلع إلى النجوم الصامتة اللامعة فى ليالى إيطاليا ، وامتلأ بأفكار

عنيفة وحنين ومخاوف ، وشكوك ، وشعر بثقل ما عليه أن يقوم به من مهام فقد كان عليه أن يحطم روما . وحملته الفكرة وما فى ضخامة التفكير فيها من وقاحة على الابتسام ، فابتهجت فارينيا وتحسست شفتيه بأصابعها وهى تغنى له بلغتها الأصيلة :

عندما يعود الصياد من الغابة ،
حاملا الغزال الأحمر بعد الصيد ،
يلتق بنظره إلى النار
ويتحدث إلى الأطفال ، وتتكلم المرأة .

وكان فى غنائها إيقاع أغانى الغابة فى بلاد باردة متوحشة . لقد سمع من قبل الكثير من أغانى الغابة الغريبة التى تغنيها . وغنت وهو يردد لنفسه أحلامه المنفسحة بين النجوم المضيئة فى السماء ، بينما كانت أفكاره يحيط بها جو من الموسيقى :

« يجب أن تحطم روما ـ أنت يا سبارتاكوس . يجب أن تقود هؤلاء الناس ، وأن تكون شديدا وقويا معهم . عليك أن تعلمهم القتال والقتل . لا نكوص ولا تراجع ـ ولا خطوة واحدة إلى الوراء . العالم بأسره يتبع روما ، إذن يجب تحطيم روما وجعلها مجرد ذكرى كريهة ، وعند ذاك سنقيم ، حيث كانت فى روما حياة جديدة يعيش فيها كل الناس فى سلام وأخوة وحب ، لا عبيد ولا أسياد ، لا مجالدين ولا ساحات قتال ، بل هو زمن كالأزمان

القديمة ، كالعصر الذهبي . سنشيد مدنا جديدة قوامها الأخوة ، ولن يحيط بهذه المدن أسوار » .

ثم توقفت فارينيا عن الغناء وسألته

— بماذا تحلم يا رجلى ، يا تراق ؟ أتخاطبك الآلهة القاطنة فى النجوم ؟ إذن ماذا تقول لك يا حبيبى ؟ أتحكى لك أسرارا يجب أن لا تذاع ؟

وهى تؤمن بذلك نصف إيمان . ومن يعرف الصدق من الكذب فيما يختص بالآلهة ؟ إن سبارتاكوس يكره الآلهة ، ولا يبدى لها أى نوع من التقديس . بل لقد سألها يوما

— هل للعبيد آلهة ؟

وقال لها

— لن يوجد شىء فى حياتى كلها لن أتقاسمه معك يا حبيبتى .

— إذن بماذا تحلم ؟

— أحلم بأننا سنشيد عالما جديدا .

فخافت منه عند ذاك ، لكنه قال لها فى رقة

— لقد شيد البشر هذا العالم ، أو هل حدث من تلقاء نفسه يا عزيزتى ؟ فكرى . أيوجد فيه شىء لم نشيده نحن ، المدن ، الأبراج ، الجدران الطرق ، والسفن ؟ إذن لماذا لا نستطيع أن نقيم عالما جديدا ؟

فقالت

— روما .

وكان فى هذه الكلمة الواحدة مفهوم القوة ، القوة التى حكمت العالم . فأجابها سبارتاكوس قائلا

— إذن سنحطم روما . لقد نال العالم كفايته من روما . سنحطم روما ، وسنحطم ما تؤمن به روما .

فسألته ضارعة

— من ؟ من ؟

— العبيد : لقد ثار العبيد من قبل مرات ، لكن الأمر يختلف هذه المرة . سنرسلها صيحة مدوية يسمعها العبيد فى كل أنحاء العالم .

وهكذا ضاع السلام وضاع الأمل . وذكرت فارينيا ، بعد ذلك بزمن طويل ، تلك الليلة ، عندما كان رأس رجلها فى حجرها وعيناه مثبتتان على النجوم البعيدة . لكنها مع ذلك كانت ليلة حب . وقليل من الناس من تجود عليه الدنيا بقـــلة من أمثال هذه الليلة .. إذ يصبحون عند ذاك من السعداء . ورقدا هناك ، بين المجالدين ، إلى جانب النار ، ومر الوقت بطيئا . ومس كل منهما الآخر ليؤكد إحساسه به وأصبحا كإنسان واحد .

(انتهى الجزء الأول)